

فهد المارك

الجزء الثاني

صورة المؤلف



أعوذُ باللهِ من قومٍ اذا اسمعُوا
خــيراً أسروهُ أو شراً أذاعــوهُ

أبو العلاء احمد بن
عبد الله بن سليمان
المعري التنوخي

مقدمة

أخي العربي :اليك بعض شيم أهلك واسلافك التي كان لي الشرف بأن وفقت لجمعها وإخراجها من طي الأهمال الى حيز الخلود ، وقد ذكرت في مقدمة الجزء الأول من الطبعة الأولى شيئاً من معاني العبارات الآتية :

ـ أن هـــذه الحـوادث وان يكن فيهـا شيء من الروعـــة الى الحد الذي يخيل للقاريء بانها وليــدة خيال مصطنع . ولكنها حوادث واقعية لا مجال للشك في صحتها . والسبب أن العربي بطبيعته ميال الى الصدق وأما الاحاديث المختلقة فإنها لا تعيش في عالم العربي العريق قطعياً ، والمرء الذي يعرف عنه الكذب لا يجد من يحترمه ، ولئن كان المرء الكـذاب عند العرب ممقوتاً بصورة عامة . فإنه عنـد عرب البـادية منبوذ ومحتقر بصورة خاصة . والادلة على ذلك أكثر من أن تحصى وإذا شئت أن أورد شيئاً منها على سبيل الأختصار سرني أن آتي باعظم دليل على ذلـــك : وهو أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام عندما جاء برسالته من ربه وشاء أن يقف منه مشركو العرب موقف المكذب والمكابر ، عندئذ تحـداهم

عليه السلام بما يعرفونه عنه من الصدق ، ولما لم يستطع أي مكابر أن يثبت عليه ادنى شيء مما تحداهم به ، عندئذ أقام عليهم الحجة البالغة ، مؤكداً لهم انه كإنسان عاش بين ظهراني قومه اربعين سنة . ولم يستطع ولن يستطيع ، أي واحد منهم أن يثبت عليه أقل حديث يمت الى ادنى معنى من معاني عدم الصدق باية صلة . فإنه من المستحيل أن يكذب على رب العالمين .

فكانت هذه البراهين أكبر دليل على اقامة حجة محمد علـــى قومه ، وعندما وفد أبو سفيان الى « هرقل » سأل أبا سفيان هرقل عن النبي محمد قائلاً له ما معناه « أتعرفون عن محمد شيئاً من الكذب قبـــل أن يأتي اليكم برسالته » .

وبالرغم من أنه ظل مصراً على عداوته لرسالة محمد حتى اسلم يوم فتح مكة بالسيف . (١)

وعلى الرغم من أن أبا سفيان من اعظم زعماء قريش الذين تصدوا لعداوة الرسول ومحاربته ، بل هو زعيم قريش في غزوة أحد كما أنه زعيم قريش والاعراب المشركين قاطبة ومن دار بفلكهم من اليهود في غزوة الخندق .

أقول : بالرغم من ذلك العداء المتأصل في نفسية أبي سفيان وذلـــك الحقد الدفين رغم ذلك ، نجد أبا سفيان عندما وجه اليـــه هرقل السؤال

---

١ - كان ابو سفيان « رض » بعد ان اسلم من المناضلين دون الاسلام

المتضمن ما يعرفه عن محمد من صدق الحديث نجـــده ما استطاع إلا أن يقول : « كنا نعرفه صدوقاً عندما كان بين ظهرانينا . أما الآن فلا نعلم عنـه شيئاً » .

ويقول الرواة عن أبي سفيان انه قال : عندمـا سألني هرقل عمـــا اعرفه عن صدق محمد فكرت ملياً وشئت أن أفتري عليه وأقول أنــــه كذاب ، ولكنني خشيت أن قومي الذين يعرفون محمداً بالصدق وهم في الوقت نفسه حاضرون ويسمعون السؤال الذي وجهه هرقـل اليّ خشيت ان يحتقروني ، وانني سوف افقد منزلتي عنـدهم لا محالة فيما اذا سمعوا عني اني افتريت و كذبت .

فهذا خلق أبي سفيان وهو مشرك جاهلي يعبد الحجارة ورفاقـــه الذين يخشى انهم سوف ينبذونه إذا كذب ، هم الآخرون مشركون ومن نوعه . ولكنه رغم ذلك ، مـا استطاع أن يكـــذب ويفتري حتى على عدوه اللدود وعدو رفاقه معاً ، وإذا كان الخلق العربي يتنافى مع الكذب في الحين الذي كان العرب منغمسين في جاهليتهم ، فانهم بعدما هذبهم الاسلام وامنوا برسالة محمد بن عبد الله « ص » الذي قال .

« إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق » . بعد ذلك نجد محمداً اعتبر جريمة الكذب أعظم ، واكبر من جميـع الذنوب بما فيها الذنوب الكبائر ، بل اعتبر أن الكذب جريمة لا تغتفر بدليل الحديث الوارد عن النبي عندمـا وجه اليه أحد الصحابة السؤال التالي :

أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال الرسول : نعم .

– أيشرب الخمر المؤمن ؟ قال : نعم .

– أيزني المؤمن ؟ قال : نعم .

– أيكذب المؤمن يا رسول الله ؟ قال : لا .

ولما كان الكذاب منبوذاً عند العرب وهم جهلة . وجريمته لا تغتفر في الاسلام ، فانني أؤكد بأن جميع هذه القصص ثابتة ولا جدال في صحة ثبوتها . اما الاسباب التي جعلتها متوارية ولم تبرز الى عالم الوجود الى الآن هذه الأسباب سبق لي أن أشرت اليها في مقدمة الجزء الاول الطبعة الاولى ، وثمة سبب لم أشر اليه في الجزء الاول وهو ان مثل هذه القصص والحوادث لا يستطيع ان يكتبها إلا كاتب من صميم أهل البلاد أنفسهم فحسب ،بل ويجب أن يكون لدى هذا الكاتب ثقافة باللغة العربية الفصحى . وثقافة أوسع بمعرفة الأدب الشعبي نظماً ونثراً . وفي الوقت ذاته ينبغي لمن يريد أن يتصدى للكتابة عن هذا التراث ان يكون لديه بالاضافة الى ما ذكرت المزيد من الاستعداد الفطري لتذوق هذه المعاني كما يكون لديه من الوقت ما يمكنه من التغلغل بين صفوف ابناء الشعب على مختلف طبقاته .

وهكذا ضاع هـــذا التراث القومي أو كاد يضيع بين الكاتب الذي لديه ثقافة عربية دون أن يكون لديه علم بالثقافة الشعبية – وبين الآخر الذي لديه ثقافة بعلم الادب الشعبي ولكنه ليس لديه قدرة على نقل هذا التراث القومي من اللغة العامية الى اللغة العربية الفصحى .

* * *

وبعد فان هـــذه القيم العربية المثلى هي المرآة التي تعكس الخلق

العربي لأنها من صميم الحياة العملية ، يطبقها أولئك القوم من نفوسهم على نفوسهم ، بدون أن يكون هناك أي قانون يرغمهم على تطبيقها مـــا عدا وازع الخلق فقط ، كما لم تكن أية سلطة تعاقب من يشذ عنها اللهم إلا سلطة الوجدان ومحاكمة الضمير ...

وهؤلاء العرب عندمـا يتدبر تاريخهـم المرء بوعـي وانصـاف ، فانـه قل أن يجد أمة في الدنيا توفر لديهـــا من الرصيد الخلقي كما توفر لناطقي الضاد ..

أما كون هذه الأمة مرضت ، وبعد مرضها المزمن الخطير قهرت ، وبعد هذا المرض وذلك القهر ، شمت بها ــ لا أعداؤها الموتورون فحسب، بل حتى أبناؤها العاقون ، ومن ثم ذهب كل من هؤلاء وأولئك يحصي عليها هناتها ويسجل عليها كبواتها .. أقول : اذا كان الأمر كذلك كما هي الحقيقة المحسوسة ، فهذه سنة الكون ، تمرض الأمم كما يمرض الافراد ، وكما انه يوجد لدى بعض الافراد مناعة جسدية وصحية ويكون باستطاعته ان يقاوم جميـع الامراض مهما بلغت من الشدة ، كما يوجد عند بعض الافراد عكس ذلك ، وبقدر ما نرى هذه النظرية منطقية ومعقولة بالنسبة للافراد نراهـا أيضاً معقولة ولا تقبل الجدل بالنسبة للامم ..

واعتقد جازماً أن القارىء المنصف الواسع الاطلاع بتاريخ أمة العرب بصورة خاصة ، وبتاريخ الأمم البشرية بالمفهوم العام الشامل سيشاركني الرأي بأن العلل القاتلة والامراض المميتة والاوبئة المتتالية ، التي اصيبت بها الامة العربية ، لو اصيبت بها أية أمة كانت لمـا استطاعت ان تعيش يوماً من الدهر .

واذا شئت أن أثبت صحة هذه الظاهرة بالأدلة المقنعة والبراهين النيرة ،

طاب لي أن أقول :

أيستطيع أي مؤرخ أن يثبت أن هناك أمـــة استطاعت أن تتحدى الاحداث مـدة تزيد على ثلاثة عشر قرناً أي منذ مقتل عثمان بن عفـان الى يومنا هذا ومعاول الهدم تحاول أن تقوض صرحها الشامخ .. ومعدات النسف والتخريب تبذل ما استطاعت من الجهد لكي تهد بنيان هذه الامة من أساسه ..؟

فمن الحروب الاهلية التي ابتدأت بين علي ومعاوية ، ثم بين الخوارج وعلي ومعاوية .. ثم بين الامويين والزبيريين .. وبين الامويين والعباسيين.. وبين العباسيين والعلويين ، وبالتالي انتقلت السلطة الى يـــد المماليك فمصر مثلا .. التي كانت ولم تزل من أعظم البلاد العربية كان يحكمها احمد ابن طولون أحد المماليك ، كما كان يحكمها فيما بعـد المماليك الاخاشدة ، ثم حكمها كافور مملوك الاخشيدي ، وامتد حكم هذا المملوك الذي لم يكن مملوكاً للمماليك الاخاشدة فحسب ، بل ومعدوم (الفحولة) امتد حكمه الى الحجاز والشام ، ووفد اليه مادحاً أبو الطيب المتنبي وقال فيه :

قواصـــد كافور توارك غـــيره

ومن قصـــد البحر استقل السواقيا

كما قال :

واخـــلاق كافور إذا شئت مدحه

وأن لم اشأ تملي عليّ وأكتب

وأي معد يستحقك قدره

معد بن عدنان فداك ويعرب

ويكفيك عما يدعى الناس انه

اليك تعد المكرمات وتنسب

ثم قال فيه أيضاً :

تجاوز قدر المدح حتى كأنه

بأحسن ما يثنى عليه يعاب

ترى أي مرض أعنف وأشد واخطر من مرض امة يقول أبلغ شاعر من شعرائها بإنسان ككافور مثل هذه الابيات ..

ثم ذهب كافور وجاء الى مصر ملوك الفاطميين بقيادة جوهر الصقلي جاء هذا اليها غازياً وفاتحاً ، ثم جاء الايوبيون وازاحوا آخر من تبقى من سلالة الغزاة الفاطميين ، ومن المعلوم أن الأيوبيين من أصل كردي ، « مع احترامنا واجلالنا للبطل الصنديد صلاح الدين الايوبي ، قاهر الغزوات الصليبية ، ثم بعد الايوبيين جاء المماليك الشراكسة ثم المماليك البحرية وحكموا مصر برهة من الزمان حتى جاء محمد علي جد الخديويين وقضى على

ما تبقى من سلالة المماليك بأسلوب كان الى الغدر اقرب منه الى الوفاء.. ومن المعلوم أيضاً أن محمد علي حاكم مصر لم يكن عربياً وانما كان ارنؤوطياً، فهذا ما حل في مصر التي تعتبر من أكثر البلاد العربية عدداً واغناها بثروتها الاقتصادية .

وما نقوله عن مصر نقوله ايضاً عن العراق الذي ظل فيه الخليفة العباسي العوبة بيد مماليكه فينصب المماليك من يشاءون من اسيادهم واذا لم يرضوا عنه خلعوه أو قتلوه أو سملوا عينيه ..

وأما الشام[1] فلا تسل عما كان يحل فيها من تدهور الأوضاع ومن الحروب الاهلية ومن استعانة بعض امرائهم بالغزاة الصليبيين على البعض الآخر ...

وأما الاندلس ، فلا داعي للحديث المحزن عنه ..

وأما المشرق العربي بما فيه شبه الجزيرة العربية واليمن وجنوب اليمن والبحرين وعمان وقطر الخ . فهذه الجهات كلها لم يكن نصيبها من التعاسة والتفرقة والحروب الاهلية والنعرات القبلية وسفك دماء بعضهم لبعض ، وسوء نظام حكمهم بأقل تعاسة من البلاد العربية السالفة الذكر . هذا اذا لم نقل أنها اسوأ من حالة تلك البلاد من شتى الوجوه ..

فهذه أوضاع البلاد العربية من حيث امراضها وعللها الداخلية ، واذا أضفنا الى هذه الامراض الداخلية العلل التي دهمت أمتنا من الخارج ، إذا أضفنا ذلك طاب لنا بل ساءنا أن نقول : أبتلي العالم العربي بغزوات

---

١ – كلمة الشام كانت تطلق على سورية ولبنان وفلسطين والأردن .

متتالية ، وغزاة متباينين بأساليبهم الوحشية ومتفقين بأهدافهم العدوانية .. فمن الغزو التاتاري الى المغولي .. الى الغزاة الاوروبيين المستعمرين ، بل المستغلين الذين غزوا العالم العربي وتقاسموا خيراته حقبة طويلة المدى ، فمنهم من دحر وطرد كالانجليز الذين طردوا من مصر والسودان ، وكالفرنسيين الذين طردوا من الجزائر ومن تونس ومن المغرب ومن سورية ولبنان .. وكالطليان الذين طردوا من ليبيا ، ومنهم من ظل في بعض الاجزاء العربية يحاول محاولة مستميتة ان يظل كما كان يستغل ثروة هذه البلاد على الرغم من ان محاولته هذه الفاشلة مخالفة لتطور العصر الحديث ، ومضادة لتيار الوعي العربي ، كمحاولة الانجليز البقاء في الجنوب اليمني وفي البحرين وفي عمان الخ .. وفي بعض البلاد العربية التي وان كانت دولة مستقلة ذات سيادة ، ولكن خيراتها واموالها ظلت في البنوك الانجليزية تتمتع بربحها كما تريد ، وكيف تشاء ..

هؤلاء الغزاة الذين تكالبوا على هذه الأمة والذين لم تطب أنفسهم ان يتخلوا عن استغلالهم لمقدراتها واستعبادهم لحريات ابنائها ، حتى وضعوا وتد (جحا) [1] في قلب الأمة العربية ، وجاء هؤلاء الظالمون بمشردي اليهود وحثالة البشرية ، وقالوا للحثالة كوني دولة ، فكانت ، وقالوا فليكن اسمك اسرائيل فسميت بذلك .. وقالوا للامم المتحدة فليكن لها مقعد ضمن الدول الشرعية ،

---

١ – ينسب الى جحا الذي تنقل عنه الأساطير انه باع مسكناً له ولكنه استثنى من البيع وتداً في الحائط ، فظن المشترون انه لا اهمية له .. ولكن جحا ظل يأتي كل يوم ويضع على رأس هذا الوتد جيفاً منتنة مما جعل اهل المنزل يزهدون في منزلهم ، واخيراً هجروا المنزل فجاء جحا عائداً الى منزله ..

فلبت الأمم المتحدة هذا الطلب بما في ذلك الاتحاد السوفيـاتي .. لأن هذا الاخير بينه وبين العالم العربي صراع فكري وعقائدي لا يقل ضرره وخطره عن الاستعمار الرأسمالي الغربي .

* * *

هذه صورة مصغرة عن العالم العربي ، ولكن هذه الصورة على ضآلة حجمها ، تجعل بامــكان ابسط انسان ان يحـكم على هذه الأمة بأنهـا من حيث الماضي مريضة مرضاً مزمناً .. ومن حيث الحاضر فان قسما منها لا زال في دور النقـاهة ، وان تكن دبت في عروقه بوادر الشفـاء وبدأت الصحة تسير الهوينا في هيكله الذي انهكه المرض ، ان يكن الأمر كذلك فإن رواسب المرض المزمن لا زالت كامنة في جسده المهدد بنكسة المرض الخطير..

وهناك قسم آخر في سبيله الى دور النقاهة وهو لم يصل من الصحـة الى الدرجة التي وصل اليها القسم الاول .. وهذا مما يجعلنـا نكرر العبارة التي جاءت في السياق ونقول : اننا عندما ننظر الى هذه الأمة بعين الانصاف فإننا سوف نؤمن ايماناً لا يتطرق اليه الشك بأن لديها من المناعة الخلقية الشيء الذي قل ان يضارعها فيه احد ..

أجل .. لو لم يكن الأمر كذلك ، لقضت تلك العوامـل قضاء مبرماً على حياتها من شتى الوجوه ، ولـما بقي لهذه الأمة أدنى أثر في عـالم الوجود ..

قد يظن أحد انني اتحدث بدوافع عاطفيـة بدون ان استند الى شيء

من الأدلة والبراهين ، ولكي افند هذا الظن يحسن بي أن اثبت صحة حجتي هذه بما هو آت :

.. ترى أيستطيع أي مكابر أن يثبت بالأدلة القاطعة بأن هناك أمة من الأمم واجهتها حوادث متتالية وحروب متعاقبة وأعداء من كافة أرجـــاء الدنيا سواء من المعسكر الغربي الرأسمالي الذي تصدى لعـداء هذه الأمة بصورة سافرة علنية ذلك التصدي الذي لو لم يكن منه الا خلقه لاسرائيل ومواصلة امداداته لها غذائياً وعسكرياً ومعنوياً وبالتالي تعهده بحمايتهـا فيما اذا شعرت بخطر يهدد حياتها من أمة العرب ..

أو من عداوة المعسكر الشرقي الذي لم يلتق على صعيد واحـد هـو وأعداؤه الغربيون إلا في عداوتها للعرب ليس إلا ..

أجل أية أمة من الأمم تضافر على عدائها هذان العدوان الجباران ومن ورائها اليهودية العالمية التي بذلت وسوف تبذل كل ما تملكه من قوة مادية في سبيل بقائها الذي لا يتم إلا على حساب سحق العرب .. قل لي بربك أية أمة تستطيع أن تقف لمواجهة هذه الاحداث القاسية بل القاتلة دون ان تتلاشى من عالم الحياة ..

زعم المستر -تشرشل- في مذكراته ، بل افتخر بأن شعبه الانجليزي وقف وحده أمام الجيش الالماني ، وهو زعم باطل من أساسه ، وذلك انه عندما دخل الحرب كانت فرنسا في بداية الأمر واقفة بجانبه ، فكان من نتيجة ذلك ان الجيش الالماني رمى بثقله كله على فرنسا فتنفست بريطانيا الصعداء .. هذا في بداية المعركة ، أما في منتصف المعركة فقد دخلت روسيا الحرب ، الأمر الذي جعل قوة الجيش الالمـاني تفك الحصار عن بريطانيـا

وتذهب بجيشها اللجب الى روسيا .. فتنفست بريطانيا أيضاً الصعداء مرة ثانية .. ثم جاءت خاتمة المطاف بدخول امريكا الحرب بجانب بريطانيا .. يضاف الى ذلك ان امريكا من أول بداية الحرب وهي تمد بريطانيا بالغذاء والمعدات الحربية ..

اذن لم تقف بريطانيا وحدها ضد الألمان كما يزعم ويفتخر تشرشل ، ولو وقفت بريطانيا وحدها ضد المانيا وجهاً لوجه بدون معونة ومؤازرة أية دولة ، لو كان الأمر كذلك لما بقي اليوم دولة في الدنيا تسمى بريطانيا !

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى مناعة العالم العربي الذي كان ولا يزال صامداً وحده منذ قرون عديدة ضد جميع القوى المتكالبة السالفة الذكر ..

ومما هو جدير باعجابنا بقوة المناعة الوقائية التي يتمتع بها العالم العربي، هو أن معاول الهدم التي تتصدى لسحقه وتحاول تقويض صرحه لم تكن محصورة بأعدائه الذين جاء ذكرهم في السياق ، بل حتى الانانيين والعاقين من أبنائه يسعون لسحقه بقصد أو بغير قصد .. فكم سمعنا ورأينا وقرأنا من العبارات التي دبجتها اقلام بعض الكتاب العرب الذين لا يخلون من أحد امرين : أما ان قوة الاجانب المادية أعمت بصائرهم عن كل ما هو حسنة من حسنات أمتهم ، وجعلتهم ينظرون الى كل ما يصدر عن المنتصرين بعين ملؤها الاعجاب والتقدير وفقاً للمثل القائل :

(المغلوب الضعيف معجب بكل ما يصدر من غالبه ، وزاهد بما يصدر من ذويه)..وأما انه يخيل الى أحدهم انه لاينظر اليه كمثقف أو كفيلسوف

الا بعد ان يعلن ازدراءه لأمته ، وفي الوقت ذاته يشيد بإعجابه بالغزاة بكل تعبير عار من الكياسة والذوق والأدب ..

اجتمعت ذات يوم بعربي من النفر الذين لديهم ثقافة واسعة النطاق وذكاء متوقد وتفكير عميق .. بل ومؤلفات متباينة الاهداف ، فوجه اليّ صاحبي السؤال التالي :

– أراك ذكرت في مؤلفك «التطور الفكري» جملة تشير بها الى (انه لا يوجد أمة توفر لديها من المثل العليا كما توفر للأمة العربية) الخ ..

ولما كنت أعرف أن محدثي من النوع الاول السالف الذكر أي من المغرمين بأفعال المنتصر بقدر ما هم زاهدون وماقتون لما يبدو من المغلوب .. لما كنت أعرف هذه الحقيقة عنه فقد وجدت نفسي مضطراً لأن أجيبه جواباً مفحماً ومعقولاً فقلت :

« ترى لو أن هذه الجملة التي تريد أن تحاسبني عليها صادرة من كاتب ما بحق الأمة الانجليزية في القرون المنصرمة التي كان الانجليز فيها يباعون ويشرون في أسواق روما كما تباع السائمة والامتعة .. أما يجد ذلك الكاتب الذي يقول مثل هذه الكلمة من يلومه على كلمته هذه ويؤنبه كما تلومني أنت الآن ؟.

ثم استطردت وقلت: ان الظروف التي جعلت من الانجليز الذين يباعون في الاسواق بالامس شعباً يعتبر اليوم من أرقى الشعوب الغربية ، حرى بها الف مرة ان تجعل من الامة العربية أمة تسترد مكانتها في عالم التاريخ لانها أمة لديها مجد موروث في الحين الذي لم يكن للانجليز أدنى تراث

تاريخي عريق يضاهي تاريخ أمة العرب ..

فصمت صاحبي صمتاً لا أظن انه آمن بما قلت، كما انني لا أظن أن لديه جواباً يدحض به حجتي أو يفند به رأيي ..

* * *

ولما كان العالم العربي فيه من هو مريض مرضاً مزمناً موروثاً ومع ذلك لم ييأس ولم يستسلم للمرض الخطير ، وانما يحاول أن يسير في الطريق الذي سلكه الاصحاء ومن سار على الدرب وصل . وفيه من هو اليوم يمر بدور النقاهة الذي لم يتجاوزه بعد .. فإنه يجب علينا والحالة هذه أن نلتمس له جميع المبررات وان نؤمن بأن الزمان يسير لصالح العرب.. وان كانت بعض الدلائل الحالية لا توحي بالاطمئنان .. ولكن تطور الزمان يسير كله في جانب العرب .. وكل ما أرجوه هو أن يذكر أولئك الزاهدون بأمتهم العربية والمعجبون بأعدائهم ، عليهم ان يذكروا أن الفترة التي تسمى عند الاوروبيين بالقرون الوسطى .. أي فترة التدهور والانحطاط ،هذه الفترة تعتبر عند العرب فترة الانتصارات والفتوحات والازدهار .

* * *

هذا وقد اجدني ملزماً بأن أذكر ان هناك من الكتاب من وجه اليّ

نقداً خاصاً في ما له علاقة بكتابي الجزء الاول ، والنقد الذي وجهه اليّ الناقدون هو قولهم . كان من الافضل على حد زعمهم أن أترك القصة على ما كانت عليه في لغتها الشعبية .

والحق ان الذين وجهوا اليّ نقداً بهذا المعنى أكثر من واحد سواء منهم من نقدني كتابة ومنهم من نقدني برسالة وجهها إلي بدون أن اعرفه - ومن صارحني بنقده شفهياً وجهاً لوجه . وعلى كل فانني متوقع مثل هذا النقد وفقاً للمثل القائل : « من ألف فقد استهدف » .

وكان جوابي عليهم جميعاً ما يلي :

أولاً - انني لو نقلت القصة باللغة الشعبة كما رويتها فانني لا أجد من يقرأها من الناقدين أنفسهم .

ثانياً - انني عندما أكتب هذه القصص العربية لا أقصد من وراء كتابتي لها ان اعرضها على العوام الشعبيين وانما أقصد بأن انقلها بمعانيها الى عشرات الملايين من أمة الضاد بدون أن أبدل بأصل المعنى وجوهره أدنى شيء .

ثالثاً - لو كتبتها بلغتها الشعبية فانني سوف لا أجد من يقرأها من القوم الذين كتبتها بلغتهم اللهم الا العدد القليل جداً ، وذلك للأسباب الآتية :

منها ان الذين يعرفون اللغة الشعبية بصفتها لغتهم المحلية فهؤلاء الكثير منهم عوام لا يحسنون القراءة كالبدو وأمثالهم .

ومنها ان الجيل الحديث من أبناء الجزيرة أصبح الكثير من متعلميهم

لا يعرف شيئاً من الأدب الشعبي بحكم شيوع الثقافة العربية الفصحى ، وحتى اذا وجدنا منهم من يعرف مثلاً معاني الشعر القومي فانه لا يتذوقه كما يتذوقه أهله القدامى ..

ومنها ان القصص الشعبية التي أوردتها في هذا الكتاب ليست مقصورة على جهة ما ، بل كما هو واضح انها من جهات شعبية مختلفة .

ومن المعلوم ان اللغات الشعبية عند قبيلة ما تختلف لهجتها عند القبيلة الأخرى ..

وما يقال عن اختلاف لغات القبائل الشعبية يقال عنه أكثر في اختلاف اللغة الشعبية مثلاً بين الجزائري والسوداني وبين الليبي واليمني - بل حتى بين ساكني شبه جزيرتنا العربية انفسهم ..

فهل يطلب مني هؤلاء الناقدون أن سرد القصة التي رويتها بلغة الليبي الشعبية أو بلغة السوداني أو الجزائري الخ ؟... هل يريد هؤلاء على حد رأيهم ان يكون كتابي مزيجاً من هـذه اللهجات الشعبية المتباينة _ تلك اللغات التي لو لم تسنح لي الفرصة بزيارة تلك البلاد ، ومخالطة اهلها لولا ذلك لما استطعت ان افهم من لغتهم الشعبية ادنى شيء ؟.

وهل ألام فيما اذا كتبت هـذه الحوادث باللغة العربية الفصحى لكي يقرأهـا جميع ابناء الامة العربية من المحيط الى الخليج على مختلف لغاتهم المحلية؟..

وجوابي على بعض الادباء الذين تحدثوا معي صراحة قائلين : أما كان

الاحرى بكتابك « من شيم العرب » أن يكون ككتاب الاغاني وككتاب قصص العرب الخ من الكتب التي نقلها المؤرخون والكتاب عن العرب في لغتهم العربية ، ودونوها في نفس تلك اللغة .

جوابي على ذلك هو ان اولئك الكتاب الذين ألفوا تلك الكتب باللغة العربية انما نقلوها عن اهلها الذين كانوا يتحدثون اللغة العربية السليمة عندما كانت تلك اللغة هي لغتهم المحلية بدون ان يطرأ عليها اي تبدل يفسد جوهرها الاصيل .

* * *

وليس لدي من الجواب النهائي للاخوان الناقدين إلا أن أقول - هذا مجهودي الخاص الذي بذلت فيه جل جهدي منذ زهرة شبابي فمن كان لديه رصيد من هذا التراث فما عليه الا أن يدونه ويكتبه بالاسلوب الذي يختاره ، مع العلم بأن الفترة التي طبعت فيها كتابي الجزء الاول أخذت مدة بلغت ما يقارب عشر سنوات ، وكان الاحرى بالناقد أن يكون في خلال تلك الفترة ما استطاع أن يؤلف كتاباً « عن شيم العرب » التي لا حصر لها . وان يقدم لأمته شيئاً من هذا التراث بالاسلوب الذي يهواه ويختاره .

هذا جوابي على من ينقدني بما أشرت اليه من حيث نقد الكتاب من الذين لا شك عندي بأن نياتهم حسنة .

أمـــا جوابي على النـاقـدين الآخرين الذين منهم من نقـدني عن

قصد حسن ومنهم من نقدني عن نية الله أعلم بها ، وأعني اولئك الذين قالوا انني لم أكتب الا عن جهة معينة ، بل وقد بلغ ببعضهم الفقر من العلم والانصاف حداً لا مزيد عليه كما بلغ رصيدهم من العقلية القبلية الجوفاء درجة جعلت نقدهم اليّ موجهاً بمعنى يفهم منه بأنني لا أكتب الا عن جهة ما من الجهات التي تربطني بها رابطة القربى .

فجوابي على هؤلاء هو أنني كأي عربي مخلص لأمته أعتقد جازماً أن أية مكرمة تنالها أية جهة كانت من أمة العرب فإنما هي ملك مشاع للعرب جميعاً .

هذا جوابي بشكل عام – أما جوابي بصورة خاصة فهو انني أعلنت في صحف بلادنا المحلية أكثر من مرة طالباً من أي واحد له المام بالاحداث التي تمت الى الشيم العربية بأدنى صلة أن يوافيني بأي شيء من هذه التراث كما أوضحت فصول الكتاب الذي يشمل المعاني التي أطلبها من الرواة – ومن المؤسف انه لم يردني أي شيء من الحوادث التي تستحق أن أسجلها في حقل شيم العرب .

ترى هل يظن هؤلاء الناقدون او الحاقدون السطحيون أنني وجدت شيئاً من شيم العرب لجهة ما وانني اغفلته ؟

وانني اذ أرد على الناقدين من كلتا الجهتين . فإن من دواعي فخاري أن أقدم للقراء تعريفاً عن هذا السفر المتواضع موضحاً كما يلي :

الجزء الأول فيه ٣٢ قصة موزعة على الفصول الآتية :

الفصل الاول – الوفاء

الفصل الثاني – العفو

الفصل الثالث – الامانة

الفصل الرابع – عفة نساء العرب

الجزء الثـــاني ٤٥ قصة

الفصل الاول – حماية المستجير

الفصل الثاني – حماية الجار واكرامه

الفصل الثالث – الصبر على المصائب

الفصل الرابع – اصطناع المعروف والمكافأة عليه

الفصل الخامس– بر الوالدين وفطنة المرأة العربية

الفصل السادس – افعال البر والسخاء المحمود

الجزء الثالث ٣٨ قصة

الفصل الاول - الشجاعة الحربية

الفصل الثاني - الشجاعة الادبية

الفصل الثالث - الشجاعة الفكرية

الفصل الرابع - شجاعة الساعد

الجزء الرابع ٤٢ قصة

الفصل الاول - اكرام رفيق السفر والذود عنه

الفصل الثاني - النخوة العربية

الفصل الثالث - المروءة

الفصل الرابع - الفراسة

وأخيراً أرجو القارىء الكريم أن يقبل معذرتي فيا اذا وجـدني اطلت الكتابة في هذه المقدمة ، وذلك لانها مقدمـــة لجميع الأجزاء الثلاثة – كما أن هناك بحوثا ذات علاقة بصميم هــذا الكتاب اضطرتني الى أن استرسل في هذا الموضوع

كما أكرر رجائي من الناقدين الكرام من كلا الجانبين إن يكونوا الى جانب التسامح أكثر . ولا سيا اذا أكدت لهم ان ما قمت به بجمع هذا التراث هو اقصى ما بذلته من الجهد وابعد ما وصلت اليه من الاجتهاد والاخلاص . وقديما قالت العرب لا يلام المرء بعد الاجتهاد

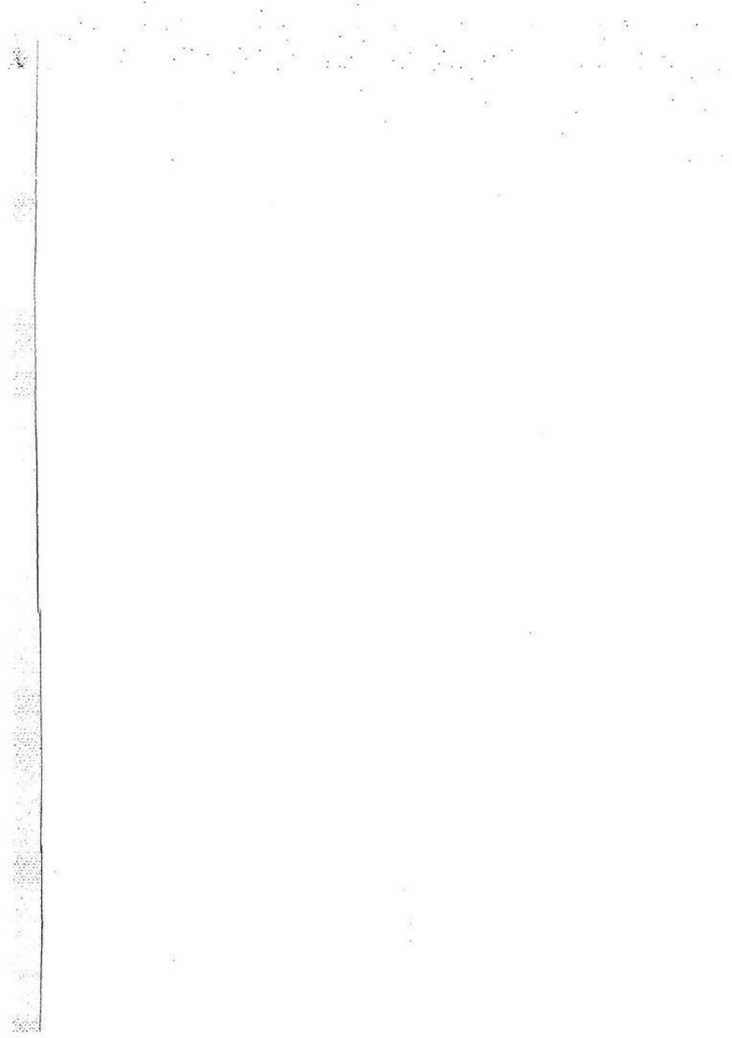
المؤلـف

الفصل الأول

حماية المستجير

« وان أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه »

(قرآن كريم)



منتهى التضحية وأسمى معاني المروءة

- ١ -

قرأنا في كتب الأدب العربي وفاء كل من الأديبين المشهورين عبدالحميد الكاتب وعبدالله بن المقفع ، والرواية تفيد أن الاول كان متوارياً في بيت الثاني، خوفاً من سلطان الدولة العباسية التي كانت تنقب عنه لتضرب عنقـــه ، بصفته أمين سر مروان آخر خلفاء بني أمية الملقب بمروان الحار ، وعبد الحميد بالاضافة الى أنـه امين سر مروان كان كاتبه الخاص،بمعنى رئيس الديوان الملكي بالعصر الحديث وبعد الجهد الكبير الذي بذلته الدولة العباسية للعثور على عبد الحميد ، وجده جنود السفاح العباسي مختبئاً في منزل صديقه عبدالله بن المقفع حسب الرواية المنقولة .. وكان الجنود لا يعرفون شخص عبدالحميد مما جعل عبدالله بن المقفع يتطوع بمحض ارادته ووفاء منه ويلقي بنفسه بين جنود السفاح الجبار قائلا :

ـ ها أنذا عبدالحميد الكاتب الذي تسألون عنه، وعندما أراد أن يقوده الجنود الى عالم الاموات أسرع الكاتب وقال :

ـ ان الرجل افترى عليكم انني أنا عبدالحميد الكاتب أما هذا فإنما هو عبدالله بن المقفع .فأخلوا سبيل المقفع ثم قادوا الكاتب وقتلوه ..

لقد كان لهذه القصة مكانة مرموقة في كتب الأدب، مع العلم اليقين اننا عندما نوازن بينها وبين قصتنا لتي سوف نوردها في هذا الباب نجد أن هناك تبايناً كبيراً بين هذه وتلك :

أولاً – ان قصة ابن المقفع وصديقه وقعت في مستهل القرن الثاني الهجري أي من مدة اثنى عشر قرناً ونيف .. فإذا سلمنا جدلاً بصحة وقوعها قلنا أن نقول : ان الوفاء والتضحية بين الاصدقاء في ذلك العهد شيء مألوف ، ولم يكونا موضع غرابة كغرابتها بعصرنا الحديث الذي لا يقال عنه إلا انه عصر مادي عار ومجرد من أي شيء يمت الى الامور المعنوية أو الروحية بأدنى صلة من الصلات.

ثانياً – هناك من الاضطراب في الرواية ما يجعلنا نشك في صحة الحادثة عندما نناقشها من الناحية التاريخية على الوجه الآتي :

من المعلوم ان ابن المقفع كان مجوسياً ولم يسلم إلا في عهد الدولة العباسية على يد عيسى بن علي ، فيكون بين المقفع والكاتب تباين في الرابطة الروحية العقائدية التي هي أقدس الروابط وأوثقها صلة خاصة في ذلك العهد فإذا أمكن أن نصدق بأن أحد علماء المسلمين المتعصبين الاتقياء يفتدي نفسه بشيوعي متعصب كخالد بكداش مثلاً أو العكس ، إذا أمكن أن نصدق بذلك جاز لنا أن نصدق أن مجوسياً كأبن المقفع يفتدي نفسه ويدفعها قرباناً لمسلم كعبد الحميد الكاتب ..

ثالثاً – من المعلوم أن ابن المقفع قتله المنصور في العراق سنة ١٤٦ هـ . وكان سنه وقتذاك ثلاثين سنة بينما نجد عبدالحميد الكاتب قتله السفاح في مصر سنة ١٣٢ هـ . فمعناه أن ابن المقفع في سن السادسة عشرة في التاريخ الذي قتل فيه عبدالحميد، أي في سن المراهقة فكيف ترسخ عرى الصداقة بين كهل كعبدالحميد وصبي مراهق كأبن المقفع .. ومن هنا يكون التباين سافراً بالعقيدة وبالسن ..

ومثل فصول هذه الرواية المضطربة يجعلنا لا نؤمن بصحة قصة ابن المقفع والكاتب كإيماننا الراسخ بهذه القصة التي لا زال بطلها حياً، ورواتها على قيد الحياة وتاريخ حدوثها في عام ١٣٦١ هـ .

في قمم الجبال

في جنوب شبه الجزيرة العربية وفي رؤوس الجبال الواقعة بقرب قرية تسمى (بيش) من قرى جازان تقيم هناك قبيلة من قبائل العرب يقال لها قبيلة الصهاليل قحطانية النسب يعيش رجالها ونساؤها من ألبان ولحوم اغنامهم وزراعتهم .. وقل أن يأتي أحد منهم لمدينة جازان ، اللهم إلا في المناسبات الطارئة النادرة،وإذا قدر لأحدهم أن يأتي المدينة لقضاء غرض ما فيدخلها بحذر وبسرعة خاطفة ، فكأنه طير في قفص لا يهدأ له بال حتى يفارق البلاد وأهلها ويعود الى رؤوس جباله يغرد بين أشجارها وهضباتها كالبلبل عندما تزدهر الاشجار وتينع الاثمار في ليالي الربيع ..

ويعيش بين رجال هذه القبيلة فتيان أقوياء الشكيمة شديدو المراس وكل فتى منهم يرى لنفسه من الشجاعة والاعتزاز بالنفس القسط الوافر. ومن النادر أن يذعن بعضهم لبعض وكانوا مختلفين في سيرتهم وفي حل مشاكلهم المتعددة ، فمنهم من لا يتورع من أن يكون قاطعاً أو سارقاً أو معتدياً على ضعيف لا حول له ولا طول ، ولا يهمه الا أن يثبت قوة عضلاته وشجاعته بين رجال قبيلته حتى يكون مهاباً بصرف النظر عن كون شجاعته هذه على حق أو على باطل فكله سيان ما دامت النتيجة أن يهابه فتيان الحي ويخشون سطوته، ومنهم من يبتعد كل الابتعاد عن أذية أي كان ويحاول ما استطاع أن لا (يتحرش) بأولئك الذين يؤذون ويظلمون من يقع بين أيديهم ..

أسد لا يؤذي ولا يرحم من يؤذيه

وكان من بين أولئك الفتيان القلة الذين لا يجتنبون الأذى والايذاء ما استطاعوا، فتى يدعى (ناجع الصهليلي) قليل كلامه، كثير حياؤه ، لا يعرف عنه يوماً من الدهر انه آذى أحداً أو أساء الى أحد ، كان في صمته يشبه الاخرس وفي حياته

يشبه الفتاة العذراء ، كان جل همه رعي غنمه القليلة العدد التي لا يزيد لبنها عن حاجة أمه وأبيه ، ولكنه رغم اجتنابه المشاكل وابتعاده عن الأعمال العدوانية التي يقوم بها بعض اقرانه ، بالرغم من ذلك فان الفتى لا يدع البندقية تقع من يده لحظة واحدة ، فكان دائماً وأبداً متوشحاً بالذخيرة ومتقلداً بندقيته ومستبطناً خنجره ، وكان صمته الطويل ، وحياؤه الكثير، لم يجعلا له وقاراً في صدور البعض من فتيان قبيلته ، الذين يعتبرون الصمت عجزاً ، والحياء ضعفاً ، وكذلك بندقيته التي لا تفارق يده وذخيرته التي يتوشح بها جنباً الى جنب مع بندقيته وخنجره المصقولة التي يضعها تحت صدره وفوق خاصرته من الجانب الايمن ، كل هذه المعاني لم تجعل له أية هيبة عند النفر الذين لا يعرفون لغة الا اللغة التي من جنس عملهم الذي هو النهب والسلب والضرب ، والقتل اذا استدعى الأمر الى ذلك .

وفي احد الايام تجمع خمسة فتيان من الفتيان (القبضائية [1])وقدروا ان يهجموا على ناجع وينهبوا منه غنمه ويسلبوا منه بندقيته الجميلة وخنجره الفضية ، وفي غفلة منه أو عدم مبالاة منهم به ، هجموا عليه كما تهجم الذئاب على الحمل الوديع ، وفي أسرع من لمحة البصر انقلب الفتى الخجول الصامت الى اسد هصور ، فبرك على الأرض وصوب فوهة بندقيته التي كان في بطنها خمس طلقات نارية على الاول من المعتدين فأرداه قتيلاً ، ثم صوبها نحو الثاني فكان مصيره كمصير زميله ، وهكذا أبادهم كلهم في دقائق معدودة بدون ان يترك لأي واحد منهم فرصة للقتال أو حتى للفرار ..

كان لكل واحد من هؤلاء الفتيان صولة وجولة في البلاد ، وكان مصرعهم على يد ذاك الفتى الخامل الخجول مبعث السرور والاطمئنان في صدور كثير من المواطنين الآمنين وفي الوقت ذاته أدخل الرعب والهلع في قلوب قطاع الطرق

---

١ - كلمة قبضائية تطلق على اسم الفتيان الفتولي الساعد الذين يخيفون ولا يخافون لكثرة مشاكلهم ، ومفردها قبضاي .وهي تركية الاصل .

الذين رأوا أن طليعتهم لقوا حتفهم على يد ذلك الفتى الذي لم يأبهوا له ولم يحسبوا له أي حساب .

وكان من حق الوالي على منطقة جازان الذي هو خالد بن احمد السديري أن يعاقبه فيما لو جاءته أوامر صارمة من المرحوم الملك عبد العزيز تقضي بعقاب ناجع وما دام الملك لم يهتم كثيراً بأمر المقتولين بعدما شرح له الوالي بأنهم قطاع طرق فانه من مسلمات الأمور ان الوالي لم يعر القضية اهتمامه أكثر من انه وضع اسمه في حقل القائمة السوداء .

بلغ الخبر (ناجع) ان حاكم المنطقة وضع اسمه في القائمة السوداء للمجرمين وانه اذا ظفر به سوف يحاكمه على قتله الواطنين الخمسة ، ولكن ناجعاً لم ينقل كثير هم لهذه الاخبارية لعدة أمور :

أولاً – انه لا يفكر ان يذهب الى المدن التي فيها شرطة للحاكم .

ثانياً – وثوقه من نفسه ألا يستطيع أحد من الشرطة ولا من غير الشرطة أن يلقي عليه القبض لا ميتاً بعدما يدفع ثمناً لحياته من الرجال الذين يحاولون تسليمه للحاكم .

ثالثاً – انه مطمئن بأنه حتى ولو قدر المستحيل وهجم عليه قوم من جنود الحكومة وهو نائم ثم شدوا وثاقه وقادوه مكبلاً الى سجن الحاكم فانه لا يدينه الشرع الاسلامي لا بالقود ولا بدفع الدية بدليل الحديث النبوي الشريف القائل : « قاتل دون شراك نعلك » .

وما دام ان شريعته تأمره بالقتال دون شراك النعل لمن يحاول الاعتداء عليه ، فان من بديهيات الأمور أن يكون قتال كقتاله دون نفسه وماله جائزاً شرعاً وعقلاً ... وحتى لو قتله المعتدون فان حكمه يكون كحكم الشهيد بدليل الحديث الشريف القائل : « من قاتل دون ماله وقتل فهو شهيد » .

كل هـذه الأدلة كافية ان تجعل ناجعاً لا يخاف من الحاكم حتى ولو وقع بيديه .

لا أعرف مخلوقاً يجيرني سواك

أصبح لناجع من الشهرة الممزوجة بالهيبة والوقار قدراً جعله محطاً للأنظار وأمسى صمته الذي كان يعتبر بالأمس عجزاً ، يعتبر اليوم حكمة ، وحياؤه الذي كان يظن انه ضعف ، أصبح بعين مواطنيه قوة ووقاراً ، وبات الذي يخاف من أية قوة كانت ولا يعرف من يجيره ويحميه يذهب الى ناجع فيجده حصناً منيعاً لا تخفر له ذمة ولا يهتك له جوار .

وعلى هذا الاعتبار ليس الأمر غريباً أن يأتي الى بطل قصتنا شخص مطالب من قبل أحد امراء تلك المقاطعة وهو المدعو راشد بن غنيم الذي ولاه حاكم المنطقة على قرية (بيش) سالفة الذكر. لا ليس الامر غريباً أن يستجير هذا الشخص بـ(ناجع)ويؤكد له بأنه لا يعرف مخلوقاً يجيره ويحميه سواه،ولم يكن ناجع مسروراً بمجيء هذا الرجل الذي سوف يجر له مصيبة بعيدة المدى ، لأنه لم يكن مستجيراً به عن أمير القرية راشد بن غنيم الذي لا يعدو أن يكون أميراً عادياً وضعه والي جيزان في قرية متواضعة ، ولكنه مستجير عن سلطة الحكومة التي من وراء الوالي وحاكم المنطقة ، ولم يسع ناجع الا أن يسلم أمره لله ويتخذ أقصى ما لديه من التدابير الوقائية لحماية جاره وأهم تلك التدابير وصيته لجاره بأن يبتعد ما استطاع عن الاماكن التي يمكن أن يراه بها شرطة حاكم القرية لئلا يقع بأيديهم لعلمه انه ما من أحد من الشرطة يجرؤ أن يقدم على مستجيره ما دام انه قريب منه ، لأن الشرطة أنفسهم من أهل البلاد ويعرفون ناجعاً جيداً ..

ولكن مستجيره وجه الشؤم لم يأخذ بوصيته ، فراح يدور حول الحمى حتى وقع بيد شرطة حاكم القرية ابن غنيم الذي اشبعه ضرباً بالعصي بدون أن تأخذه به رأفة ..

أردت عمراً وأراد الله خارجة

يعتقد ناجع أن مستجيره لم يرتكب خطأ بحق أمير القرية يستحق هذا العقاب

القاسي ويخيل اليه أن عقاب الامير له من أجل انه مستجير به ، وهذا يعني تحدياً من أمير القرية لكرامته ، وامعاناً بخفره لذمته ، بالاضافة الى ذلك ان قضية الضرب عند أهل اليمن تعتبر مهانة وتحقيراً من الضارب بحق المضروب وحسب تقاليدهم ان الرجل يقتل أهون وأفضل له من أن يضرب لأن الضرب عندهم لا يكون الا للحمار .. أما الرجل فلا يضرب .. ولو خير المضروب بأن يضرب بالعصا أو بالسيف لفضل الاخير ..

كل هذه الامور حفزت ناجعاً على أن ينتقم من ابن غنيم الذي تعمد اهانته بضربه لجيره ، وانما كيف الطريقة التي يتمكن بها أن ينتقم منه ، فأبن غنيم في وسط القرية وهو أميرها وقصره منيع فيتحتم على ناجع والحالة هذه أن يعرف أولاً أسواق القرية .. والطريق الذي يؤدي الى القصر ، ثم ينبغي له بعدما يعرف القصر أن يعرف المكان الذي ينام فيه ابن غنيم في وسط القصر ، وإذا تأكد من ذلك عليه أن يقدم على تنفيذ خطته ..

لا فوقه شيء ولا تحته شيء ، ولا يسعني الا ان اصبر واتجلد وامر شكواي لله وحده ..

ظللت في هذه الحالة تارة اجلس القرفصاء على ردف الراحلة وتارة اخرى اجمع رجلي وادير ظهري وطوراً اباعد بين رجلي الاثنتين .. وهكذا ظللت اتململ واتقلب هنا وهناك حتى آذنت الشمس بالغروب وأمست تحفنا رويداً رويداً من الجانب الايمن حتى تلاشت حدتها..لم ينقطع الحديث بين والدي وبطل النجدة .. لقد شعرت ان بينهما تجاوباً بالسن وبالخلق والفهم اكثر بكثير من التجاوب المفقود بين والدي وبين رفيقه الشاب .

لقد بدأت الشمس تدنو من الغروب كما بدأنا ندنو من قريتي : (النيصية ، والجنامية) اللتين هما اولى القرى المجاورة لمدينة حائل من الناحية الشمالية ..

وفجأة استدنى بطل النجدة رسن ذلوله ونادى والدي وقال : (يا أبا فهد .. لقد جئت بصحبتك مودعاً ومحافظاً ولم آت حارساً لك لأسلمك للحكومة،وها أنذا استودعك الله ولئن كنت مسؤولا أمام قومي الذين سوف يبلغون الامارة حتماً فيما إذا لم تعد الى البلاد ، ولكنني افضل ان اتحمل ما يحل بي من عقاب الامارة على ان آتي بك حارساً لك ، حتى اسلمك للامارة كما يسلم المجرم .. فهذا شيء لا يتحمله وجداني ، ولا يرتاح له ضميري . فاذهب انت وشأنك ، فإن عدت للامارة فقد انقذتني من المسؤولية وان ذهبت الى محل آخر فسوف اكون مسؤولاً أمام الحكومة مسؤولية لا أعلم ما إذا الاقي بسببها من عقاب) ..

قال بطل النجدة هذه الكلمات ثم ختمها بكلمة الوداع التقليدية (مع السلامة) ومن ثم ركل راحلته وذهبت تخب به خبباً..وكان آخر لحظة رأيت بها وجه ذلك البطل الذي اعتبر نفسي مديناً له مدى الحياة هي تلك اللحظة وآخر كلمة سمعتها من فيه (مع السلامة).

الشمس الآن على وشك الغروب وقرية (الجثامية) اصبحت منا قريبة المنال .. دنا الشاب من والدي براحلته ثم قال له : ما رأيك الآن بعدما اصبحنا احراراً طلقاء ..

– سوف أعود الى البلاد طبعاً ..

– معناه اننا بعدما خرجنا هاربين نذهب ونعود ثانية ..

– أنا عندما أعود الى البلاد أشعر بالأمن .. ولكنني سوف أعود ولن افكر بالسفر مرة ثانية بوقت قريب بل سوف أظل مدة لا تقل عن السنة في البلاد حتى يكون صاحبنا شاهر في مأمن من العقاب ، وبعدما أتى من هذه الناحية عند ذلك سوف التمس سبيلا آخر للخروج ..

لم يرد الشاب على والدي بل ظل صامتاً ومع غروب الشمس دخلنا قرية (الجثامية) ونزلنا ضيوفاً على ذلك الشاب الكريم الذي لم أنس لقبه كما نسيت اسمه كان لقبه فلان (المانف)وكأني أخاله شاباً لم يبلغ الثلاثين من عمره فيما أظن عريض المنكبين ، اسمر البشرة ، واسع الجبهة مستدير الوجه ، لا تفارق وجهه السمح الابتسامة ، عريض الهامة متوسط القامة .. لقد كانت بشاشة ذلك الشاب وطلاقته وانشراحه ودعابته خير مسل لنا بعد ذلك البؤس الذي لاقيناه يوم أمس .. لقد قدم لنا مضيفنا البشوش اكواباً من القهوة والشاي ، وظل يتجـادب الحديث مع والدي ولا استطيع ان اؤكد هل كانت هذه البشاشة وتلك الابتسامة صادرة من ذلك الشاب بسبب صداقة عريقة وثيقة العرى بينه وبين والدي .. أم ان ذلك الخلق الدمث مطبوع بجبلة ذلك الشاب يقوم بتأديته لكل ضيف يحل بداره بدون كلفة ؟..

لا أدري أيها الأصوب ولكن اعتقادي انه اذا لم يكن كلا الاثنين متوفراً بذلك الشاب أي الصداقة لوالدي والخلق الكريم الأصيل اذا لم يكن ذلك فانني أرجح الأخير..

بعد العشاء الأخير قدم لنا مضيفنا الكريم ذلك الطبق الواسع المرتفع بعلوه كبش من الضان ، وتحته كومة نابية من الأرز ، وتحت الأرز لفيف من ثريد القمح استطعمنا من تلك المائدة ما لذ منها وطاب ، وبعدذلك احتسينا القهوة .. ثم امتطينا ركائبنا وشخصنا نحو أهلنا كنا نسير صامتين كلينا المدلهم الصامت،لم يجر أي حديث بين الشاب ووالدي حتى دخلنا بلدة حائل في منتصف ذلك الليل الصيفي الهادىء .. ولم نر احداً ولم يرنا احد .. افترق والدي والشاب بعدما تبادلا تحية الوداع التقليدية (مع السلامة).. وربما كان ذلك الوداع آخر اجتماع بينهما حيث قصد كل منهما منزله.. طرق الباب والدي وبعد لحظةقليلة خرجت زوجته ففتحت الباب بعدما تأكد من صوت بعلها وادخلنا متاعنا كما ادخلت الراحلة في المحبأ الذي كانت به سابقاً .. وقد تركت والدي وزوجه في داخل المنزل وذهبت الى مضجعي ونمت نوماً لا اقول انه هادىء لذيذ بالمعنى الصحيح ، لأن شبح (المروقي) ذلك الفظ الغليظ القلب ظل يلاحقني في منامي ليال متتالية،ولكنه ظل يخف بالتدريج الى ان ولى نهائياً الى غير رجعة .. والغريب في الأمر ان عقلي الباطني ظل محتفظاً بذكريات المروقي وبشبحه المزعج فكلما أرى شخصاً يقارب منظره سحنة ذلك (الخرطبيل) الأجوف أنفر منه كارهاً له بلا شعور مني حتى يومنا هذا ..

ظل والدي في منزله ولم يخرج منه إلا خلسة الى بعض اصدقائه ومن بين الذين ذهب اليهم وأسر لهم بما حصل له في رحلته القصيرة المدى (السرمدية) العبرة أحد اصدقائه القدامى المرحوم حمد الشويعر الذي أيده الرأي بذهابه الى الرياض والسلام على المرحوم الملك عبدالعزيز على ان يبقى هناك مدة تمكنه من التغطية لرحلتنا المشؤومة وتضفي اذيالها عليها .. نفذ والدي هذه الفكرة التي كان ينوي تطبيقها اعتقاداً منه ان سفره للرياض هو السبيل الوحيد الذي يهدىء به روع بطل النجدة شاهر ، الذي تعهد لرفاقه ان يسلمنا لأمير حائل ، وانه عندما يعلم أي شاهر ان الرجل الذى تعهد بتسليمه لأمير حائل ذهب للملك نفسه لا للأمير الذي لا يعدو ان يكون موظفاً من موظفي الدولة ، فإنه سوف يبيت هادىء البال ، مطمئناً على نفسه ، واثقاً بأن صاحبه بادله وفاء بوفاء..

لم يكلف والدي السفر للرياض أي عناء فالذلول والعدة التي أعدهما للذهاب الى العراق والنية التي ينوى بها العراق .. كل ذلك بدله رأساً على عقب وقصد الرياض على الفور وذلك في أول الليلة الثانية من عودتنا سافر (خلاويا) أي بمفرده لأن الطريق من حائل الى الرياض وان كان اكثر من ضعفي المسافة بين حائل والعراق ولكنه طريق لا يجهله والدي كجهله لطريق العراق ، حائل..وصل والدي الرياض وظل عاماً كاملا بدون ان يحدث أي شيء يثير الانتباه حول تلك (الرحلة)..

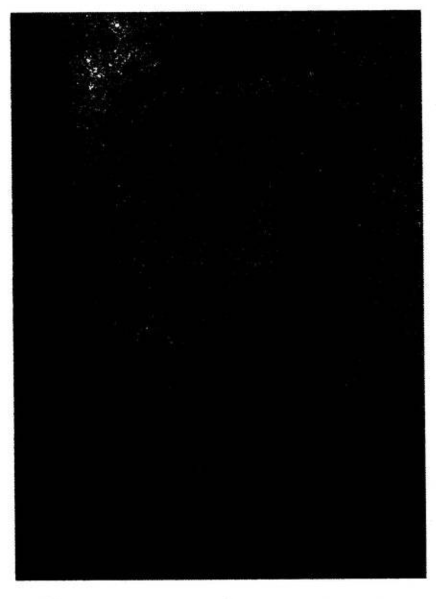
ولئن سألتني بعد ذلك ماذا كانت النتيجة في تحقيق امنيتي أي هربي من معتقلي فجوابي انني حققت ما اصبو اليه بالانطلاق من ذلك السجن القاسي .. ولكن بعد عام كامل من تلك الرحلة ، وبعدما لاقيت في رحلتي الاخيرة من العناء والنصب ما الله اعلم به . الا انه لم يكن بها ما يهدد حياتي كتلك الرحلة التعسة المشؤومة. أما كيف هربت ومتى تيسر لي ذلك وعلى يد من توفر لي السبيل؟.. فذلك بحث طويل يخرج بنا عن نطاق محور القصة الذي نحن بصدده ..

وأما والدي فقد عاد الى حائل من الرياض ، بعدما قضى هناك عاماً كاملا ، كما ذكرت آنفاً وهو الآخر حقق امنيته بذهابه الى العراق .. ولكنه بعد مغامرة ليست أقل هولاً ولا أهون خطراً من سابقتها هذا اذا قلنا ان الأولى وصل بها فعلا الى حافة القبر ولكنه في النهاية نجا من ذلك سالماً بنفسه وذلوله وامتعته على يد بطل النجدة .. أما الثانية فإنه يعتبر نفسه سعيداً عندما اتيحت له الفرصة التي نجا بها بنفسه فقط وذلك على يد بطل النجدة الثاني ، المرحوم خلف بن لوبش ، وهو من قبيلة شمر ايضاً ، غامر مغامرة باختطافه له من السلطة بصورة تعبر عن النخوة العربية الأصيلة بكل معنى من معانيها التي تدعو الى الاكبار والاعجاب والاجلال بالوفاء العربي الأصيل أنى كانت دوافعه وحيثما كان فاعله وللقارىء ان يرى هذه القصة الاخيرة في موضعها المناسب من هذا السفر .

وختاماً أرجو القارىء الكريم ان يسامحني فيما اذا وجد مني تفصيلاً في كتابة

هذه القصة بصورة تزيد عن كتابتي للقصص الاخرى .. والسبب في ذلك هو أن جميع القصص التي اوردتها في كتابي (من شيم العرب) كنت انقلها من الرواة الثقاة بدون أن اشاهد تفاصيلها وأرى بنفسي مجرى سيرها ومصدر بواعثها بصورة مباشرة محسوسة كرؤيتي لقصتنا هذه التي اوردتها لا كشاهد عيان رأى بعينيه الحادثة ، وشهد بنفسه كل ما دار من اسباب القصة ومسبباتها فحسب ،بل كأنسان قدر له ان يكون واحداً من بين اولئك النفر الذين ولا شك هم محور الحادثة واقطاب القصة حتى انصهروا في معمعة احداثها ورأوا اعنف مآسيها وشاهدوا اروع اهوالها وقديماً قيل : « ليس من رأى كمن سمع » ..

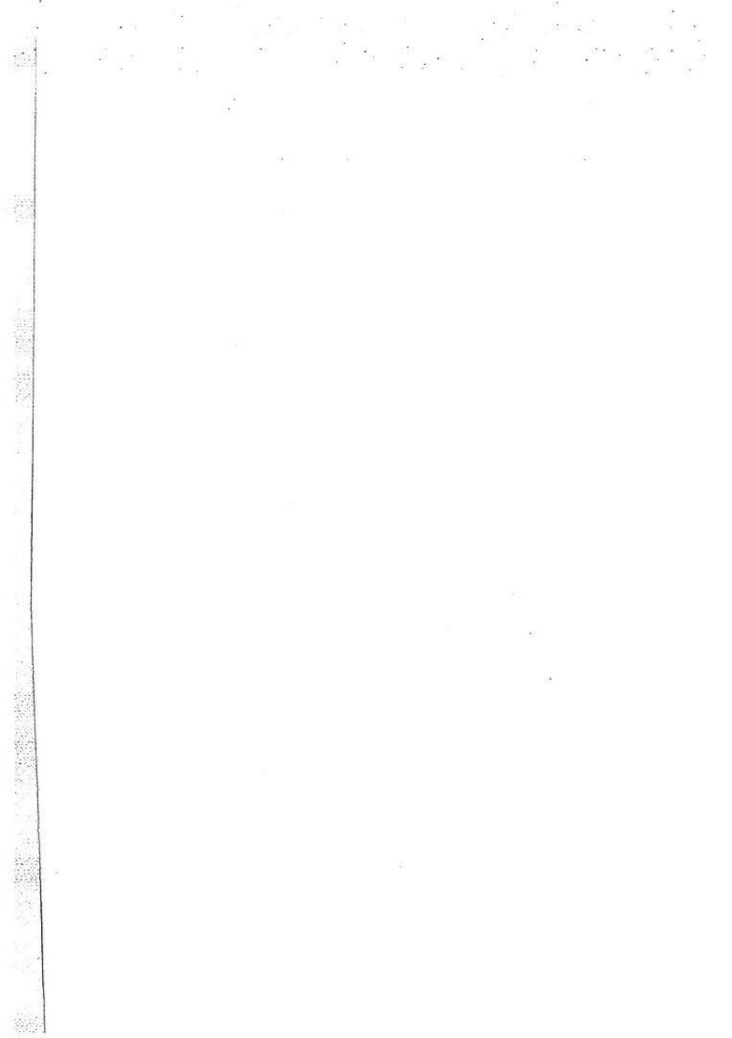
المرحوم الشيخ عقيل الياور



ولستُ بعلّامِ الغيوبِ وإنّما

أرى بلحاظ الرأيِ ما هُو واقِعُ

محمود سامي البارودي



فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

- ١٧ -

ما أن وحد الجزيرة العربية المغفور له الملك عبد العزيز آل سعود ، حتى سعى الى توطيد العلاقات الودية والسياسية مع الدول العربية المجاورة وخاصة مع الحكومة العراقية التي عقد معها معاهدة بنص أحد بنودها على تسليم اللاجئين السياسيين ، ولما كانت قبيلة شمر غالباً ما تقطن المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية المتاخمة للحدود العراقية يضاف الى ذلك أن هذه القبيلة قسم منها يقطن العراق وقسم آخر يقطن شبه الجزيرة : فقد رأى الملك عبد العزيز ان خير طريق لوضع حد يفصل بين شمر الذين ينتمون الى بادية العراق وبين من ينتمي الى بادية الجزيرة العربية هو ان يعتبر كل من كان يقطن شمال الجزيرة من هذه القبيلة من قبل توحيده البلاد من نفس بادية الجزيرة .. ويتحتم على الحكومة العراقية أن تسلمه للحكومة السعودية فيما اذا هرب اليها وطالبت السعودية بتسليمه وكل من كان يقطن العراق من هذه القبيلة قبل أن توحد الجزيرة فانه يعتبر من بادية العراق وعلى السعودية أن تسلمه للعراق في حالة طلب حكومته له . ولم تكن هذه المعاهدة مقصورة على قبيلة شمر فقط ، بل كانت سارية المفعول وقتذاك ، على أي كان من بادية وحضر وانما جئت بذكر قبيلة شمر من اجل أن الشواهد في هذه القصة تدور حول رجلين من أقطاب هذه القبيلة وهما عقيل الياور شيخ مشايخ قبيلة شمر في العراق وممثل القبيلة في مجلس النواب العراقي وعقاب بن عجل رئيس

اكبر فخذ من فخوذ عشيرة عبده المتفرعة من قبيلة شمر ويعتبر عقاب من بادية شمر التابعة للجزيرة ، الا انه رحل من الجزيرة العربية واستوطن العراق وذلك من قبل توحيد الملك عبد العزيز للجزيرة بسنين قليلة ، وربما كان نزوحه عن بلاده وسكناه في العراق بدافع سياسي محض ، ولما كان عقاب من ابرز رجال القبيلة شخصية ورأياً وشجاعة .. فقد رأى الملك عبد العزيز ان يطالب الحكومة العراقية بتسليمه كتنفيذ لبنود المعاهدات التي تقضي بذلك ولم يكن للحكومة العراقية بد من الاذعان للأمر الواقع فراحت تسعى لتحقيق رغبة الملك التي تتفق نصا وروحاً مع تطبيق المعاهدة ، ولا بد والحالة هذه من أن يقف عقيل الياور موقف المعارض لتنفيذ هذه الغاية لا كممثل في البرلمان العراقي ، وبقتضي الأمر أن يدافع عن حقوق رجال قبيلته فحسب ، بل كعربي استجار بجاهه ، ولاذ بجواره عربي لا حول له ولا طول ، وكان الامر بالنسبة للشيخ عقيل حرجا للغاية . فهو اضعف من أن يتحدى دولة ذات كيان ، كما يرى أنه امنع جانبا وأشم انفا من أن تخفر ذمته ، ويؤخذ منه مستجيره ، لقد حاول الياور أن يقنع الحكومة العراقية ، بأن هذه المعاهدة تتنافى والشيم العربية ،ولكن الجواب كان يأتي اليه من المسئولين في العراق وقتذاك بما يلي : « لست اعلم من الملك عبد العزيز بن سعود بتقاليد العرب وعاداتهم فلو كان الامر كما تظن لما اقدم الملك على توقيع هذه المعاهدة ولا اقدم ايضا على مطالبته لنا بتسليم ابن عجل » ، فيعود الياور مؤكداً لهم بأن الملك عبد العزيز يعرف انه لا يعاب فيما اذا طالبكم بتسليم المستجير بل يعتبر تسليمكم لمستجيركم نصرا له بقدر ما يعلم انه عار عليكم حسب الخلق العربي ، كما انه يعلم ايضاً بأنه لا عيب عليه بتوقيع معاهدة كهذه ما دام تنفيذها من جانبكم من صالحه ولكنه عندما يأتي التنفيذ من جانبه فانه سوف يتقيد بالعادات العربية ويعتبر معاهدتكم حبراً على ورق .. ومن المستحيل كل الاستحالة على الملك ابن سعود ان يسلمكم أي مواطن من مدن أو بادية العراق فيما اذا هرب منكم واستجار به ومن ثم طالبتم بتسليمه فانني اؤكد لكم سلفاً بأن ابن سعود لم ولن يسلمكم مستجيره مهما بلغ بجرمه السياسي من الفظاعة ، ومهما بذلتم من الجهد بالمطالبة ..

حاول الياور ان يقنع المسؤولين بوجهة نظره علهم يبدلون رأيهم ولكن محاولته لم تجد . ولما كان الياور من عباقرة الرجـــال كما أكد بعض ساسة العرب بقوله : « لم أؤمن الإيمان الكامل ان محمداً (ﷺ) أمي حتى عرفت ان مفكراً وسياسياً كعقيل الياور أمي » ، فإنه بدهائه وقوة حجته ووضوح بيانه استطاع ان يوقف المسؤولين في العراق وقتها عند حدهم بمطالبتهم بتسليم مستجيره وفي الوقت نفسه جعل الملك ابن سعود يترك مطالبته بتسليم ابن عجل الى الابد وذلك بفضل الحجة الدامغة التي قابل بها حكومة العراق بقوله : (اكتبوا للملك عبدالعزيز بن سعود رسالة عن لساني وقولوا له ان عقيل الياور يناشدك الله والشيم العربية أهل تسلم عقاب بن عجل لحكومة العراق فيما إذا كان من بادية العراق وطالبتك حكومته بتسليمه بعدما لاذ بحماك كما استجار بحماي ؟...

ألقى عقيل الياور هذه الكلمة في مجلس النواب العراقي ولم يكن بعدها بحاجة الى دفاع عن ابن قبيلته ومستجيره ، بل كانت هذه الكلمة وحدهـــا هي جيش الدفاع الامامي والخلفي والاحتياطي معاً ، ولم يطالب الملك عبدالعزيز حكومة العراق بعقاب ابن عجل قطعياً كما انه لم يجب حكومة العراق على تلك المعاني التي أشار اليها الياور جواباً سلبياً بل كان الجواب من الملك العربي ايجابياً بل عملياً ولكن بعد تلك المدة التي طالب فيها بتسليم ابن عجل بزمن طويل ، وبعد ان توفي عقيل الياور رحمه الله..وكان الجواب العملي لحكومة العراق من ملك عربي كعبد العزيز هو انه عندما استجار به رشيد عالي الكيلاني رئيس حكومة العراق سابقاً الذي اعلن الثورة أبان الحرب العالمية الثانية ضد الاستعمار البريطاني وذهبت حكومة العراق تطالب بتسليمه من عبدالعزيز.. وبما ان موحد عرب الجزيرة العربية ضليع بمعرفة أصول وفروع المعاهدات الدولية ، كما انه في الوقت ذاته دائرة معـــارف يرجع اليه بمعرفة فقه العادات والشيم العربية فقد كان جوابه العملي ذا جانبين وكلا الجانبين مقنع فمن الناحية السياسية فقد كان جوابه لحكومة العراق ما معناه: (ان المعاهدات التي بيني وبين الحكومة العراقية تقضي بأن يسلم المجرم السياسي فيما اذا كان هذا السياسي مجرماً بحق الوطن العراقي وحكومة العراق أما انـــه مواطن

كرشيد الذي كان رئيس حكومة العراق الشرعي يقوم بعمـــل ضد حكومة اجنبية كحكومة الانجليز فإنه قد يكون مجرماً بحق الحكومة المستعمرة البريطانية ولكنه ليس مجرماً بحق الحكومة العراقية الوطنية ..

هكذا كان جواب الملك عبدالعزيز من ناحية المعاهدات السياسية المتبادلة أمـا من ناحية العرف والعادات العربية فقد كان جواب الملك العربي صريحـاً وجدياً وصارماً كصراحة الخلق العربي الأصيل حيث قال ما معناه : (أنا رجـل عربي ومؤمن بالتقاليد والشيم العربية ومطبق لها قبل ان اكون ملكاً عربياً يقتضيني الأمر ان اكون رمزاً لخلق وشيم العرب ، ولذلك لكم عليّ ان تطالبوني بتسليم من تشاؤون من ابنائي وعلي ان ألبي طلبكم فوراً أما انني اسلم مستجيري فهذا شيء من المستحيل تنفيذه ما دام يوجد في دمي عرق ينبض بالحياة) .

وهكذا تحققت نبوءة الشيخ عقيل الياور وهكذا ايضاً كان الملك عبدالعزيز خصماً وحكماً في آن واحد ..

رويت هذه القصة ، من الشيخ احمد بن عجيل الياور .

استجار بالأشارة فأجير

- ١٨ -

لا استطيع أن احدد تاريخ قصتنا هذه بصورة قاطعة لبعد عهدها وانما يكون تحديدنا لها مبنيا على معرفة التاريخ الذي عاش فيه أبطالها ومن هذه الناحية نستطيع القول بان تاريخ وقوع هذه القصة يكون بين عام ١٢٠٠ - ١٢١٠ هـ ..

وفي هذه القصة ما يدلنا على أمرين : الأول ما يعبر لنا بوضوح بان الاستجارة عند العرب ليست محدودة على ان يأتي عربي من قبيلة ما الى عربي آخر من غير قبيلة الاول فيقول :

– انني مستجير بك ..

فمثل هذه الاستجارة تكون الزامية ولا مفر لأي عربي من أن يجير مستجيره مهما كلف الثمن فمجرد مجيء عربي من قبيلة قحطان ونزوله بجوار بيت أي واحد من قبيلة عتيبة ، يكون بعمليته هذه استجارة من الاول بجوار الثاني ، وانواع الاستجارة والدخيل [1] كثيرة وفي هذه القصة ما يدلنا دلالة ملحوظة بأن الاستجارة

---

١ – الدخيل من نوع الاستجارة ومعناه انه يأتي شخص من قبيلتك نفسها فيدخل بيتك خوفا من شخص يطالبه بثأر فتكون ملزما بحمايته .. هذا معنى الدخيل .

قد تكون مجرد اشارة فقط ..

اما الامر الثاني فهو ما يدلنا على أن القوة في كل زمان ومكان هي صاحبة الحق والقول الفاصل لا في عصرنا هذا فحسب كما قال أحد شعرائنا المعاصرين :

الحق الاقوى يصرفه كما

شاءت له الأهداف والاقدار

بل حتى في العصور القديمة وفي مجتمع البادية وحياة الصحراء التي غالبا ما تطغى فيها الاشياء المعنوية والروحية على الامور المادية .

عندما قتل فهد[1] الجربا ابن عمه ظاهراً وكان ظاهر فتى سخياً محبوباً مما جعل قريحة الشاعر علي[2] بن سريحان تنفجر فقال فيه أكثر من قصيدة كلها رثاء وتأبين لظاهر الأمر الذي أثار حفيظة القاتل وجعله يتربص به الدوائر ، على الرغم من ان الشاعر لم يمس القاتل الذي هو أمير القبيلة بأي معنى من المعاني لا بالتصريح ولا بالتلميح ولكن القاتل يعتبر ان مجرد مدح الشاعر واطرائه لضحيته ، ورثائه عليه، هذا وحده كاف ان يكون هجاء له بالذات ولم يتظاهر فهد بأية علامة تدل على انه غاضب على الشاعر وانما كظم غيظه وأبدى عدم اكتراث لكي يستدرجه الى ان تتاح الفرصة التي يقع بها بين يديه لينتقم منه شر انتقام .

وفي أحد الاعياد السنوية جاء الشاعر وأوفد الى رئيس قبيلته وهو آمن غير خائف لا يعرف عن نفسه شيئاً يعاقب من أجله،فدخل نادى الرئيس الحاشد بمثات

---

١ – فهد من اسرة الجربان رؤساء قبيلة شمر الفرات . ومن هذه الاسرة يكون تمثيل القبيلة في كل من البرلمانيين السوري والعراقي في الحين الذي يكون فيه انتخاب في القطرين بحكم ان القبيلة لها فروع في سورية والعراق .

٢ – علي شاعر من شعراء قبيلة شمر الفرات .

الشخصيات البارزة من فرسان قومه ، فجلس بالمكان اللائق بمنزله ، وما ان ابصره أميره الحاقد عليه حتى صاح به قائلاً :

- أأنت فلان - متجاهلاً اياه بالرغم من انه يعرفه جيداً ..

وقد انتبه الشاعر ان تجاهل أميره وسؤاله هذا السؤال الحاد لا يدل على شيء من الطمأنينة ، ولكنه وجد نفسه وقع في الفخ ، وليس لديه الا ان يفعل ما استطاع ليسترحمه بالكلام الوديع اللين ، وهو في قرارة نفسه يدرك كشاعر جم الذكاء والاحساس بأن من يقدم على قتل نفس بريئة من اقاربه الاقربين، لا يمكن ان يكون في قلبه ، مكان للرحمة أو موضع للعاطفة ولذا أراد ان يجرب طريقة الاسترحام فإن أفادت فيها ، وإلا فما عليه الا ان يضع في وجه النمر المفترس نمراً من نوعه ، بدون ان يحتاج الى مزيد من الاستجداء والاسترحام مع انسان لا يفيد معه شيء من ذلك ، وعلى الفور أجاب الأمير على استفهامه عن اسمه اجابة تعبر عن اللطف والرقة والمكر في آن واحد فقال :

- نعم حفظك الله ورعاك هكذا أسماني والدي علي، وسريحان نسبة لأسرتي، فأجابه الأمير بوجه عابس ونبرات صارمة بقوله :

لا حفظني الله ولا رعاني ان لم اجعلك عبرة وتأديباً لكل شاعر مرتزق من أمثالك ..

وقد أدرك الشاعر الآن الشيء الذي أغضب أميره ولذا أراد أن يتجاهل ذلك بل ويتجاهل الأمير نفسه بأسلوب فيه شيء من السخرية ، فقال :

- أولاً أنا اقول الشعر ولكنني لست مرتزقاً به ، ولو كنت كذلك لقلت بك قصيدة لا لكونك أميري ولكن لكونك سخياً متلافاً ومن أمنية الشاعر المرتزق ان يفد بقصيدته الى كريم (شرواك)[1] ثم استمر بحديثه وقال :

---

١ - شرواك يعني من امثالك .

ثانياً ـ أنا لا اعرف انني اقترفت أي ذنب يوجب غضب أميرى علي لا من بعيد ولا من قريب ، فقال الأمير :

ـ اعتقد ان الفقراء والمساكين بعد ان مات صاحبك ظاهر ماتوا كلهم جوعاً ولم يجدوا كريماً يعطف عليهم بعد موته ، وانعدمت قبيلة شمر من أي سخي يرحم الفقراء ويطعم الأرامل والمساكين بعد موت ظاهر الذي تعتقد ان الكرم والسخاء ماتا بموته .

ومن هنا ازداد الشاعر يقيناً بما يقصد أميره ، وادرك بيداهته البيت الذي رثى به صاحبه ظاهراً ولكنه مع هذا أراد ان يتجاهل الشيخ فقال وهو يخفي من المكر والدهاء اكثر مما يتظاهر به من السذاجة :

ـ ماذا يقصد الشيخ ، أنا حتى الآن لم أعرف شيئاً مما يشير اليه شيخنا ؟..
فرد عليه الشيخ وهو يكاد ان ينفجر كالبركان ويخرج من وقاره لو لم يكن المجلس حاشداً باعيان قبيلته فقال :

ـ ألست القائل :

أنا غداً ظاهر وسبع الفجوجي
اللي بيته يشبعون المساكين

وفي الحين الذي كان الشيخ يردد هذا البيت بغضب شديد كان الشاعر علي يمد بصره خلسة يتفرس وجوه الفرسان الذين يضمهم ذلك النادي ، فاستقر بصره على شاب واضع على عضده الأيمن (مجولاً) [1] يسمى (نجران [2] بن هشمي).

---

١ ـ المجول هو سوار من فضة لا يضعه في عضده الا الفارس الذي ابدى شجاعة خارقة في احدى المعارك وطار صيته كفارس بين صفوف اعدائه وقبيلته .
٢ ـ نجران رئيس فخذ كثير العدد من قبيلة شمر الفرات .

وعندما انتهى الشيخ من البيت السالف الذكر وبعدما أرغى وأزبد بكلام لاذع بحق الشاعر ، بعد ذلك اتجه الشاعر نحو الشيخ بكل رزانة وهدوء وقال :

– آه لقد سمعت هذا البيت ضمن القصيدة الطويلة ولكنني لست بقائل القصيدة ..

– لعلك تريد ان تقول قالها الشاعر فلان (يشير الشيخ الى شاعر توفي قريباً) لتخرج نفسك من المسؤولية ..

– لا بل الذي قالها لا زال حياً ..
– أتريد ان تضعها على احد شعراء قبيلة عنزة لتنجو من عقابي ؟
– لا بل الذي قالها من قبيلة شمر ..
– آه من شمر نجد ..
– بل من شمر الجزيرة .. [1]
– دلني عليه ان كنت صادقاً وأين يكون ؟..
– هو في مجلسك هذا ..
– وفي مجلسي ايضاً ..
– أجل هو نجران بن هشمي الجالس عن يمينك ..
– لم أسمع قبل هذه الساعة ان نجران قال بيتاً من الشعر ..
– اسأله ولا اظن ان مثل نجران ينكر شيئاً قاله ..

أمامك اسد ايها الأسد

كان الشاعر يقول هذه الكلمات وهو يحدق بالفارس نجران ويمسح وجهه

---

١ – يقال لشمر الفرات شمر الجزيرة تميزا بينهم وبين شمر نجد .

بكفه اشارة من الشاعر تفيد بمعناها الرمزي وتعبر بمفهومها العملي ان الشاعر يقول: انني مستجير بك يا نجران من سطوة هذا الجبار فاجرني ..

اصبح الشيخ محرجاً بعدما الزمه الشاعر بأن يسأل نجران كما اصبح نجران مضطراً ان يعترف لينقذ الشاعر ، وأن يكن هذا الاضطرار ليس الزامياً فيما لو أراد ان يتهرب من واجبه ويدعي انه لم يفهم ماذا يريد الشاعر من هذه العمليـــة وتلك الاشارة ، ولم يسع الشيخ الا ان انحرف نحو نجران قائلا :

– لا اعتقد بأنك الناظم لتلك القصيدة التي فيها من الاطراء لظاهر ما يوحي ان قائلها تعمد هجائي وذمي على حساب مدحه لظاهر ..

– ولماذا لا تعتقد ذلك بـل عليك ان تعلم انني انا صاحب القصيدة لأن ظاهراً فتى كريم ويستحق مني الثناء ولا اعتقد ان ذلك فيه ما يسوؤك لأن المدح في ظاهر يكون مدحاً لك انت بالذات لأنه ابن عمك وقد فارق الدنيا والمدح الذي يرثى به الميت ، ليس الا تراثا يعتز به الاحياء من اقاربه ..

– الأبيات التي سمعتها لا يقولها الا شاعر مطبوع وانت لست بشاعر ولم نسمع عنك انك قلت بيتاً من الشعر ..

– أنا لست شاعرا يمتهن حرفة الشعر ويرتزق من ورائها ولكنني موهوب القريحة فإذا جاءت مناسبة تشحـــذ موهبتي قلت الشعر كهذه القصيدة التي قلتها بدافع من شعوري نحو رجل كنت أكن له كل محبة واحترام بحياته وعندما مات رأيت من الوفاء ان أعبر عما في نفسي نحوه ..

– أليس لديك من التروي والحكمة ما يجعلك تمتدح ظاهراً بدون ان تتحدى وتغضب الآخرين ؟.

– عندما امتدحته كنت لا اقصد الا ارضاء ضميري فقط ..

– اذن نظرت الى القضية من حيث ارضاء ضميرك بدون ان تنظر لها من حيث شعور الاخرين وغضبهم ..

– انني حريص على ان لا اغضب احداً أما اذا شاء أحـــد ان يتحداني بدون سبب فإنني لا أرضى لنفسي ان اذل بل سوف ادافع عن كرامتي الى آخر نقطة من دمي ..

وعندما رأى وجهاء القبيلة الذين جاءوا ليباركوا للشيخ بالعيد ان الجـــدال سوف يتطور الى اكثر من ذلك عندئذ تدخلوا في الحديث وقطعوا بقية الجدال ، فذهب نجران يتبعه نفر من خيرة ابناء عمه الفرسان ، ومـا ان ابتعدوا عن مجلس شيخ القبيلة حتى وجهوا لومهم الى نجران قائلين له :

– لقد أردت ان توقعنا بورطة بتحديك لشيخنا ..

فأجاب بقوله :

– أنتم تعلمون بأنني لست شاعراً ولا اعرف أن انظم بيتاً من الشعر ولكن الشاعر ابن سرحان رمى نفسه علي واستجار بي عـن طريق الاشارة ولا يسمح ان اتخلى عنه في موقفه الحرج . ولذلك رأيت من واجبي ان اعتبر اشارته استجارة بي، لكي انقذه من عقاب الشيخ واضعاً نصب عيني شتى الاحتمالات التي يمكن ان تكون ، ومعتمداً على ثقتي بنفسي وبوجودكم ومؤمنا بأن الشيـخ يستطيع ان يعاقب الشاعر شر عقاب ، ولكنه لا يستطيـع ان يقـدم على عقابي إلا اذا كان الاسد يطمع بافتراس اسد من نوعه ..

واليك ابياتاً من القصيدة التي اغضبت الشيـخ :

بالله عليك بجاهتك يا خلوج
لا تفطنين قـلوب ناسٍ مرنين

انتِ غدا لِك حاشي ِتقلْ بوجي
اللي الى َطبْ المبيعة ِبعشـرين

وانا غدا ظاهر وسيـع الفجوجِ
اللي ببيته يشـبعون المساكين

خريصات فوق الخيل مثل البروج
على الكمين وغالي العمر مرخين

الشرح : كثيراً ما يبتدىء شعراء الزجل قصائـدهم بالتوجع ، ولا سيا اذا كانت نفسية الشاعر متألمة بدوافع الحزن .. وهكذا نجد هـذا الشاعر يسير على نهج من قبله لا في الشعر الشعبي بل حتى في الشعر العربي ، وما قصائد الخنساء في رثائها لأخيها صخر الا من هذا النوع ..

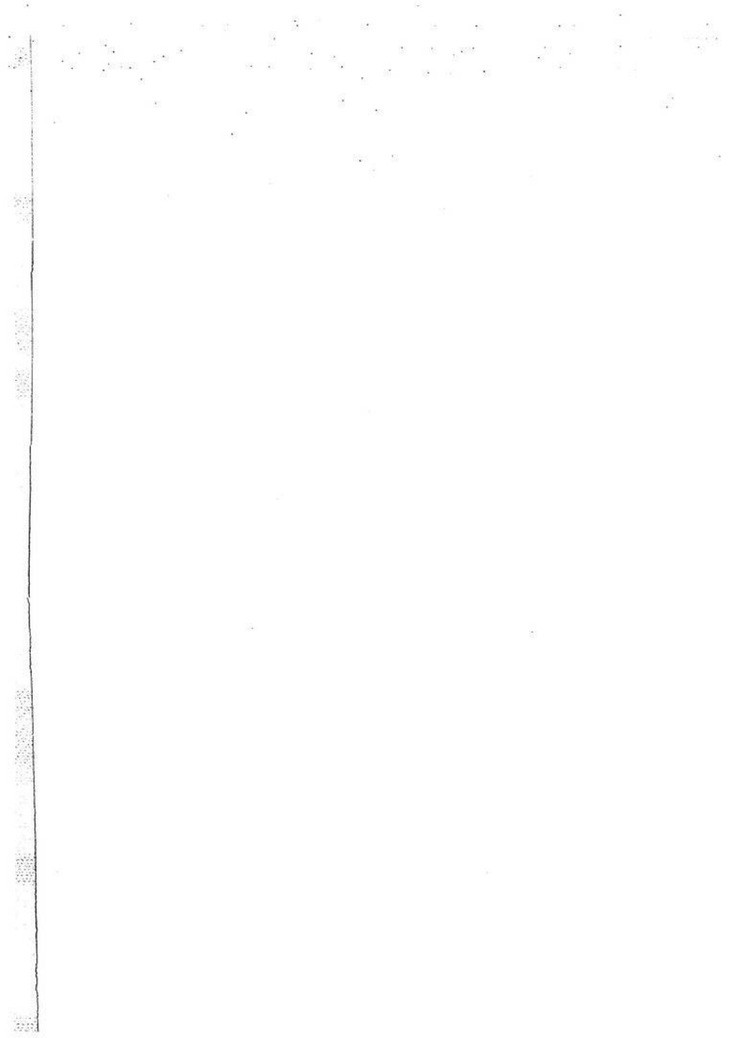
وشاعرنا هذا يعبر لنا عن شعوره في البيت الأول بمعنى انه كان كاظماً لحزنه وآلامه بعدما قتل صديقه ظاهر ، ولكنه رأى ناقة فارقها ابنها فظلت تحـن على فراقه وانه في هذه الحال تكدر وانزعج من منظر هذه الناقة التي اثارت شجونـه فراح ينشـد قصيدته هذه مخاطباً بلسان حاله تلك الناقة (الخلوج) أي التي فقدت ابنها قائلًا لها :

ناشدتك الله ان تتركي هذا الحنين لأن حنينك هذا يذكرني حزناً عميقاً كنت احاول أن اتناساه ، ثم يعود في البيت الثاني ويقول : ان ابنك هذا الذي تقيمين

الدنيا عليه بجنينك حقير لا قيمة له فلو ادخل السوق للبيع لم تزد قيمته عن عشرين درهما، وفي البيت الثالث يقول : اني احق منك بالحنين والعويل لأنني فقدت ظاهراً، ذلك الفتى السخي الذي كان مأوى الايتام وكهف الارامل ومطعم للساكين .. أما انت ايتها الناقة فأنك لم تفقدي الا حواراً حقيراً اشبه ما يكون بـ (البوجي)[1] وفي البيت الرابع امتدح الشاعر عشيرة ظاهر الاقربين وهم الحرصة واثنى عليهم جميعاً بشجاعتهم .

---

١ ـــ البوجي : الكلب الأفرنجي الصغير الحجم .



الفصل الثاني

حماية الجار واكرامه

« من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »

« حديث شريف »

لا يعاقب الجار حتى ولو كان مخطئاً

-١٩-

هناك قاعدة متفق عليها عند كافة رجال القبائل لا يعاب من يطبقها ولا يلام من يعمل بها وان يكن فيها ما يخالف الأسس الأصيلة من تقاليد العرب كحماية الجار والمستجير ، ولكنها نادرة الوقوع ، واذا وقعت فلا بد من تطبيقهـا اللهم إلا اذا وقعت مع رجل شجاع منيع الجانب شديد المراس كالحثي الذي تمرد على رئيس قبيلته بعدم اذعانه لتنفيذها .

وشرح هذه القاعدة يكون على الوجه الآتي:

عندما يقوم رجل من احدى القبائل بعمل سيء مع رجال القبيلة الثانية ، عند ذلك يأتي رئيس هذه القبيلة فيبلغ رجال قبيلته بصورة تعميمية قائلا : ان فلاناً (مرفوعة جنايته) .، ومعنى ذلك ان هذا الرجل لا يستطيع أحد من رجال هذه القبيلة أن يجيره اذا استجار به وان أجاره فعلى رئيس القبيلة ان يرغم المجير ويقتل المستجير كما انه لا يعطي عهداً فإن احد من رجال القبيلة أعطى (لمرفوع الجناية) عهداً فعلى رئيس القبيلة أن يضرب بالعهد عرض الحائط ويعاقب المعاهد بما يشاء من العقاب ..

وكان رجل من قبيلة شمر يدعى (عايد الصلما [1]) هذا الرجل رفعت جنايته عند قبيلة عنزة بأمر من رئيس القبيلة ابن هذال ..

وما على رجال قبيلته إلا ان ينفذوا أمر رئيسهم تطبيقاً للعرف المألوف..

وشاء القدر ان يأتي عايد الصلما بمحض ارادته وينزل جاراً الخشي[2] بدون ان يعرف طبعاً ان (جنايته مرفوعة) فيقع الخشي بمأزق حرج .. لا يعلم ماذا يلاقيه من رئيس قبيلته ..

فرأى أن خير وسيلة يتخذها هي ان يخبر رئيس القبيلة بقدوم جاره وضيفه لعل الرئيس يسمح له ببقائه ، ويتنازل له عن تنفيذ القاعدة التي أمر رجال القبيلة بتطبيقها ..

فذهب الى الرئيس وهو مصمم على ما سوف يتخذه من قرار نهائي فيما اذا رفض الرئيس طلبه ، وأصر على مطالبته بتسليم المستجير ..

قال الخشي :

– ان الرجل مرفوع الجناية أعني به عايد الصلما نزل بجواري ضيفاً ، وما كان بودي ان يحرج موقفي مع رئيسي .. واعتقد جازماً ان الرجل لم يعلم شيئاً عن الاجراءات المتخذة بصدده ، ولو علم لما اقدم وغامر بنفسه .

ولذلك أرجو ان يعفو شيخنا عنه بعدما وقع تحت رحمتنا ..

فأجابه الرئيس بقوله :

---

١ – الصلما من عشيرة الاسلم من قبيلة شمر نجد .

٢ – الخشي من بطن يدعى بالسلقا من قبيلة عنزة .. وقد رويت القصة عن المرحوم دهيسان الخشي المتوفي عام ١٣٦٣ هـ في مدينة الرياض .. ومن يعرف دهيسان يعرف عنه صدق الحديث وحفظه للاحداث والقصص الشيقة ..

- كان بالإمكان ان نعفو عنه .. فالعفو من شيم الكرام .. وتعرف كما يعرف غيرك من رجال العرب كم عفونا وتسامحنا عمن هم اكبر جريمة من هذا .. وكنت أود لو انه جاء اليك قبل ان نتخذ بشأنه قراراً تصيباً ..أما بعدما اتخذنا نحوه القرار الذي بلغت فيه القبيلة بجذافيره ، فلا يسعني والحالة هذه الا تطبيق القاعدة المألوفة .. وإلا فلا يكون بعد ذلك لهذه القاعدة أي معنى من المعاني وسوف يبطل مفعولها .

- ترى لو استضافك هذا الرجل ولاذ بجاهك كما استضافني ولاذ بجاهي .ايمكن ان تنفذ هذه القاعدة به .. بل أيمكن ان تأخذه من بين يديك أية قوة في الارض وانت على قيد الحياة ؟..

- حديثك هذا سابق لأوانه ..

- كما انني اعتقد جازماً بأن عايد الصلعا لو استجار بك فإنك سوف تجيره وتحميه وتضرب بالقاعدة عرض الحائط ، فإنني سوف احميه ما استطعت ولن يستطيع أحد ان يناله بسوء ما دمت سليماً شديد القوى ..

لم يرق هذا الكلام للشيخ ابن هذال [1] ..

ذهب الحشي من عند ابن هذال وهو مصمم على ان لا يمس مستجيره بأدنى ضرر اللهم إلا الضرر الذي ينال المجير والمستجير على حد سواء .. كما اشار الى هذا المعنى بصورة واضحة بأحد الابيات التي انشدها البطل من قصيدته الآتية :

قصيرنا ما حشيته عندنا يوم
يزيد مع زايد سنينه وقاره

---

١ - فاتني ان اسأل الراوي عن اسم ابن هذال الذي وقعت معه الحادثة كما فاتني ان احتفظ باسم بطل القصة وانما اكتفيت بأخذ القصيدة التي اوافي بها القاريء وهي خير شاهد في الموضوع .

الى قزتْ عينه قزينَـــا عن النومْ
والشيخ ما يكتبْ عليه الخسَارهْ

دونه نوِّي كل رِمح ومسمومْ
نرخص عمّار دون كسرْ اعتباره

عفو الظّهر مضمون إلا عن القومْ
بيـوم يخلط اجارنا مع اجاره

كيف الطيورُ اللي تـَلابَدْ عن الحومْ
الناقـلـه ماكـرِدي الوكـارهْ

شرهو على حقاتنـــا ماكر البوم
شرهو على فـتر صعيب دمـــاره

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول ان احترامنـــا لجارنا ليست مدته محصورة على يوم واحد فقط .. بل كلما زادت ايامه ازداد احترامنـا له وتضاعف وقاره عندنا ..

وفي صدر البيت الثاني يقول : اذا بلغ بجارنا همٌ أسهره فإننـــا نسهر لسهره ولا يطيب لنا النومْ ..

وفي عجز البيت يقول ان الضريبة والقيود التي يفرضها رئيسنا لا يمكن ان تفرض على جارنا .

وفي صدر البيت الثالث يقول : سوف نسقي أسنة رماحنا وأنصلة سيوفنا دماء من يريد أن يعتدي على حرمة جارنا وكرامته ..
وفي عجز البيت يقول: سوف نجعل حياتنا فداء لجارنا ونضحي بأرواحنا عندما نرى ان احداً يريد ان يهينه أو ينقص من كرامته أو ينال من احترامه ..

وفي البيت الرابع يقول أن حياة جارنا مضمونة اللهم ألا أن نصاب نحن وهو بسهام الاعداء في معركة نشترك فيها سوياً ..

وفي البيت الرابع والخامس يهجو الشـــاعر الوشاة الذين أثروا على ابن هذال بشأن طلبه تسليم جاره ..

ويقول : لقد اراد هؤلاء ان يخفروا ذمتي ويسودوا وجهي .. ولكن ذلك مستحيل تحقيقه [1] ..

---

١ ـ وبعد : فاننا عندما نذكر نفوذ الشيخ ابن هذال على قبيلته ونرجع البصر كرة اخرى لنقارن بين ابن هذال وبين الحشي نجد ان الحشي أضعف من ان يتحدى ابن هذال ، ولكن عندما نرجع الى تاريخ العرب بل ونرجع الى ما يحتويه هذا السفر بالذات نجد ان قضية المستجير عند العربي لا تقاس بالمقارنة من حيث القوة المادية ، فنجد مثلا المرحوم الملك عبـــد العزيز آل سعود تحدى بريطانيا العظمى ومن دار بفلكها بشأن حمايته لمستجيره رشيد عالي الكيلاني.. كما نجد محمد بن سمير تحدى الامبراطورية العثمانية بعنفوان قوتها بشأن مستجيره شلاش المر ، ونجد سلطان الاطرش تحدى دولة فرنسا التي كانت وقتذاك تعتبر الدولة الثانية بقوتها بين دول العالم بأسره بشأن مستجيره ادهم خنجر.. ونجد بندر النمياط تحدى أميره محمد العبدالله الرشيد وفضل ان يعيش مشرداً عن بلاده من أجل جاره النخيش الحربي .. والقصص بهذا الشأن اكثر من ان تحصى. فقضية حماية الجار لا تقاس عند العربي بقوة السلطة..وانما تقاس بمقدار ما يتمتع به المجير من غيرة وانفة واباء وشجاعة وشمم وشموخ انف ..

هذه المزايا هي المقياس .. وكل مقياس يتلاشى امام هذه المعاني الحية ..

لافرق لحرمة الجار في العرف العربي

بين الاساءة الكبيرة اليه او الصغيرة

- ٢٠ -

لم يكن لدى عرب البادية قانون مدون يعملون بموجبه ، كما هي الحال في عالم الحضارة والمدن ، وانما هنـــاك عادات وتقاليد ورثها الخلف عن السلف وتناقلها الاحفاد عن الاجداد ، حتى اصبحت هذه العادات وتلك التقاليـــد هي الحكم المعمول به في تطبيق حياتهم الاجتماعية .. ومن بديهيات الأمور انه لولا هـــذه التقاليد الموروثة التي يطبقها بعضهم على بعض بشدة لا هوادة فيها ولا رحمة ، لولا ذلك لا ختلت الموازين ، فالضيف مثلا الذي يأتي الى صحراء ليس فيها من يبيع الطعام الناضج إذا لم يجد عند ساكني هذه الفلاة من يضيفه فمعناه انه سوف يبيت على الطوى ، والمسافرون الذين يصاب احدهم بمرض او بأية آفة كانت اذا لم يتفانوا بنجدة رفيقهم مهما بلغ بهم الامر من المشقة فمعناه ايضاً أن هـــذا الرفيق سوف يتركونه في الفلاة لتفتك به السباع قبل ان يفتك به المرض او الآفة التي المت به .. والمستجير الضعيف الذي لا حول له ولا طول اذا لم يحمه مجيره من سطوة المعتدين فإنه سوف يذهب دمه أو ماله هدراً عند احد رجال العشيرة الطائشين .. ولكن

هذه الانظمة التي امست قواعد اجتماعية يسيرون بهديها ويتخذونها (دستوراً)عادلاً يحمي ضعيفهم من سطوة قويهم وينصف مظلومهم من ظالمه هي التي كانت خير حكم عادل يرجعون اليه في جميع تصرفاتهم وخير رادع لقويهم عن افتراس ضعيفهم .. وقد يبلغ الأمر في تطبيق عاداتهم هذه شيئاً من الاسراف الذي يتجاوز الحد ... ولكن هذا الاسراف على ما فيه من الشطط يرون أن القيام بـه ضرورة حتمية لامفر من القيام بتطبيقها ..

فخذ مثلاً حادثة جرت عند قبيلة حرب بطلها شخصان احدهما يدعى منـاور القرد بفتح القاف والثاني محمد بن طريف وكلاهما من ولد علي والحادثــة وقعت حوالي عام ١٣١٣ هـ .

كان لمناور القرد جار من قبيلة مطير ومن فخذ الصعران .. وكان هذا الجار قادماً بماء جاء به لأهله من قليب بعيـد عن منازل الحي..فالتقى بمحمد بن طريف فاشتد بين الجار وابن طريف الشقاق الى ان اعتدى الأخير على الجار وطمن قربته بمديته .. وكانت التقاليد تقضي بحالة كهذه أن يذهب المعتدى على الجار ويستجير في حي احدى الشخصيات من رجال العرب سواء من قبيلته أو من قبيلة ثانية .. ولكن المعتدي لم يفعل أو ان المجير لم يدع له فرصة واعتقد ان الاولى هي الارجح اذ أنه لو أراد ابن طريف ان يستجير بإحدى شخصيات قبيلته لأمكنه ذلك ولكنه لم يحاول شيئاً من ذلك فيما يبدو من سياق القصة الامر الذي جعل مناور القرد ينتقم منه بسبب اهانته لجاره انتقاماً اودى بحياته .. وهكذا يبلغ عقاب المستجير بمن يعتدي على مجيره درجة من الاسراف : لأننا إذا قسنا ما فعله ابن طريف مع جار مناور نجد ان القضية لا تستحق قتل النفس بل من الجريمـة ان تزهق نفس بريئة بسبب عمل كهذا العمل البسيط ولكنها التقاليــد والعادات التي اصبحت

قوانين لا تتسامح ولا ترحم تلك القوانين التي يعتقد المؤمنون بها أن تقاعس مناور القرد عن عقابه لابن طريف جريمة يعيبه بها مجتمعه ويمقته بل ويحتقره ..

المقصود هو ان حرمة الجار عند العرب مبدأ لا يتجزأ .. فالاساءة اليه سواء كانت كبيرة او صغيرة عقوبتها واحدة[1] .

١ ـــ رويت هذه القصة عن المرحوم الشيخ نافع بنفضليتوذلك فيعام ١٣٧٢ هـ الموافق ١٩٥٣في مدينة الطائف .

ثقوا انكم لن تأخذوا جاري ما دمت حياً

-٢١-

يسهل على العربي أن يهجر أرضه ويستبدلها بأرض غيرها، وان يهجر أهله وذويه وعشيرته الأقربين ويذهب شريداً طريداً الى أية ارض كانت والى أي قوم يكونون حتى ولو كانوا اعداءه الألداء ، كل ذلك سهل ويسير على العربي في سبيل حمايته لجاره ، بل يسهل عليه ان يعرض نفسه لغضب وعقاب السلطة الحاكمة مهما كان غضبها ومهما يكون عقابها كل ذلك يهون على العربي الشهم الأبي الشجاع ان يروض نفسه على احتمال المشاق وان يضحي براحته وماله بل وحتى بحياته عندما يستلزم الأمر الى ذلك..والشواهد في هذا الكتاب كثيرة والذي لم أوفق في العثور عليه اكثر بكثير مما وفقت الى جمعه ، وشاهدنا هنا عربي من قبيلة مطير ومن افذاذها البارزين وهو (لافي بن معلث[1]) الشهير بين رجال قبيلته ، بل وعند القبائل الأخرى في الجزيرة .. هذا الرجل الأبي عرض نفسه لعقاب حكومته الصارم فيما

---

١ – لافي من قبيلة مطير. ومن بطن يدعى بني عبدالله وهو شجاع ذائع الصيت ولا زال على قيد الحياة حتى كتابة هذه الأسطر . وقد رأيته في مدينة جدة سنة ١٣٧٧ – ١٩٥٨ م ، وكان آنذاك فيما يبدو لي في بداية العقد السادس اسمر البشرة مديد القامة خفيف الشعر وجهه كالسيف الصارم .

لو ظفرت به السلطات لما عرض نفسه ، الى ان يترك أهله وقبيلته وبلاده ويذهب (جلوياً) شريداً طريداً مدة طويلة ، كل ذلك في سبيل جاره ومن أجل جاره ..

كان ذلك في عام ١٣٥٤ ﻫ الموافق ١٩٣٣ م عندما جاء رجال أمير المنطقة الشرقية سعود بن جلوى ضيوفاً للافي بن معلث وفي الوقت ذاته قاصدين القبض على جاره المدعو عبدالمحسن بن ملعب[1] .

اتخذ ابن معلث نحو رجال الامير ابن جلوى موقفين مزدوجين: احدهما موقف اكرام واجلال لرجال الحكومة كضيوف ، والثاني موقف تهديد وانذار ، فأما الاول فإنه حالما نزل بساحته جنود الحاكم ذهب لافي واستدنا أسمن الاكباش وذبحه كضيافة لهم ، ووضع نفسه تحت امرتهم بمنزلة المضيف الكريم على النهج لذي أشار الى معناه الشاعر العربي :

وإني لعبد الضيف ما دام نازلا
وما شيمة لي غيرها تشبه العبدا

هكذا كان موقفه من ضيوفه ، وفي الوقت نفسه كان الرجل حذراً ، فاتخذ جميع الاحتياطات اللازمة فيما اذا أراد رجال الامير ان يبدلوا موقفهم من ضيوف محترمين الى جنود خافرين لذمته ، معتدين على حرمة جواره ، عندئذ سوف لا يحدثهم بلغة المضيف وانما يحدثهم باللغة نفسها التي يحدثونه بها لغة القوة والنار، وان كانت قوته كفرد أقل وأضعف وأعجز من أن يقاوم رجال الحكومة الذين يستمدون سلطتهم لا من انفسهم ، وانما من حكومتهم ، ولكن الذي يبدو

---

١ – عبدالمحسن من قبيلة حرب .

ان القضية في حالة كهذه تعود الى قوة الإيمان بالمثل المعنوية التي يعتقدها العربي ، ويؤمن بقداستها اكثر من أية قوة اخرى ، وهذا هو الذي حصل فعـلا بالنسبة لرجال الامير الذين كانوا في أول النهار ضيوفاً محترمين وفي آخر النهار انقلبوا الى نفر معتدين على حرمة مضيفهم متعمدين خفر ذمتـه ، أو على الاصح انقلبوا الى طبيعتهم كجنود مأمورين يتحتم عليهم بطبيعة عملهم أن ينفذوا ما يؤمرون به ، بدون أن يسألوا عن كنه الأمر ، أهو صواب أم شطط ؟..

وبقدر ما كان هؤلاء الجنود مخلصين بتنفيذ ما أمروا به ومستعدين لتنفيذ كل الأوامر حتى ولو كانت على اقرب المقربين اليهم ، بقدر ما نجد لافي مستعداً هو الآخر أن ينفذ مـا يمليه عليه ضميره العربي وما يؤمن به من عادات واخلاق عربيـة لا يتردد عن تطبيقها عملياً مهما كلفه هذا التطبيق من ثمن باهظ ..

وعندما انتهى الجنود من ضيافتهم اعلنوا غايتهم التي جاءوا من اجلها بصورة صريحة ، تلك الرغبة التي تدور حول اعتقال جاره ، وعندئذ لا بـد للاهداف المتباينة ان تصطدم بعضها ببعض ، ولا بد للجنود ان ينفذوا اوامرهم بدون ان تأخذهم رحمة أو رأفة ، وبدون ان ينظروا لحرمة مضيفهم الذي لا زال قراه في جوفهم لم يهضم بعد ، ولا بد للافي ان يكافح دون ما يؤمن بـه من شيم العرب ويناضل دون حرمة جاره الى آخر نقطة من دمه ، ولا بـد للجنود ان يبرزوا عضلاتهم المفتولة مؤمنين بقوة سلاحهم ومعتمدين على سلطة حكومتهم ولا بد للافي أن يقف موقف العربي الشجاع الشهم معتمداً على قوة ايمانه بنفسه بعد الله ومنفذاً مـا يمليه عليه ضميره العربي ، وهكذا اصطدمت القوتان : قوة سلاح الجنود الوفيين لتنفيذ أوامر السلطة وقوة ايمان العربي الوفي لتنفيذ التعاليم والشيم العربية بكل أمانة وتفان ، وتضحية ، وتأهب الجنود لتنفيذ ما أمروا به وشمر لافي عن ساعديه وحمل بندقيته الالمانية وتوشح بمنجده وحزامه المليء بالطلقات النارية وسدد فوهة بندقيته الى الجنود بعدما ابتعد عنهم مسـافة تجعله يثق من عدم استيلائهم عليه وقال :

– ثقوا انكم لن تأخذوا جاري ما دمت حياً .. ومن الخير لكم ان تعودوا

الى أهلكم مغتنمين السلامة ، وان لم تعودوا فسيكون لي معكم شأن ..

أصغى الجنود الى هذا التحذير الصادر من فتى لا ينطق الا بما يعتقده ، ولا تخرج كلمة من فيه الا وهو مؤمن بأنها عهد يتحتم عليه الوفاء به ، يضاف الى ذلك أن الجنود يعرفون (لافياً) (بوارديا) لا تخطيء رصاصته الهدف ، وشجاعاً لا يتسلل الى قلبه الخوف ، كل هذه المعاني جعلت الجنود يفكرون طويلاً بنتائج عملهم قبل الاقدام عليه ، وبالتالي قرروا ان يتركوا لافياً وجاره ، فكأنهم لم يروه ولم يرهم معتقدين بأنه سوف يجلو عن ارضه الى ارض الله الواسعة ويترك البلاد ومن عليها ، فذهبوا الى اميرهم بخفي حنين، مدعين ان (لافياً) (هرب) قبل ان يروه ، وكانوا صادقين في قولهم (هرب) لأنــــه فعلاً هرب وترك البلاد وراح الى العراق ولم يعد الا بعد عدة سنين كما ذكرنا آنفاً [1] .

---

١ - ترى لو ان جنود الأمير ابن جلوى جاءوا الى لافي قاصدين ان يصادروا ابله او جميع ما يملك بصورة شاملة أيمكن ان يقاوم جنود الحكومة طبعاً لا ؟..بل سوف يسلم ما يريدونه منه بدون تردد بل لو كان جنود الحكومة جاءوا يريدون ان يعتقلوه ويكبلوه بالاصفاد ويقودوه الى مصير مجهول لا يعلم ماذا يلاقيه ؟.. اقول أيمكن ان يرفض اوامر الحكومــــة ، لو كان الأمر بهذه الصفة ..؟

الجواب كلا والف كلا..واذا سلمنا جدلاً وآمنا بالمستحيل وقلنا ان لافيا سوف يرفض الانصياع لطلب الحكومة فيما اذا أراد الجنود استلامه،أيمكن ان يكون ايمانـــه بالدفاع دون نفسه كايمانه وصلابته وشجاعته وعناده واستماتته دون جاره ..

اترك الامر هنا لمن يعرف الخلق العربي والشيم العربية ليقول حكمه العادل ..

حتى ولو غضب الأمير

- ٢٢ -

كنت في شرخ الشباب ، عندما ساقني القدر الى معرفة ذلـك الشيخ الطاعن بالسن الذي تجاوز العقد التاسع من عمره والذي تبدو عليه علامات الفقر من المادة وعلامات غنى النفس في آن واحد،كما يبدو أنه من اولئك الرجال الذين يتوشحون بحلل قشيبة من الفضيلة والعفة والإباء ..

عرفته في بلدة حائل سنة ١٣٥٨ هـ وذلك عندما كنت ماراً في الشارع الذي يقع فيه بيته المتواضع الكائن بين المقصب القديم وبين منزل ابراهيم السالم السبهان ولم اتردد عن الرجوع اليه مسرعاً عندما ناداني بصوته المزيل ..

– يا ولد ..

– نعم ماذا تريد يا عم ؟..

– انني كما تراني يا بني مقعداً ولي ابن يحملني على كتفه من بيتي ويضعني في هذا المكان لأتسلى وأخفف عن نفسي بعض الهموم برؤيتي للمارة في هـــذا الشارع الرئيسي ، وعندما تدنو مني الشمس يأتي ابني فيحملني الى منزلي ..
والآن دنا مني حر الشمس وابني لم يأت ، فهل لك أن تفعل خيراً وتحملني ؟
قلـت :

– ابشر .. فحملته بدون أن ينالني كلفة فقد كان وزنه فيما يبدو لي لا يتجاوز ٣٠ كيلو غرام وحينما أدخلته في تلك الغرفة المتواضعة التي لم يكن فيها أي شيء من الأمتعة ولا من الفراش ما عدا حصير معمول من سعف نخل تلك البلاد عندئذ رفع الشيخ يده الى السماء وظل يدعو لي بدون أن يعرفني ، ثم بعد ذلـــك راح يسألني عن اسمي فعرفته عن نفسي ، وبالرغم من انني من مواليد حائـل ولكنني لا أعرف الشيخ واعتقد أن عدم معرفتي له يعود الى عاملين :

اولاً – انني تركت البلاد قبل بلوغي سن الرشد ولم اعـد اليها إلا بعـد مضي عشر سنوات ولم اقم فيها بعد عودتي هذه الا شهراً ..

ثانياً – أن الشيخ ليس من الجيل الذي يمكن أن اعرفهم ولا من شخصيات اهل البلاد المشهورين ، وهذا ما جعلني ابادله سؤاله عني بسؤال عنه فأجابني بأن اسمه فهد الرقابي ، ولما كنت كما ذكرت في مقدمة الجزء الأول من هـذا الكتاب (شديد الشوق والرغبة في حفظ القصص ذات الأهمية منذ نعومة اظفاري) فقد اعتقدت في تلك اللحظة الوجيزة انني سأجـــد في شيخنا المقعد ضالتي المنشودة ، فوجهت الى الشيخ السؤال التالي :

– ما هي حرفتك عندما كنت قوياً شديداً .

فقال : كنت نجاراً ..

فتضاءلت رغبتي لعلمي أن من يمتهن حرفة الصنعة ليس من الرجال الذين تؤخـذ عنهم قصص من النوع الذي أريده بحكم ابتعادهم عن عالم المغامرات المألوفة بعهـد عمنا الشيخ .. ولكن بالرغم من فتور همتي لم ايأس من عدم وجود ما أريده في حياة رجل عاش قرناً ولذلك عدت وسألت ..

– هل سبق أن غزوت في حياتك أو سافرت الى بلاد بعيدة عن بـلادك ..
فقال :

لقد سافرت مرة في حياتي إلى بيت الله الحرام حيث اسقطت فريضة الحج، ثم استطرد وقال : كما انني غزوت مع الأمير محمد العبد الله الرشيد في غزوته المسماة بغزوة (النقيرة) الواقع تاريخها في سنة ١٢٩٥ هـ فقلت :

هل تعرف الأمير محمد عن كثب ؟..

فصمت قليلاً ثم قال : وهو يبتسم .

– أين أنا ومعرفتي للأمير محمد .. قلت :

الم تقل انك غزوت معه غزوة النقيرة ؟.. فكيف بك لا تعرفه ؟ فقال:

– المعرفة يا بني معرفتين : معرفة مقصورة على رؤية العين ومعرفة المباشرة الشاملة التي يستطيع بها المرء أن يحلل شخصية الرجل تحليلاً كافيـاً .. ثم مضى الشيخ بحديثه الى أن قال : وإذا كنت تسألني عن المعرفة العابرة فانني استطيع أن اقول نعم : اعرف محمداً ولكنها معرفة رؤية لا تعدو أن تكون كرؤيتنا لإحدى النجوم ، اما المعرفة التي هي عن كثب كما تقول فأنى لي أن اعرف محمداً وأنا رجل لا صلة لي بالحكام والأمراء وكل مافي الأمر انني نجـار بسيط يقتات من حرفة النجارة لا له ولا عليه ..

لقد اعطتني العبارات التي قالها الشيخ اكثر من دليل على أن هـذا العجوز المقعد وأن كان نجاراً لا صلة له بالحكام ولا بالمجتمع كما يقول ، ولكن حديثه يدل على أن لديه من سعة المعرفة اكثر من كونه نجاراً لا يتجاوز حدود قدومه ومنشاره ، كما يبدو من حديثه انه من نوع الرجال الصدوقين الذين يحرص كاتب هذه الاسطر على نقل احاديثهم بكل امانة واخلاص ..

ولذلك عدت أوجه اليه اسئلة كثيرة قاصداً أن اوقظ ذاكرته فيما اذا كان رأى بحياته الطويلة أو سمع شيئاً من القصص التي تسترعي الانتباه .. ومن جملة

الاسئلة التي وجهتها اليه اسئلة تتضمن رغبتي منه أن يفيدني عما يعرفه أو ما سمع به عن الرجال المقربين عند محمد العبد الله اعتقاداً مني أن الحاكم لا يستطيع المرء أن يقف على حقيقته ويحلل شخصيته الا بمعرفته لرجاله الذين يتولى بنفسه اختيازه لهم .. ولذلك ذهبت اسأل الشيخ عما يعرفه عن سبهان السلامة الذي كان صاحب الكلمة الأولى والأخيرة عند الأمير محمد بصفته وزير المال والرأي وصهر الأمير كما سألته عن رجال كثيرين من المقربين من محمد العبد الله،وقد شعرت أن الشيخ يجتر شيئاً من ذكرياته عن اولئك الرجال الذين عاصرهم فسرعان ما قال :

– رحم الله اولئك الرجال ..

فصمت قليلاً ثم تنهد وقال :

– أن بعضاً من اولئك الذين تسألني عنهم لست ممن له بهم صلة ، اللهم الا أنه جاءت مناسبة لم تكن لي بالحسبان ، ولكنها كانت مناسبة طيبة ، وكانت سبباً مباركاً حيث انتقلت بها من قروي يسكن بيتاً متواضعاً في قرية الروضة [1] الى بيت اصبحت فيه جاراً لسبهان جنباً لجنب) ..

وبالطبع ازددت رغبة وحرصاً على أن اسأل الشيخ عن كنه هذه المناسبة فقلت :

– ما هي هذه المناسبة يا عم فقال :

– شرحها يا بني طويل وأنت الآن قد يكون لديك عمل تريد ان تذهب اليه ..

---

١ – الروضة قرية من احدى قرى مدينة حائل .

– ليس لدي من الاعمـــال ما يشغلني عن استماع حديثك الشيق مهما طال الوقت .

- سبق أن قلت لك يا بني بأنني غزوت مع محمد العبد الله غزوة النقيرة ..

– أجل ..

-- في تلك الغزوة بالذات حدثت مناسبة غريبة كان من نتائجها أن وصلت الى بساط الامير وكانت هذه أول مرة بحياتي اجلس في مجلسه كما أنها آخر مرة أيضاً .. قلت :

كيف كان ذلك ؟ قال

بينما كان الأمير محمد جالساً يحيط به جلساؤه من امراء ورؤساء البدو ووجهاء البلاد فيتبادل وإياهم الحديث الذي دائماً مـــا يكون ذا شجون ، حيث انتقل الحديث الى ما هو حسن من اسماء الرجال وما هو قبيح ، وكان من جمـلة الاسماء التي لم يستحسنها الامير اسم (بندر) وكان بعض الحاضرين من جلسائه لا يوافقونه ومن لم يعارضه لم يؤيده الرأي ، فقال المعارضون ان اسم بندر من أحسن واجمل الاسماء واستدلوا على ذلك بعدة اسماء من الامراء ورؤساء القبائل كالشيخ بندر ابن سعدون شيخ قبيلة المنتفق وكبندر التمياط رئيس عشيرة التومان ، وكلا الاثنين فارسين مشهورين وغيرهمـا .. ولكن الامير لم يقتنع بل ازداد اصراراً على رأيه وقال : ان هذا الاسم مزدوج يسمى بـه النساء ففند المعارضون رأي الامير وقد اشتد الجدل بينهم بدون ان تقوم الحجة على احـد الجانبين وكان الذين يجادلون الامير واثقين ان الصواب بجانبهم ويعتقدون ان السر الذي يجعل الامير يكره اسم بندر ناتج عن كرهه لابن اخيهِ بندر الذي كان اول قاطع رحم في اسرته ، هكذا كانت عقيدة المعارضين ، بينما كان الامير متأكداً بأنه يوجـد فتاة اسمها بندر ، وعلاوة على ذلك يعرف اسم القرية التي تقيم فيها تلك الفتاة من قرى بلدته حائل ، وهذه القرية هي قرية الروضة كما يعرف والد الفتاة وأهلهـــ

ومكان بيت اهلها من القرية ، كان يعرفها حينما كان يتجول في الارض قبل ان يكون أميراً .

حاول الامير ما استطاع ان يقنع معارضيه ، ولكن محاولته كانت ضرباً من العبث ، وبالتالي قال الامير : فليذهب احدكم ، مشيراً الى احد جنوده ليأتي الينا بأي شخص من اهل الروضة ليثبت صحة ما قلته .

ويمضي الشيخ في سرد القصة الى ان قال : وفي الحين الذي كنت جالساً به بين رفاقي الذين من طبقتي ، وبدون سابق انذار جاءني جندي الامير وقال :

– أأنت من اهل الروضة ؟ قلت : نعم.. فقال : هيا بنا .. فقلت: الى اين؟ فقال : الى الامير ..

وقد توقف الشيخ الرقابي لحظة عن مواصلته الحديث ليروي لي الشعور الذي ساوره عندما قاده جندي الحاكم ، وافهمه انه ذاهب به الى بساط الامير فيقول : لقد ارتعدت فرائصي وخارت عزيمتي ولصق لساني وظللت اتصبب عرقاً فرحت أسأل الجندي ماذا يريد مني الامير ؟.. فأجاب : لا أدري ..

ويسترسل الشيخ بحديثه فيقول : لقد تذكرت المثل القائل «كم زج في السجن من مظلوم» ، ولا زلت في حالة ارتباك واضطراب ، ولكنني عندما دنوت من مجلس الامير تشجعت فدخلت نادي الامير المهيب الحاشد بالرجال الذين لا اعرف منهم الا القليل ، وبعد لحظة قليلة اديرت فيها اكواب القهوة ، عند ذلك اتجه الامير اليّ وقال:

- أأنت من أهالي الروضة ؟..
- نعم ..
فقال : ابن من ؟..
– ابن محمد الرقابي ..
يقول الشيخ ان الامير بعدما سمع اسم والدي ابتسم ابتسامة عريضة تدل

على انه عرفه وعرف منزله بدليل انه انحرف الى رفاقه الجالسين وقال :

لقد انتهى الاشكال .. ثم تابع كلمته هذه بكلمة اخرى موجهة منه الى جلسائه قائلاً لهم :

ـ ألا ترضون هذا الشاب حكماً في الموضوع ؟.

فأجابه الجالسون بنعم .. ثم اتجه نحوي وقال :

ـ أليس بيت والدك ملاصقاً لبيت فلان جنباً لجنب .. (يقصد بيت والد الفتاة) ؟..

يقول الشيخ : قلت بلى ..

فقال الامير : أليس لجاركم بنت تدعى « بندر » ؟.

□ قال الشيخ :

لقد ادركت الآن السبب الذي دعيت من اجله وهان عليّ الأمر ولكنني في الوقت ذاته شعرت بثقل العبء الذي واجهته ، فالقضية لها علاقة باسم ابنة جارنا ، ومجرد ذكري لاسم ابنة جاري في حفل كهذا أمر أعاب به .

ويمضي الشيخ بحديثه ويقول: لقد ظللت ثواني وانا افكر في الأمر، لا ادري ماذا أجيب الامير .. أأقول له نعم اسمها بندر وهذه هي الحقيقة ، ولكن كيف بي أذكر اسم جارتي بهذا النادي وأنا لا أعلم ماذا وراء هذا السؤال ؟.. أم أكذب الأمير وهو صادق بما يقول ؟..

ويزيد الشيخ وضوحاً فيقول : بينما كنت في حيرة في أمري عاد الامير وكرر السؤال نفسه .. فيقول الشيخ : كنت قد اتخذت بيني وبين نفسي القرار النهائي فأجبت الامير قائلاً :

ـ اذا يسألني طويل العمر عن أسماء أبناء جاري الذكور فانني استطيع أن

أسرد اسماءهم واحداً واحداً أما الأناث فإنني لا أعرف اسم أية واحدة منهن .. فيقول الشيخ : لم يرض كلامي هذا الامير . ولذلك أمر بأبعادي عنـــه ، فخرجت مطروداً ولكنني غير نادم على طردي ..

الوزير العاقل الشهم

ويواصل الشيخ القروي حديثه الى ان قال : وفي أثناء خروجي لحق بي وزير الامير وصهره سبهان السلامة ابن سبهان وأمسكني من كتفي وقال :

– لقد أغضبت الامير ، أليس من الخير لك أن تعود اليـه الآن وتقول لقد كنت ناسياً اسم الفتاة والآن ذكرتها .. قل ذلك حتى ولو لم تعرفهـا وليس في الأمر شيء يخيف ..

يقول الرقابي عندما حدثني الوزير بهذه العبارات أجبته قائلا :

– ان الامير صادق من حيث اسم الفتاة ولكنني لن ارضى لنفسي أن اذكر اسم ابنة جـــاري في ناد كبير كهذا النادي وانا لا أعلم ماذا يراد من وراء معرفة اسمها ..

يقول الشيخ ما ان انتهيت من حديثي هذا مع الوزير حتى تراجع الوزير عن طلبه لي بأن أعود الى الامير وراح يربت على كتفي وفي الوقت ذاتـه بعث معي أحد رجاله ليأتوا بأمتعتي من الخيمة التي فيها رفاقي ووضعني في خيمته ضمن حاشيته المقربين فتبدلت حياتي الاجتماعية في تلك الغزوة من خيمـة القرويين الى خيمة الوزير ومن معيشتي مع أبناء القرية الى معيشتي من مائدة الوزير ، وظلت في جوار الوزير حتى انتهت الغزوة وظننت ان القضية انتهت عند هـــذا الحد ، ولكن الذي لفت نظري كلمة قالها لي الوزير عند موادعتي له حيث قال :

- دعك في قريتك حتى يأتيك مني خبر ..

بيت بلا ثمن

ويقول الرقابي ذهبت الى اهلي وبقيت فترة من الوقت ولم اشعر حتى جاءني رسول من الوزير يطلب مني ان آتي اليه في حائل . ولم أتردد طبعاً عن تلبية طلبه وعندما وصلت هناك أنزلني بضيافته أول ليلة وفي اليوم الثاني أخذ بيدي حتى أدخلني بيتاً كبيراً مجاوراً لبيته جنباً لجنب ثم تناول مفتاح هذا البيت وقال : خذه فانه هبة لك .. ثم أردف الوزير قائلاً : لقد وهبتك هذا البيت لأمرين :

الأمر الاول - تقديراً مني لموقفك المشرف في نادي الامير من اجل جارك..

الأمر الثاني - هو ان هذا البيت كان ملكاً لجاري السابق المدعو سليمان بن جمعان ، وكان ذلك الرجل جار سوء بصورة شكا منه نساؤنا اكثر من مرة وكان من جملة اساءته الينا انه قام وثقب في جدار منزله ثقباً حتى إذا غفلت نساؤنا راح يشرف خلسة عليهن من خلال ذلك الثقب وهو يظن انني لا اعلم شيئاً عنه ،ولكنني ظللت صابراً على اذيته لأمرين :

الأمر الاول - انه باستطاعتي بكل سهولة ان اتخذ نحوه اجراءات تأديبية ولكنني لو فعلت ذلك فإنه سوف يشاع عني بأنني استعملت نفوذي وجاهي عند الحاكم وعاقبت جاري ظلماً .. وسوف يجد اعدائي مجالاً يشمتون به ، ومن الذي يستطيع ان يقنع السواد الاعظم بأن هذا الرجل الضعيف هو البادي بظلمه والمؤذي لحرمي ..

والامر الثاني هو انني لو اقدمت على عقابه وطردته من بيته بأية وسيلة كانت من يضمن لي بأنه سوف يأتيني جار صالح شريف يرعى حرمة الجوار ؟.. ومن

يدري قد يأتيني جار اسوأ افعالاً من الاول، ولذلك صبرت على جار السوء حتى سمعت ورأيت موقفك النبيل من أجل جارك في نادي الأمير ـ اعتذاك قررت بأن اغرى جاري السابق واشتري بيته .. وقد فعلت ذلك ووفقت .. والآن اصبح البيت ملكاً لي وأنا بدوري اهبك اياه تقديراً لوفائك مع جارك الاسبق..[1]

---

١ – توفي بطل القصة رحمه الله بعد ان نقلت منه هذه الرواية بعامين.. ولما كان المرحوم عبدالعزيز اليوسف المنيق المتوفي سنة ١٣٧٧ - ١٩٥٧ ثقة وفي الوقت ذاته يعرف الرقابي جيداً فقد سألته عن القصة لازداد ثقة من صحتها فأكدها لي وزادني يقيناً بأن الرقابي صدوق بحديثه وثقة بروايته .

ضحى بأعز ما يملك من اجل جاره

٢٣

تلك سنة الله في خلقه ولن تجد لسنته بديـلا ، ولكل أمة من الأمم عـادات مألوفة تكون عند هذه الأمة حسنة وقد تكون عند الأمة الاخرى قبيحة، ولهذا نجد القرآن الشريف صور لنا هذه الظاهرة بأروع ما يمكن ان يعبر عنها إذ قال جل شأنه : «وزيّنا لكل أمة عملهم » ..

وعند العرب وخاصة الذين هم على فطرتهم وسجيتهم الصحراوية، تبلغ التضحية والايثار على النفس حداً لا يتصوره الخيال وهذه التضحية وذلك الايثار لا يبرزان في أوضح معانيهما إلا في حالة معينة كنجدة الرفيق وكالمكافأة على المعروف وكحماية الجار الخ .. وفي حدود هذه المعاني تجد ان العربي يضحي بنفسه وبولده وبكل ما يملك عندما يدعو الداعي..

وكل من درس ادبهم القومي وحياتهم الاجتماعية يتضح له بجلاء ان العربي يرأف بماشيته ويعتني بسقيها ورعايتها ويحرص على تنميتها وراحتها اكثر بكثير من حرصه على عنايته بنفسه ، والأدلة على ذلك اكثر من ان تعد ، ولا بد لي هنا من ان اقدم الادلة والشواهد على ذلك اكثر من ان تعد ، ولا بد لي هنا من ان اقدم الأدلة والشواهد على هذه الحقيقة ثم آتي بالأدلة والشواهد التي تثبت بأن هذا العربي

الذي يجعل من نفسه خادماً لإنعامه سرعان ما يضحي بها عندما يفاجئه القـــدر بامتحان يضطره الى الاقدام على احد الامرين ، اما ان يضحي بماشيته على حساب اكرامه جاره واما ان يضحي براحة جاره في سبيل سلامة ماشيته ..

اقول : لا بد أن اقدم الادلة على ذلك كشاهد لقصتنا الآتية ثم أورد فيما بعد الأدلة والشواهد المؤكدة للمعنى الثاني ..

واذا حاولت ان آتي بالأدلة التي تثبت بأن العربي يؤثر ماشيته على نفسه ، فإنني لن أجد شاهداً أصدق أو دليلا أبلغ من الآية الشريفة التي جاءت في سورة السجدة ونصها كما يلي : « أوَ لم يروا أنـّا نسوقُ الماءَ الى الارضِ الجرز فنخرجُ به زرعاً تأكلُ منه أنعامهم وأنفسهمْ أفلا يبصرون » .

كنت قرأت هذه الآية وسمعتها أكثر من عشرات المرات ولم اتصور معانيها بدقة وعمق حتى اسمعني المرحوم الشيخ عبد اللهالصالح الحليفي قاضي المدينة المنوره سابقاً والمتوفي رحمه الله في عام ١٣٨١ هـ ١٩٦١ م سؤالاً وجهه اليه شخص مـــا يتضمن استفسار السائلعن الآية سالفة الذكر وعن الآية التي في سورة طه المتضمنة قوله تعالى : « كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ..

وكان السائل يود ان يستوضح عن السر الذي بموجبه قدم البـــاريء في الآية الأولى الأنعام على البشر بينما هو في الآية الثانية قدم البشر على الأنعام ..

فكان جواب الشيـخ الحليفي في تفسيره للآية الاولى ان قال ان الآية التي في سورة طه تشير بمفهومها الى قوم موسى الفراعنة لأنهم يؤثرون انفسهم على انعامهم وأمـــا التي في سورة السجدة ، فمفهومها يعني العرب لأنهم يؤثرون انعامهم على أنفسهم ..

هذا تفسير قاضي المدينة الحليفي ولديّ من القرائن الشيء الذي يؤيد هـــذا التفسير خاصة بما له علاقة بإيثار العربي ماشيته على نفسه وذلك انني شاهدت بعيني

رأسي وسمعت بأذنيّ عربياً من قبيلة شمر ، في الحين الذي كنت به ضيفاً في بيت المرحوم الشيخ هباس بن هرشان عام ١٣٦٢ هـ ١٩٤١ م يدعى (ساكت) [١] سمعته يقول :

أمسيت الليلة الماضية في مكان ناء عن اهلي وابلي مما اضطرني الى أن أبيت على الطوى ، فسأله أحد الحاضرين قائلاً له :

ـ لماذا لم تحلب احدى نوقك وتنتعش من حليبها ؟. فأجاب ساكت بقوله :
ـ ان حليب الناقة هو جزء من دمها ..
معناه انه فضل أن يبيت على الطوى على ان يحلب ناقته لئلا تسوء صحتها ويتلاشى دمها ، هذا شيء سمعته ولو نقل اليّ لكدت أشك في صحته .

* * *

وشاهدنا من هذه الأدلة هو كما أسلفنا ان العربي وان يبلغ به ايثاره لأنعامه الى هذا الحد فإنه عندما تصطدم سلامة ماشيته ، وحرمة جـــاره ، فإنه على أتم الاستعداد لأن يقدم ماشيته كلها ضحية في سبيل حرمة جاره وشاهدنا المحسوس المادي على ما نشير اليه هو ما وقع مع هجرس [٢] بن عايش وجاره العنزي ، اللذين نوافي القارىء بقصتها على الوجه الآتي :

كان ذلك بين عام ١٢٩٠ هـ و ١٢٩٥ هـ عندما جاء هجرس بن عايش وجـاره بماشيتها الى احدى الآبار الكائنة في شمال نجد التي لا يقل بعد مائها عن سطح الارض مسافة اربعين متراً وكان الفصل صيفاً شديد الحرارة .. وصبر الغنم عن الماء يختلف اختلافاً كلياً عن صبر الابل واذا الابل تصبر اياماً كثيرة عن الماء ، فإن الغنم لا تطيق الصبر عن الماء في أيام الصيف اكثر من ساعات معينة ، يعرفها رجال البادية،

---

١ - ساكت من قبيلة شمر نجد من عبده من بطن يقال له الويبار توفي عام ١٣٦٦ هـ .
٢ - هجرس من قبيلة شمر نجد ومن التومان .

واذا تجاوزت هذه المدة المحدودة يكون مصيرها الهلاك لا محالة ، كان بعد المـــاء وشدة حرارة الشمس المحرقة يجعلان كلا من هجرس وجاره يدركان ان الظرف لا يتحمل أن ترتوي غنمها جميعاً ، فأما ان تسقى غنم الجار على حساب هلاك وموت غنم المجير واما العكس .. كانت غنمها تتناقض تثغي بشدة من تأثير الظمـأ ، وحتى لو أراد احدهما أن يسقي غنمه مسبقاً على غنم صاحبه فانه لا يستطيع أن يقوم بعملية كهذه حتى يحجز غنمه عن اقتحامها الماء لكي يتسنى لها الشرب وحدها، وفي خضم هذا الامتحان الشديد بالنسبة للمجير الذي تصارع في نفسه تلف غنمه التي هي من اهم مصادر رزقه ، أو تلف غنم جاره الذي يعتبره في عهدته ومسؤولاً عن حمايته وعن أقل جفاء يحل به ، في تلك اللحظة الوجيزة الحاسمة ، قـــام المجير واتخذ الاجراءات التالية :

اولاً ـ أنه عمد الى نفر من ذويه الأقربين أن يتولوا اخراج الماء من ذلـك البئر العميق بقدر ما يمكنهم من السرعة ليسقوا غنم جاره..

ثانياً ـ اسند الى نفر آخرين من اقاربه أن يتولوا حجز غنمه عن شرب الماء حتى تنتهي غنم جاره لكي لا تهجم غنمه على حوض الماء الذي تشرب منـــه غنم جاره بحكم أنه لا يتحمل غنم الجهتين .

ثالثاً ـ عهد الى رعاة ابله ورعاة أبل اقاربه أن يحلبوا أبلهم بقدر ما استطاعوا من السرعة لكي يمزجوا الحليب بالماء في الحالة الاضطرارية التي يتوقع بها أن يفتك الظمأ بغنم جاره قبل أن ترتوي جميعها بحكم عمق البئر لان اخراج الماء منه يستغرق وقتاً طويلاً .. وقد كان موفقاً بعمليته هذه الأخيرة بحيث كان حليب الأبل مما ساعد كثيراً على اسعاف غنم جاره وانقاذها من الهلاك وذلك لأن ما توقعه من بعد الماء الذي لا يخرج بسهولة حصل فعلاً مما جعل لحليب الأبل الأثر الفعال في اسعاف ونجدة غنم الجار التي ظلت تشرب من حليب الابل الممزوج بالماء أي أن ما نقصها من الماء كمله الرجل من حليب ابله ..

وقد ظلت غنم الجار تشرب من الماء الممزوج بالحليب حتى ارتوت عن بكرة

ابيها ولما لم يبق الا الحمار الذي يركبه راعي الغنم فقد شاء الراعي أن يمنعه عندما أقبل الى الحوض يريد أن يشرب ولكن المجير أمر بإلحاح الا ان يشرب حتى يرتوى.. فشرب ذلك الحمار الأسود كما وصفه الرواة حتى صدر عن الحوض وشفتاه السوداوان عليهما مسحة من بياض رغوة الحليب ..

وبعد ذلك فتح رواق البيت عن غنمه التي كانت محجوزة في بيته فوجدهـا قد فتك فيها الظمأ وماتت كلها عن بكرة أبيها ..

ومن هذه القصة وأمثالها يبدو لنا الأمر جلياً بأن العربي اذا كان يؤثر انعامـه على نفسـه فإنه يؤثر ضيفه وجاره والمستجير به على انعامه . والقصة مشهورة

هاجر عن ذويه وعادى حاكمه من اجل جاره

٢٤

صاحب هذه القصة هو بندر التمياط[١] من أشهر فرسان قبيلته، وأشمهم أنفاً، كان له جار من قبيلة حرب يدعى «براك النخيش»، مضت أيام طويلة والنخيش بجوار بندر موفور الكرامة شأنه شأن أي جار عند أي عربي شهم كريم كبندر التمياط، وفي اثناء اقامته عند التمياط ضاعت احدى نياقه في الفلاة، فراح يسأل عنها هنا وهناك، وبعد الجهد والعناء الكثير وجد من يؤكد له ان ناقته دخلت حمى الأمير محمد العبد الله الرشيد وظلت مدة من الايام بدون ان يأتي احد يسأل عنها. وكانت العادة المأخوذ بها تقضي بأنه عندما تأتي ناقة كهذه وتدخل الحمى الخاص بهجن الامير تترك مدة معينة فإن جاء صاحبها خلال هذه المدة تسلم له بعد تهديد ووعيد الرجال المنتدبين من قبل الأمير لهذه المهمة، أما إذا مضت المدة المحددة، قبل ان يأتي صاحب الناقة فعندئذ يوضع على الناقة (وسم الامارة) ومتى ما وضع عليها الوسم اصبحت ملكاً للامارة. ولا يمكن ان تعود الى صاحبها إلا بأمر من الأمير

---

١ — بندر التمياط رئيس عشيرة التومان من قبيلة شمر.

نفسه . والوسم هو عبارة عن سيخ حديد يوضع بالنـــار ثم يكوى به رقبة الناقة أو فخذها فهذا يكون بمثابة علامة فارقــة يستدل بها بملكية الابل بعضهـــا عن بعض . .

كانت ناقة الحربي قد تجاوزت المدة المحددة قبل أن يأتي صاحبها ولذلك اصبح من حق الحماة أن يضعوا عليها وسم الامارة . ولم يكن والحـالة هذه لدى الحربي من وسيلة يبذلها الا ان يعود الى الشيخ بندر يخبره بما تم من مصير ناقته التي اصبحت تحت قبضة الحماة ، وما من سبيل الى اعادتها لصاحبها إلا بعد مراجعة الامير نفسه ، وحتى الامير إذا علم ان الناقة تجاوزت المدة المحددة بدون ان يأتي اليه صاحبها وان رجاله وضعوا عليها الوسم ، إذا علم بذلك فإنه قد يمنح التمياط ناقة تكون خيراً من ناقة جاره وأغلى ثمناً فيما إذا أراد ان يبتاعها ، ولكنه ليس من السهل أن يعيد عليه الناقة ذاتها التي وقع عليها العقاب ، وهذا ما حصل فعلاً ، عندما جـــاء التمياط يراجع الأمير بشأن ناقة جاره ، اظهر الاخير استعداده لأن يقدم للتمياط ناقة أحسن من ناقة جاره الحربي أما الناقة نفسها فقد رفض الأمير ان تعـــاد الى صاحبها بعدما تجاوزت المدة المحددة ووضع عليها الوسم ، وفي الوقت نفسه رفض بندر التمياط ان يقبل بناقة جاره أية ناقة اخرى بدلاً عنهـــا مهما كان البدل أثمن وأجمل من ناقة جاره ، وكان لا بد للأمير ان يقابل اصرار التمياط باصرار مضاعف وكان للتمياط أيضاً أن لا يتراجع عن اصراره ولو أدى الأمر الى ان يفصم صلة القربى القبلية المرتبطة بالأمير ارتباطاً قوياً ، بل عليه في سبيل ناقة جاره ان يعلن الحرب على الأمير ، وان كان يعتقد جيداً انه مهما بلغ من القوة لا يعـدو عن ان يكون رئيساً لبطن من قبيلة شمر محدود العدد ، وان كان رجـال ذلك البطن معروفين بالفروسية التي نالوا بها شهرة ممتازة ، ولكنه مهما يكن من أمره فإنــه

أعجز وأضعف عن ان يتحدى سلطة وقوة الامير الذي يحكم شمال [1] شبه الجزيرة وقتذاك ..

بدل الناقة الواحدة نياق كثيرة بالقوة لا بالرضا

ومع ذلك فان التمياط عازم على ان يعلن عداءه للامير مهما كلفه ذلك من ثمن غال . وذلك من أجل ناقة جاره فراح وصب غارته على هجن الامير في حماها ، ونهب منها ما استطاع الحصول عليه ودفع لجاره عوض ناقته عدداً من خيرة (هجن) الامير النجائب ، ومضى في سبيله الى الاراضي السورية تاركاً بلاده نجداً ومعادياً لأميره ولقبيلته معاً .. حيث ظل مستجيراً عند الشيخ جدعان بن مهيد رئيس قبيلة الفدعان ، ولم يسع محمد العبد الله الا أن ثارت ثائرته وجهز جيشاً لجباً لغزو ابن مهيد في الحدود السورية لعله يظفر برأس التمياط ، فخرج من بلاده يقود من الفرسان والهجانة عدداً هائلاً لا قبل لابن مهيد بمقاومته ..

واليك قصيدة وجيزة لشاعر من قبيلة ابن مهيد يصف كثرة جيش محمد العبدالله العرمرم عندما غزا ابن مهيد :

البارحـــة بالليـل اسمـع رزيه
وأخاف منهـــا كان مثلي تخافون

---

١ - الحادثة هذه وقعت قبل معركة المليدا الكائنة بتاريخ ١٣٠٨ هـ ١٨٩١ م لأن محمد العبدالله لم يتجاوز حكمه شمال نجد الا بعد تلك المعركة . والدليـــل ان هذه الحادثة كانت قبل المليدا هو ان التميـــاط هرب من نجد واستجار بأبن مهيد رئيس قبيلة الفدعان القاطنين ارض سورية وجاء محمد وغزا ابن مهيد،وفي تلك الغزوة قتل احد فرسانه وهو حمد الزهيري ابن عريان احد فرسان الفدعان . ومعروف ان الزهيري قتل في معركة المليدا سنة ١٣٠٨ هـ .

(ذِرْواتْ) [1] تال الليل أوحى حطيمه
ميل تَحَدَّرْ مِنْوِي لو تعذلون

هذا الحصيم اللي يَخوُفْ خصيمه
مقيم ثلاثـــة أيام وانتم تهجّون

لا والله إلا ضامنـــا بالمزيـــة
يا مِنْوةَ الغزايْ واللي يفيدون

ابن علـيّ مفجعـــات حريمـه
هاذي مضت واللي تجي وش تسوُّون

الشرح : يقول الشاعر في البيت الاول : انني في الليلة الماضية سمعت دوياً مخيفاً .. فهل سمعتم يا قومي هـــذا الشيء المخيف وخفتم من عواقبه كما أصابني الخوف منه .

ويشرح الشاعر في البيت الثاني هذا المعنى فيقول : ان الذي سمعته البـارحة ليس إلا صوت خيل وهجن الامير الذي له دوي كدوي النحل .

وفي عجز البيت الثاني يقول : ان جيش الامير أشبه ما يكون بسيل الوادي الجارف الغزير الذي لا بد له من ان يجرف كل شيء يقف في سبيله وان لا فائدة من محاولة صرفه عن مجراه الطبيعي ..

وفي البيت الثالث يقول : ان قوة عدونا تفوق قوتنـا ومن أوضح الادلة على ذلك ان خصمنا بعدما غزانا في عقر دارنا ظل نازلاً في ارضنا التي غزانا بها بينما نحن

---

١ - ذرواث : اسم لهجن ابن رشيد .

لذنا بالفرار ثلاثة ايام على التوالي ، ونحن نتابع سيرنا في الهزيمة .. ومعنى البيت الثالث قريب من معنى الذي قبله ..

وأما البيت الخامس فقد أشار الشاعر الى مصرع الفارس ابن عربان وما أصاب حرمه من الفاجعة بقتله ، وفي عجز البيت يقول : هذه المرة وقفت القضية الى هذا الحد ، ولكن ما الذي يجب أن نفعله في المستقبل ، وكأنه يريد من قومه أن يصلحوا أمرهم مع محمد بدون ان يسلوه المستجير طبعاً ، أي التمياط .

هذا وقد ظل بندر التميــاط بجوار جدعان بن مهيد مدة طويلة .. وأكثر الروايات تفيد انه لم يعد الى بلاده ، وقبيلته إلا بعد أن توفي محمد العبد الله حيث حضر وقعة الطرفيه الكائنة عام ١٣١٨ هـ ١٩٠١ م بين مبارك الصباح وعبدالعزيز ابن متعب الرشيد كما كان له في تلك المعركة المنيفة موقف بطولي ذكرته في مكانه المناسب ..

والذي تجدر الاشارة اليه هو ان بندر التمياط عندما كان مستجيراً بابن مهيد، في تلك الأيام كان رجال عشيرته أي المسمين التومان هؤلاء كانوا بحالة لا يحسدون عليها من الدعاية السيئة التي الصقت بهم عند كلتا القبيلتين ، سواء عند قبيلتهم شمر أو عند قبيلة ابن مهيد عنزة ، فان جاء قبيلة شمر غزاة من عنزة قال الشمريون : ان الذين يخبرون عدونا عن منازلنا واوقات غفلتنا ليس إلا أبناء قبيلتنا التومان الذين ذهبوا الى أعدائنا وراحوا يخونون قبيلتهم ويدلون العدو على أرضنا ومراعي ابلنا الخ ..

وأما اذا غزت قبيلة شمر عنزه فعندئذ ذهب هؤلاء يتحادثون فيما بينهم همساً قائلين : « ان الذين يدلون غزاة قبيلة شمر ليس إلا هؤلاء المستجيرين فهم وحدهم الذين يبعثون وسلاً من عندهم سراً ليخبروا رجال قبيلتهم عن منازلنا ...

هكذا كان واقع أمر عشيرة التمياط أثناء وجودهم عند ابن مهيد فهم في رأي

قبيلتهم أو على الأصح في رأي سخفاء قبيلتهم خونة سخرهم العدو ليتجسوا على بني قومهم ، كما انهم في رأي المغفلين من قبيلة عنزه أعداء انذال لم ينظروا لحرمة ومعروف الشيخ ابن مهيد بعد أن آوى رئيس قبيلتهم وواساه بنفسه وتحمل في سبيل ذلك ما تحمله من غزو محمد له ونهبه لأمواله وقتله لخيرة فرسانه .

وهكذا ظل التومان خلال تلك الفترة خونة جواسيس بنظر قومهم ، وأعداء أنذالاً لا يملكهم المعروف في نظر مجيريهم ، مع العلم اليقين بان شيمتهم العربية تأبى أن يكونوا جواسيس لابن مهيد على رجال قبيلتهم ، كما ان وفاءهم العربي يمنعهم ان يقابلوا معروف ابن مهيد وقبيلته بالاساءة التي تنسب عنهم ، وبالرغم من كونهم بريئين من كلا الاتهامين فانهم تأثروا من ذلك لأن الدعاية التي تغلغلت كان لها الأثر السيء حتى ولو كانت مختلقة من أصلها ولا أساس لها من الصحة ، ولذلك نجد شاعرهم يعبر عن واقع أمرهم وقتذاك أبلغ التعبير بقوله :

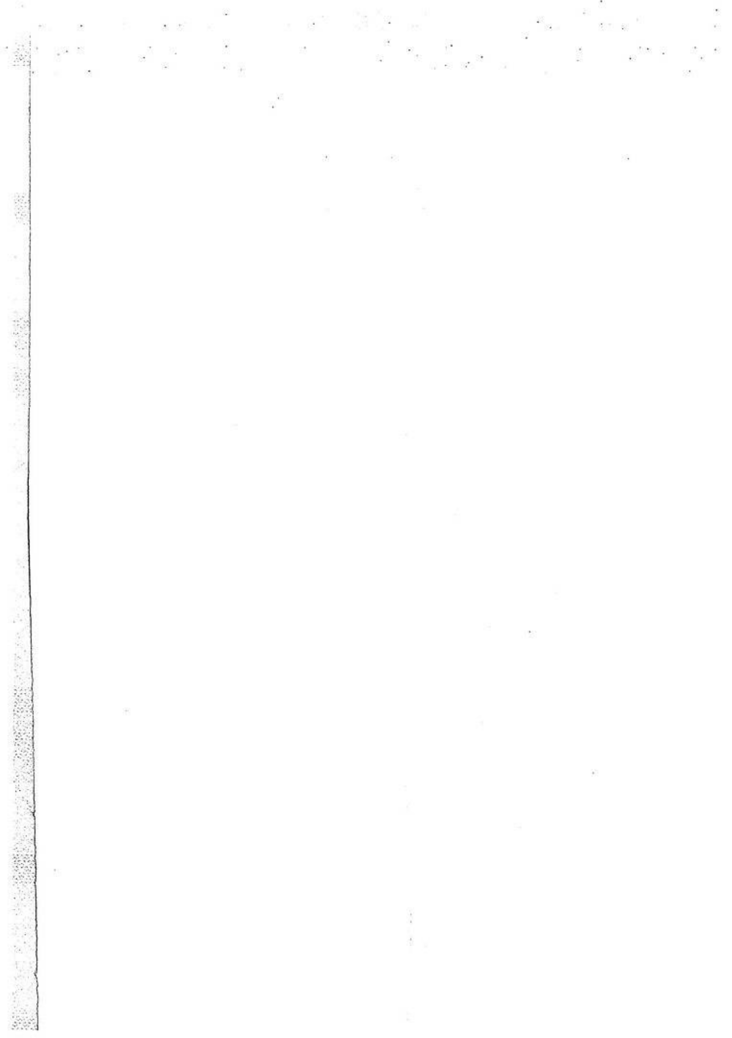
المسعد اللي مهو مُومي
من كل يم مهو غالي

من كل الاشناق متهومي
كلٍ يرصه على الجال

ربما كان لهذين البيتين بقية لم تصل الينا ولكن الذي اعتقده فهو انه حتى لو كان هناك بقية فإنها لن تكن كثيرة بحكم ان القصيدة على وزن ما يسمى (هجيني) وهذا النوع كما أشرنا اكثر من مرة بأن أبيات القصيدة التي على هذا الوزن لا تتجاوز نسبة معينة محدودة أقصاها خمسة أو ستة أبيات .

وشرح البيتين اللذين يشير اليها الشاعر مطابق للمعنى الذي أشرت اليه آنفاً فهو يقول في صدر البيت الاول انمن يريد الله له السعادة فينبغي ان لا يكون من

قبيلة التومان أي قبيلة الشاعر . وفي عجز البيت نفسه يقول : ان المرء من هـذه القبيلة اصبح مكروهـاً أينا ولى وجهه وفي صدر البيت الثاني يقول ان أي فرد يقال عنه انه (تومي) أي من عشيرة التومان فإنه متهم من جميـع الجهات يشير الى الاتهامين الموجهين له من قبيلته ومن قبيلة الفدعان . وفي عجز البيت يقول كل من هؤلاء واولئك يحاولون ان يلصقوا به شتى الاتهامات المختلفة ومختلف الافتراءات المفتعلة .



الفصل الثالث

الصبر على المصائب

تعز فان الصبر بالحر اجمل ... وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغني أن يرى المرء جازعاً ... لحادثة أو كان يغني التذلل
لكان التعزي عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر اولى واجمل
فكيف وكل ليس يعدو حمامه ... وما لامرىء عما قضى الله مزحل
فإن تكن الأيام فينا تبدلت ... ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل
فما لينت منا قناة صلية ... ولا ذللتنا التي ليس تجمل
ولكن رحلناها نفوساً كريمة ... تحمل مالا يستطاع فتحمل
وقينا بحسن الصبر منا نفوسنا ... فصحت لنا الأعراض والناس هزل

(ابراهيم بن كنيف الشهابي)

الصبر على المصائب مصيبة على الشامت

- ٢٥ -

زرت صديقي الشيخ عبد الله السعد القبلان [١] في جدة في تاريخ ٧-٢-١٣٧٤هـ ١٩٥٤ وقد دار الحديث بيننا حول اهتمامي بجمع القصص التي تمت الى شيم العرب بأية صلة من الصلات فأكد السعد بانه سمع من الشيخ محمد آل سليمان التركي [٢] مدير مالية جدة آنذاك قصة تسترعي الانتباه ، ولما كنت ولم ازل شديد الحرص على أن لا يفوتني من الحوادث العربية الطريفة حادثـــة استطيع العثور عليها بشتى الاسباب إلا استقصيتها ، فقد ذهبت مسرعاً إلى زيارة التركي واستفسرت منه عما ذكره لي السعد ، فقال : بانه كان يحفظ كثيراً من قصص العرب ؛ وذلك قبـل أن ينهمك بالأعمال الادارية التي انسته قسطاً وافراً من الأمثال الادبية ، ونوادر القصص العربية التي كان يحرص على روايتها من مصادرها الثقاة . ثم صمت قليلاً كالذي يتذكر حاجة ثمينة ضاعت منه ، وفي خلال الفترة التي صمت بها جاء صاحب القهوة وسكب لكل واحد منا كوبا . وبعد أن احتسى الكوب الأول والثاني،

---

١ - عبد الله السعد كان وزيراً للمواصلات في المملكة العربية السعودية في عـــام ١٣٨١ هـ ١٩٦١ ومن سكان مدينة جدة حالياً وهو قحطاني النسب . ويعمل الآن مديراً لشركـــة الأسمنت .

٢ - محمد التركي كان كما ذكرت اعلاه مديراً لمالية جدة ومن سكانهـــا حالياً وهو في الأصل من مدينة عنيزة .

اتجه نحوي وقال :

- أعاننا الله على مشا كل الحياة لقد تبدد ذهني . واصبح تفكيري محصوراً في نطاق عملي ، حتى أنني ضيعت الكثير من الرصيد الأدبي . ولم يتبادر لذهني الآن إلا قصة واحدة .

قلـت :

- ما هي العبرة المستوحاة من القصة ؟

فقـال :

- الصبر على المحن والمصائب وعدم اليأس والقنوط ، قلت :

- عمن رويتها ؟ فقال :

- عن المرحوم عبد العزيز الميان والميان يرويها مباشرة عن بطل القصة المرحوم عبد الله العمري [1] المتوفى بين عامي ١٢٩٥ و ١٣٠٠ هـ .

فطلبت منه أن يسمعني إياها فلم يبخل الرجل وقصها علي على الشكل الآتي :

كان عبد الله العمري صاحب أموال طائلة ، جمعها من عرق جبينه وكسب يمينه حيث كان يمتهن حرفة التجارة ، وقد اتخذ مدينة الزبير مقراً لأعماله التجارية فربح الى جانب مركزه الاقتصادي ومكانته الاجتماعية ، مكانة معنوية ، الأمر الذي جعل حكام الزبير وقتذاك آل ابراهيم ، وكثيراً من أغنيائهم يثقون بـه ويؤمنون عنده المبالغ الطائلة من النقود الذهبية .

مضت أشهر وسنون ، والعمري اسعد بني جنسه ، فالبضاعة التي يشتريها اليوم بدرهم لا يأتي الغد إلا وسعر هذه البضاعة قد ارتفع من الدرهم الى الدينار . وكان صاحب المال الذي يقبل العمري أن يشغل ماله على سبيل المضاربة يجد نفسه سعيداً كما يرى أن العمري صاحب الفضل عليه لقبوله منه المال ، لأن لديه من رأس المال

---

١ - كل من الميان والعمري من مدينة عنيزة .

الزائد ما يغنيه عن تشغيل أموال الناس ، وإذا قدر له أن يأخذ من أحد شيئاً من المال ليشغله فانما هو من اجل فعل المعروف لأخوانه وأصدقائه ، أما هو فليس بحاجة لأن يستمين بمال أي كان .

ما أضحكت الا وأبكت !!!

مضت أيام سعيدة كحلم الليل وهو في حالة يغبطه عليها الملوك ، عندما كانت تجارته رابحة ، وبضاعته رائجة والدنيا ضاحكة له والاخلاء يخطبون وده والفقراء ينعمون من خيراته والاثرياء السعيد منهم الذي يشاركه ببضاعة يشتريها .

ولكن الدنيا التي لا يدوم نعيمها ولا يؤمن لها جانب، تلك التي ما اضحكت إلا وأبكت ، قلبت له ظهر المجن ، فانقلبت ساعدتــه الى بؤس . ونعيمه الى شقاء . وغناؤه الى فقر ، بسبب غلطة تجارية من غلطات التجار جاءت بمحض صدفة القضاء والقدر، وعندئذ بدأت أوضاعه كلها تتبدل وتجارته لا توحي بخير. فالبضاعة التي يشتريها اليوم بمائة سوف يضطر لبيعها غداً أو بعد الغد بنصف قيمتها ، وظـل مدة وهو يحاول ان يخفي خلله الاقتصادي المتهلهل ولكن أنى له أن يستطيـع اخفاء أمره بعدما عرف الناس انه وصل الى درجة من التدهور المــالي لا يسعه الاستمرار به والثبات عليه . فالفقراء الذين عوّدهم احسانه ، يريدون منه مــا عودهم عليه ، والاخلاء والضيوف الذين اعتادوا الجلوس على مائدته الدسمة،يريدون ان تظل تلك المائدة كما كانت متنوعة الاصناف من الاطعمة اللذيذة . وموظفوه وخدامه يريدون مرتباتهم الشهرية ، والنوافل التي يخصهم بها أحياناً في المناسبات، وعائلته وابناؤه ، هم الآخرون يريدون منه الدلال ، والترف الذي يعهدونــه ويريدون ان لا يتبدل منه شيء . كل هــذه الأمور أو بعضها تجعل الرجل لا يستطيع الصمود أمام هذه التيارات المتباينة ، ولا بد من ان يقدم على ما كان له

كله وهو اعـــلان افلاسه وهذه هي المرحلة النهائية ، ولكن ماذا يفعل انه شر لا بد منه .

وعندما اتخذ الرجل قراره النهائي وقع بالمشكلة الاخرى وهي مطالبة اصحاب الودائع له ، فهذا صادر ، وذاك وارد ، وهو بحـالة كهذه لا يستطيـع ان يسدد واحـداً بالمائة من ودائع الناس ، فظل يهرب من منزله هائماً لا يدري أين يذهب، وحتى اولئك الاخلاء الكثيرون تخلوا عنه فذهب يفتش عن الذين كان يعهد فيهم الوفاء لعلهم يواسونه في محنته ، فوجد ان اصدقاءه ينقسمون الى قسمين: قسم منهم الاغنياء والقسم الآخر الذين الى فراغ ذات اليـد أقرب منهم الى الثراء . فهؤلاء وجد فيهم الوفاء ، ولكن وفاءهم محدود على مشاركتهم له بالآلام والتوجع وعلى كفاحهم عن عرضه عندما يسمعون أحداً ينال منه أو يشمت به . أمـا اصدقاؤه الاثرياء فقد كان الوفاء فيهم أندر من الكبريت الأحمر ، وكان الوفي فيهم هو الذي لا يشمت به .

وعندئذ وجد الرجل أن لا محيص له من أن يترك البلاد ومن فيهـا ويهرب تحت جنح الليل الدامس الى بلاده عنيزه ليواري نفسه عن الانظار الى ان يقضي الله أمراً كان مفعولاً .

وكما انه هرب من الزبير خلسة وفي غسق من الليل المدلهم ، كذلك دخل بلاده في النصف الأخير من ليل الشتاء المظلم ، كي لا يرى ولا يرى ، فظل الرجل سجين بيته لا يخرج منه ، ولا يزور أحداً ولا يريد أن يزوره أحد .

والمشكلة انه لم يكن فراره من مدينة الزبير وتركه ماله من ديون على الناس مجدياً ولا سجنه لنفسه في منزله بين أهل بلاده نافعـاً ، كل ذلك لم يكن نهاية لتعاسته المريرة .

بلغت المحنة الذروة

كان ذلك بعد الظهيرة عندما طرق باب منزله بشدة شرطي امير عنيزه زامل بن سليم فجـــاء مذعوراً ويسير الهوينا لينظر من وراء شقوق الباب من هو الطارق ؟ وكم تضاعف ذعره ورعبه عندما رأى ان الطارق شرطي الحاكم، فوقف حائراً شارد الذهن لا يدري أيفتح له أ لا ؟ وبينما العمري في حيرته هذه طرق الجندي الباب بصورة كانت أشد من سابقتها ، ولما لم يجد سبيلاً يتجه أو يفر اليه اضطر مرغماً الى فتح الباب . وعندها ناوله الشرطي رسالة من الامير ، أو كما يقال عنها الآن – مذكرة – انذار تتضمن مغادرته البلاد فوراً وذهابه الى الزبير بنـاء على طلب امير الزبير وأصحاب الامانات الزبيريين الذين يطالبونه بتسديد أماناتهم ..

كان أمر الأمير زامل حاسماً ولا يقبل الاستئناف أو التأجيل ، ولم يكن للعمري إلا أن باع بيتـــه الذي ورثه من أبويه في مدينة عنيزه بأبخس الاثمان واشترى بثمنه راحلة، وشخص نحو الزبير، وكل خطوة يسير بها الى الامام يشعر كأنه يسير الى حبل المشنقة .

وبينما هو سائر في سبيله هذا ، رمى به الفال الى صاحب بيت شعر كبير من قبيلة شمر [1] ، فحل عنده ضيفاً ، وكان صاحب البيت شيخـــاً مسناً ولم يدخر

---

١ – حرصت كثيراً ان اعرف اسم هـــذا الشمري لا لكونه محور القصة فحسب ، بل من اجل ان يكون للقصة الاثر المحسوس الاكثر من الناحية العلمية ، مع يقيني الوطيد ان القصة ليست وليدة خيال طالما ان رواتها كلهم ثقاة ، هذا من ناحية ، والناحية الثانية هي ان ساكني الجزيرة ابعد ما يكونون عن الخيال المكذوب ولكن لم اوفق وغاية ما وصلت اليه بأنه شمري.

المضيف وسيلة في اكرام منوى مضيفـــه ، لا من حيث الكبش السمين الذي قدمه له ولا من حيث مسامرته تلك الليلة ومحاولة تسليته وشرح صدره كضيف يجب اكرامه بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، كل هذه الأمور بذلها الشيخ المحنك الكريم،ولكنه وجد ضيفه بشغل شاغل عن كل هذه الامور،فمن حيث الطعام لم يمس لحم الخروف الذي قدم لهبالرغم منان اللحم تكون له في الصحراء لذة تختلف عن دوافع الشهية في المدينة ، أما من حيث الأحاديث التي يسامره بها، فقد وجده شارد الذهن عن الاستماع لها ، ومن هنـــا راح الشيخ يفترض شتى الاحتمالات بضيفه. فظن أولاً أن في عقله خللاً ،ولكن سرعان ما تلاشى ظنه عندما القى عليه أسئلة لها علاقة في شؤون البشر العامة قاصداً امتحانه، فوجده ليس بالرجل العادي، كما أن محياه يعبر عن شخص محترم وقور ، وكان الاحتمال الأخير الذي اعتقـــده بضيفه هو أنه يعاني الهم من محنة الت به ، فذهب الشيخ يلح على مضيفه ويناشده الله بأن يخبره بأمره ، وتحت أصرار المضيف والحاحه ، راح العمري يشرح لهمحنته بكل وضوح ، فأبتسم الشيخ وهو يقول :

ـ اعتقد أنك لم تصب بحياتك كلها بمحنة اكبر من هذه ؟

دروس ليلة خير من تجربة عمر طويل

كلا بل كانت حياتي كلها تسير من نعيم الى نعيم أكثر ولم أر بحيـــاتي قطعياً اليوم الأسود ، كما أنني لا أظن أن أحداً أبتلي بما ابتليت به .

ـ لا يابني قد نوافقك الرأي على ما أشرت إليـــه بجملتك الأولى بأنك لم تر بحياتك يوم بؤس ، وهذا يبدو واضحاً من وضعك الراهن بأنك عشت مترفاً غض العود لم يعركك الدهر ولم تجرب المحن . أما جملتك الأخيرة التي تشير بهـــا وهما بأن محنتك هذه ليس لها مضارع من نوعها ، فهذا خطأ فادح يا بني .

– كيف يا عم أتريد مصيبة اكبر على المرء من أن يكون فقيراً بعـــد غنى وذليلاً بعد عز ومتهماً بعدم امانته بين قومه بعدما كان مضرب المثل بينهم بالأمانة والثقة ، وعاجزاً من أن يعول نفسه بعدما كان يعول اسراً مستورة لا يعلم فاقتها الا الله .

– كل ما ذكرته يا بني صحيح ، ولكن قضيتك اولاً أنها لم تكن بدعاً من نوعها ولم تكن أنت أول رجل امتهن التجارة بأمانة وشرف وربح اموالاً طائلة ثم خانه الجد وخسر رأس ماله ومال الرجال الذي بذمته ، والتاجر يا بني أشبه ما يكون من الناحية العملية بالمقامر ، وبعبارة أوضح واصح نستطيع أن نقول بأن حياة بني البشر اغلبها أو كلها عبارة عن مغامرة بل الحيـــاة كلها كالقمار ، فالمزارع مثلاً الذي يحرث الأرض ويبث فيها البذور إذا لم يوفق بسقي زراعته فإنه سوف تكون خسارته فادحة ، ومثله صاحب المـــاشية إذا اجـــدبت الأرض سنين متوالية فالماشية سوف تموت عن بكرة أبيهـــا الخ ... ثم مضى الشيخ وقال: ولكن الفرق هنا يكون بين الرجل الذي عندما يصدم بأول صدمة بحياته يهرب من مواجهة الحياة ويستسلم بخنوع وذل وخور عزيمة ويدع الهموم تفتك بجسمه والجبن يسيطر على عزيمته ، واليأس يتحكم بعقله ، والقنوط يهيمن على أرادته وتفكيره ، وبين الرجل ذي الهمة القعساء والارادة الفولاذية والعزيمة الماضية الذي إذا اصابته المحن أزداد قوة في أرادته ، وإذا فاجأته الكوارث أزداد تمرداً وواجهها بكل ثبات ورباطة جأش .

– كلامك يا عم فيه حكمة وفيه فائدة من حيث الناحية النظرية ولكنك لا تستطيــع أن تطبقه من الناحية العملية عندما تصطدم بالحقائق وجهاً لوجه .
– أنا رجل بدوي لا أعرف ما تعنيه النظرية وانما أعرف الأمور العملية ، ولم يكن حديثي معك إلا ثمرة تجربة عملية عانيت مرارتها في منتصف شبابي وها آنذا الآن في منتصف العقد الثامن من عمري لا أذكر أنه مر بي بؤس اسوأ واشد من من ذلك اليوم .

– أود أن يشرح لي العم كنه هذه التجربة لعلي اخذ منها عبرة أستفيد منها لمعالجة وضعي الراهن .

– أن الحادثة التي وقعت معي عندما أرويها لك الآن سوف يتبادر الى ذهنك انها من نسج الخيال لا من صميم الواقع ولكن من الأفضل أن أنادي رجالاً من شخصيات القبيلة لتسمعها منهم ، لكي تطمئن الى صحتها .

– لا لا أريدك أن تدعو احداً فأنت عندي موضع ثقة لا يتخلل الى قلبي ادنى شك بصحة ما تتحدث به فهات ما عندك .

– كنت يا بن أخي منذ ثلاثين سنة مقيماً في هذا المكان نفسه الذي نحن فيه الآن ، وكنت رافلاً بسعادة اغبط عليها من حيث المال والبنون وهما لاشك زينة الحياة وكان في حوزتي من الأبل العدد الذي لا يشاركني بكثرته أحـــد من أثرياء عشيرتي ، ولدي فرسان من اطيب الخيل ، كما انني رزقت فتيين لايضارعهما أحد بالنجابة من فتيان الحي ، وكان الكبير منهما في سن العشرين عاماً والصغير أقل من أخيه بسنتين كما رزقت أبنة لها من العمر سنتان من زوجتي الفتاة البارعة بالجمال التي تزوجتها من جديد بعدمـا توفيت زوجتي الاولى أم الفتيين ، وكنت لا أعرف شيئاً أسمه الهم قطعياً ، وذلك أن هذه الأبـل ورثتها عن والدي الذي توفي في الحين الذي بلغت فيه من العمر خمس عشرة سنة ، ولم ينجب والدي ذرية سواي فأصبحت بحكم الواقع الوارث الشرعي ، لجميـع ما يملكه ابي من أبل ومن جياد ، ومنذ أن خرجت على الدنيا والسعادة تحفني بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، منذ أن كنت طفــلاً وحيد والدي المدلل ، وكنت أقضي يومي على النهج الآتي :

أذهب بعد ارتفاع الشمس على ظهر مطيتي لاصطاد الأرانب والغزلان في الفلاة واعود عند المساء حاملاً ما أصطدته في رحلتي هذه ، وفي الليل يتجمع عندى كل رجال العشيرة يحتسون القهوة ويتبادلون الأحـــاديث التي تهمهم ويتناوبون

روايات القصص الشيقة ويصغون الى أحد المطربين صاحب الصوت الجميل ، الذى يحسن التلحين على الربابة ، وهكذا كنت أمضي أيامي كلها بسعادة واطمئنان ، وخاصة بعدما كبر ابناي واصبحا يذهبان جنباً [١] مع الأبل بعدما كنت أتولى القيام بهذه المهمة بنفسي ، وفي ذات يوم ذهبت ممتطياً مطيتي بغية الصيد كالمعتاد فوجدت صيداً كثيرا مما جعلني أبيت تلك الليلة في الفلاة خلافاً للعادة، وذلك بعدما انهكني التعب ، وكان الفصل صيفاً ، وليالي الصحراء في الصيف لذيذة وممتعة ، وفي الغد تابعت مواصلة مهمتي بالصيد ، ثم عدت راجعاً الى أهلي في وقت القيلولة ، وعندما مددت بصري نحو بيتي الشعر وجدت مكانه خلواً ولم يكن له أي أثر ، فأرجعت بصري كرة اخرى فرأيت امرأة متجهة نحوي،فأوقفت راحلتي واستدنيت الدربيل [٢] لأتحقق من هذه المرأة ، واذا بها زوجتي فأرخيت لذلولي الرسن وأغرتها متجهاً نحوها ، وعندما دنوت منها وجدتها على آخر رمق من الظمأ الذي على وشك أن يفتك بها هي وابنتها الطفلة التي تحملها على ذراعيها ، فأنخت الراحلة وذهبت استفسر من أمرها ، فوجدتها لا تحسن الحديث من شدة الظمأ ، وكل ما في الأمر انها ألقت ابنتها على الارض وسقطت مغمى عليها،فتناولت الطفلة ووضعتها في الخرج الكائن على متن الراحلة ، رحمة بها من حر الرمضاء المحرقة ، ثم عدت لاتناول الاناء لاسكب ماء من القربة لأسقي الأم وطفلتها،وعندما فككت وكاء القربة ، قفزت أرنب من أحد الاشجار القريبة منا ، مما جعل الذلول تقفز جافلة وراحت تجري بدون هوادة،فبقيت ممسكاً بوكاء القربة جارياً مجرى الراحلة التي كانت كلما سمعت حركتي بجانبها ازدادت جفالاً وجرياً ، حتى سقطت الطفلة من الخرج على أثر جري الذلول الشديد فلفظت انفاسها وأخيراً تركت الراحلة المشؤومة عائداً الى زوجتي التي وجدتها التحقت بالرفيق الأعلى فذهبت الى منازل الحي وأنا أشعر أن المنية اصبحت أقرب الي من حبل الوريد،فوجدت هناك بعض

---

١ - كلمة جنب تعني الفارس الذي يتولى حراسة الأبل .

٢ - الدربيل : هو النظارة المكبرة .

الشيوخ الذين أكدوا أن العدو صب غارته عليهم ونهب الأبل وقتل بعض شباب القبيلة ، وفي مقدمة المقتولين ابناي الفتيان كما اغتنم فرسيها[1] وعندما ابتليت بهذه المصيبة التي جاءت الي بصورة فجائية ، حمدت الله وشكرته الذي لم يبتليني بمصيبة اكبر من ذلك .

ومن هنا قاطع العمري الشيخ قائلاً :

– ما هي المصيبة التي اكبر من هذه ما دام انك فقدت كل مـــا تملك ، كما فقدت زوجتك وبنيك ، فرد عليه الشيخ المحنك فوراً بقوله :

- أكبر من ذلك مصيبة لو حضرت المعركة وفقدت حيـــاتي ، أو طعنت وأصبت باصابة افقدتني بصري ، أو لو انه عندما بلغني الخبر انهارت أعصـــابي وفقدت شجاعتي ، وصبري وايماني ، ولما لم افقد شيئاً لا من تلك الامور الصحية ،

---

١ – عندما يطلع القارىء على مثل هذه القصة وامثالها سوف ينزعج ولا شك عندما يسمع أن بني الأنسان تصل به درجة الوحشية الى الحد الذي يقتل به اخاه الانسان وينهب مـــاله ، ولكنه يعود ويخادع نفسه قائلاً : كان ذلك في عالم البدو الذي هو اشبه ما يكون في عالم الغاب . وينسى المتمدن منا أو يتناسى ان الدول التي تزعم أنها بلغت القمة في عالم المدنية والحضارة ، كانت حتى عهدنا الحـــالي تقوم بالغزوات والنهب والقتل الأبادي للابرياء بصورة أعنف وأوقع من ذلك العصر الذي كان يقوم به البدو منذ قرن . وهل يريد القارىء دليلا أعظـــم وأوضح وأقرب عهداً من الغزو الثلاثي على القاهرة الذي قام بـــه دولة الانجليز وفرنسا وربيبة الغزاة اسرائيل في عام ١٩٥٦ م ١٣٧٦ هـ . وممـــا يدعو الى السخرية ان الأولى يقال عنهـــا أم الديموقراطية والثانية يقال عنها أم الحرية ، وما وجود اسرائيل في وسط عالمنا العربي وتأييد دول الاستعمار لها الا دليل لا يقبل الشك بأن الغزو العشائري انقطع من عالم البادية منذ منتصف هذا القرن ولكنه لم ينقطع من دول الاستعمار التي تعيش على عرق وكدح الشعوب القديمة ولن تتخلى عن استعمارها بل استعبادها واستغلالها لقدرات الشعوب الا خوفاً من وعي هذه الشعوب نفسها التي سمت نفسها دول عدم الأنحياز .

ولا الامور المعنوية ، فقد وجدت ان الامور الأخرى وان كانت مؤلمة حقاً ، ولكنها أهون من الاخيرة فلو فقدت شجاعتي وصبري فهذا يعني استسلامي لليأس والقنوط ومعناه ايضاً انني سوف أفشل في الحياة الى النهاية ، والنتيجة تكون هي انني أدع مجالاً لاعدائي الشامتين وأوصد الباب في وجه اصدقائي المخلصين، ولكن صبري وايماني وشجاعتي لمواجهة الاحداث ، كل ذلك جعلني اكون عكس ذلك ، فالشامتون لم يروا مني أية بادرة تدل على يأسي أو قنوطي ، بل على العكس رأوا مني صبراً ، واستهتاراً بالحادثة،فكان الصبر الذي شاهدوه مني مصيبة عليهم،اكبر من المصيبة التي داهمتني ، وأما اصدقائي المخلصون فإنهم استبشروا خيراً وبسط كل فرد منهم يد المعونة والمواساة لي ، وذلك عندما وجدوا مني رجلاً لم تزده تلك الحادثة إلا قوة وشجاعة وثباتاً ، وها أنذا الآن قد منّ الله علي نتيجة لصبري،بمال وبنين وجاه لا يضارعني به أي واحد من رجال عشيرتي .

ثم ختم الشيخ حديثه بقوله : وأعظم من ذلك هو أن السعادة التي أشعر بها الآن يا بني ألذّ عندي من تلك الاولى لأن سعادتي السابقة شكلية لا طعم لها ولا قيمة لأن الغنى الذي كان مصدراً لتلك السعادة ، لم يردني عن طريق الكدح والكفاح في الحياة بل وردني كما ذكرت لك سابقاً عن طريق الوراثة ولذلك لم تكن له تلك اللذة التي اشعر بها الآن بسعادتي التي ارفل بها كعصامي جمع ماله بصبره وكدحه ، وبعرق الجبين والساعدين . وشتان بين من يرث المال وبين من يكسبه ، وبين وارث المجد وبين من يصنعه .

وبعدما انتهى الشيخ من حديثه ، قفز العمري وذهب يقبل رأس عمه الشيخ وهو يقول :

ـ لقد أزحت عني كابوساً من الهم فبوركت من شيخ محنك بثثت في نفسي عزيمة سأمضي بها بعون الله حتى النجاح ، وقتلت يأساً كاد أن يقضي على حيويتي

مدى الحياة .

ثم مضى العمري حتى قال : لقد أخذت عنك درساً جعلني أثق ان المصيبة الكبرى التي يفاجأ بهـــا المرء في حياته هي اليأس والقنوط ، وموت الهمة وخور العزيمة .

وفي صباح الغد رحل العمري وهو فسيح الأمل رحب الصدر قوي الثقة بهمته الجديدة التي اصبحت تناطح السحاب ، فوصل مدينة الزبير بعزيمة تفل الحديد ، وارادة لا تعرف اليأس ، فحل ضيفاً في بداية الأمر على ابن ابراهيم حاكم الزبير ، ومن فوره طلب من ابن ابراهيم ان يستدعي كل من له في ذمته مـال من أصحاب الأمانات والديون ، وعندما اجتمع القوم راح يتحدث معهم بحديث ينم عن ثقـة الرجل بنفسه ، ويجعل دائنيه يثقون بأن الرجل لو لم يكن مستنداً على شيء يضمن لهم اعادة أماناتهم لـمـا كان لديه هذه المعنوية القوية التي تختلف عن معنويتـه السابقة ..

وعندما رأى الزبيريون وحاكمهم معاً شدة ثقة الرجل بنفسه وقوة معنويتـه وايمانه بمستقبله ، عندئذ ذهبوا واعتذروا منه وفي الوقت ذاته جـاء اصدقاؤه المخلصون يعرضون عليه ما يريده من سلفة مالية ليعمل بها كتاجر كما كان سابقاً ، فاستقرض من اصدقائه الاوفياء ما أمكنه أن يستقرضه من المـال وراح يشتغل بالتجارة كما كان من قبل ، وعاد له الحظ من جديد ، ولم تمض مـدة طويلة إلا قد استرد مكانتـه الاجتماعية والمعنوية وثروته الاقتصادية بصورة أعظم من ذي قبل ..

وظل الرجل يدعو في سره وعلانيته لذلك الشيخ البدوي الذي بث في روحه

الهمة الشاخة بعدما كان قانطاً يائساً [1].

---

١ – وبعد ، لنا ان نقول ان الشيخ بلا شك نفض الغبار المخيم على همة العمري وحطم اصفاد الكسل التي كان العمري مقيداً بها نفسه بنفسه ، ولكن علينا ان لاننسى بأنه لو لم يكن بين جنبي الرجل روح حية قابلة للنهوض وهمة عصامية متهيئة للطموح وقلب المعي يستوعب العبر ويستفيد من الحكم ، لولا توفر هذه الاشياء في شخصية العمري لما كان لحديث الشيخ وقصته الواقعية أي اثر على نفسه . وفي حالة كهذه نستطيع ان نثبت بأن الشيخ اشبه ما يكون بالمطر الغزير الذي نزل على أرض مقحلة مجدبة ولكنها تربة خصبة وبمجرد ما تدفق عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج..ولكن هذا الماء مهما كان غزيراً وعذباً لو نزل على أرض سبخة لما كان له أي اثر محسوس ..و هكذا الحكمة والموعظة اذا القيت الى غير اهلها فلن يكون لها أي تأثير ، ورحم الله عبد الله بن العباس الذي يقول : لا تعطوا الحكمه الى غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها اهلها فتظلموهم .

الصبر سر النجاح

-٢٦-

(وبشّر الصابرين الذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا أنا لله وأنا اليــــه راجعون . اولئك عليهم صلاة من ربهم ورحمة واولئك هم المهتدون) قرآن كريم .

ذكر الله تبارك وتعالى فضيلة الصبر في أكثر من موضع في كتابـه العزيز ، وإذا كان الحلم كما يعبر عنه بالمثل الدارج القائل : (الحلم سيد الأخلاق) فإن الصبر هو الأصل والحلم لم يكن إلا فرعاً عن اصل ، فالرجل الذي لا يملك الصبر في حالة الغضب لا يمكن أن يكون حليماً ، ولئن كانت الشجاعة من أهم صفات الرجولة فإن مصدرها الأسامي وينبوعها الأصيل في كيان المرء ليس إلا الصبر ، فالشجاعة فرع والصبر اصل .. والكثير من الناس من يبدي شجاعة خارقـــة في معركة عابرة أو (في مغامرة مرتجلة) ..

ولكن القليل جداً الذين إذا استمرت الشدائد وتوالت المحن وتضاعفت البلوى وطالت الحروب وازداد السهر واشتدت الأزمة وبلغت الروح الحلقوم ، قليلون الذين يثبتون شجاعة في حالة كهذه وأقل منهم من يبدي شجاعة وثباتاً وصـبراً وجلداً بل وتحدياً للعدو عندما يقع في قبضة اعداء الداء .. ومن ثم يــــلاقي أشد

الامتحانات هولا واعنفها ضراوة فإما أن تخور قواه ويستكين ويخنع طمعاً منه بالحياة ، وإما أن يتحدى اعداءه بكل آباء وشمم كما فعل المارشال الألماني غورنغ في محاكمات الزعماء النازيين في نورمبرغ [1] ، وكما فعـــل بعض شجعان العرب في موقف مماثل لموقف المارشال غورنغ ، وأية شجاعة من هذا النوع مصدرها الاساسي هو الصبر ..

وأما الرواية التي يتناقلها الشعبيون في جزيرتنا العربية فهي أن لم تكن من صميم الواقع فإنها تعبر تعبيراً بالغاً عن الحقيقة التي نشير اليها عن أهمية الصبر وعن كونه هو الأصل الأساسي لكل فضيلة ، بصورة عامـــة .. ولكل معنى من المعاني التي تمت الى الشجاعة بأدنى صلة ..

وخلاصة القصة التي يتناقلها شيوخنا الشعبيون هي كما يقال : أن عنترة العبسي وحاتم الطائي جمعتهما الصدف فقال الأول : أريد أن تخبرني عن السر الذي جعلك تكون كريماً الى الدرجة التي جعلت شهرتك تسمو على كل كريم من كرمـــاء العرب ..

فقال حاتم :

– السر في ذلك يعود الى الصبر ..

قال عنترة :

- كيف ذلك ؟

– قال حاتم : أنني اعتبر أن الصبر على الفقر وما يلحق به من جوع وتقشف عامل اساسي في حياتي .. وما أملكه اليوم وأنا بحاجة اليه انفقه في يومه وقـــد

١ – انظر محاكمات نورمبرغ . طبع دار اليقظة للتأليف والترجمـــة . تعريب فتح الله محمد المشعشع وجورج شاهين صائغ ص ٨٧ و ٨٨ .

انحر ناقتي لضيوفي وافرق بقية المأدبة لجيراني ومن ثم أبيت الطوى صابراً على ذلك غير مكترث بما يلحقني من مشقة وعناء في ذلك ، ثم استطرد وقال : فهل لك أن تفيدني انت عن السر الذي جعلك تبلغ انت الأخر من شهرة الشجاعة الى الحد الذي جعل لك من ذيوع الصيت ما يطغى على سمعة أي شجاع سواك ؟.. فيقول الرواة أن عنترة ابتسم ثم قال : أدن مني وضع احدى اناملك في فمي وأنا ايضاً سأضع احدى أناملي في فمك .. وكلانا يعض أصبع اخيه بكل شدة وعنف .. وعليك أن لا تدخر وسعاً بأن تضغط على اصبعي بكل ما لديك من قوة .. كما انني سوف اقوم بعمل مماثل .. وعلى كل منا أن لا يبدي ضجراً مهما قسى أحدنا على أصبع أخيه . جرت العملية على هذا الشكل وشد كل واحد منهما اصبع اخيه بعنف فشعر حاتم بالألم وشاء أن يضجر ولكنه تصبر وشد على اصبع صاحبه بقسوة محاولاً أن تكون بداية الضجر من رفيقه لامنه وما كان من عنترة الا أن قابل العنف بعنف أشد ولما لم يطق حاتم شدة الام صرخ شاكياً ألمه فتركه عنترة وهو يقول :

- ثق أنك لو صبرت قليلاً لكنت البادىء بالصراخ والضجر ..

هذه القصة تعطينا دليلاً واضح المعالم على أن الصبر هو العنصر الاسامي لكل مكرمة وانما انواع الصبر تختلف باختلاف الميول والطبائع البشرية فهذا مثلاً يكون صبره على ما يناله من شظف العيش والبؤس والفقر في سبيل الكرم كحاتم .. وذاك يكون صبره على ما يناله من طعون في جسمه وعلى الأقدام حتى الموت اذا دعت الحاجة كعنترة .. وآخر يكون صبره على الملمات والاحداث الفاجعة والمصائب المذهلة كصاحب قصتنا هذه التي نقلتها عن المرحوم الامير عبد العزيز ابن احمد السديري الذي اشرت الى ذكره في أكثر من مناسبة .. في هذا السفر .. ويؤكد المرحوم بأنه نقلها عن والده (رحمه الله احمد السديري وهذا الأخير نقلها لنا عن المرحوم سالم بن سبهان ويقع تاريخها بين عامي ١٣٠٩ هـ - ١٣١٢ هـ .

يقول الراوي : عندما كان سالم السبهان يأخذ زكاة الماشية من القبائل الكائنة في جنوب الجزيرة في تلك الظروف التقى بمحض الصدفة بجماعة كثيري العدد من

بادية قبيلة قحطان ، فسأل عمن يكون هؤلاء ؟.. فقيل انهم من قبيلة قحطان فسأل ثانية من أي فرع أو من أية أسرة ؟ فأخبره المسؤول انهم من أسرة رجل واحد يقال له (ابو رقطة) فحط عن رحاله عندهم وأمر رجاله بأن يجبوا له زكاة الابل والغنم فكانت الزكاة وافرة وفي الغد وجد قومه يضاعون العدد الأسبق فسأل عنهم بمن يكونون ؟ فأفيد بأنهم أبناء (أبو رقطه) فأخذ منهم زكاة لا تقل عن الزكاة التي أخذها أمس الماضي ثم مضى في سبيله .. فوجد قطيناً لا يقل عددهم عن عدد سابقيهم فحط عن رحاله وأمر من يسأل عن هؤلاء الآخرين؟فجاء اليه الرسول يخبره بأن هؤلاء أيضاً أبناء أبو رقطه .. فجاء منهم الزكاة كالمعتاد فكانت الأموال التي جباها من هؤلاء القوم أموالاً طائلة ..

فقال سالم السبهان فليبارك الله لك يا عشيرة ابو رقطة على المال الكثير الذي توفر عندك فأجابه أحد السامعين من أبناء «أبو رقطة» قائلاً :

-- انهم ليسوا بعشيرة وانما هم أبناء رجل واحد ..

فقال السبهان بلغة التعجب والاستفهام..

— أكلهم ينتمون الى أسرة واحدة ؟..

فأجابه هذا بقوله :

— بل كلنا أبناء رجل واحد ، فرد مستغرباً ..

أمن جد واحد ؟.. فقال البدوي :

— بل من رجل واحد وأبونا لا زال على قيد الحياة وأنا واحد من أبنائه ..

وكان هذا الذي يخاطب السبهان في العقد السادس من عمره وقد وخطه الشيب مما جعل السبهان يزداد حيرة ودهشة في آن واحد عندما علم ان هؤلاء النفر الذين يشكلون عشيرة بكاملها كلهم من سلالة رجل واحد.. ومما جعل دهشته تتضاعف هو

ان أبا هؤلاء القوم لا زال على قيد الحياة ، الامر الذي جعله يحرصا إن يعرف مقدار عمر هذا الشيخ،وهل هو قوي البنية يقظ الحواس أم انه شيخ هرم؟..فراح يستفسر من ابنه بقوله :

– كم يبلغ والدك من العمر ؟..

فأجابه الأبن بسرعة ..

– في آخر العقد العاشر ، ولكن صحته قوية وحواسه سليمه وعندما تراه لا تظن إلا انه في بداية العقد السادس ..

– أيمكن أن أراه ؟.

– أجل وفي أي وقت تريد ..

– أين يكون الآن ؟.. هل هو يقيم معكم أو مع الآخرين ؟؟

– بل هو معناه وهو الشيخ الريان الجسم الربعة الذي كان يتقدمنا عندما سلمنا عليك وبيته ذاك البيت المرتفع على الاعمدة الثلاثة وإذا كان لك به حاجة فإنني على استعداد لأن اخبره ليأتيك في أي وقت تريد ؟.

– لا ليس لي به حاجة خاصة بالنسبة الي وإنما أود أن اعرف شيئاً عن حياة والدك التي لا شك عندي بأنها حياة سعيدة لم ير فيها ما يكدر صفو عيشه..

– ما هو دليلك على ان حياته كانت كلها سعيدة ولم ير فيها ما يشوبها من نكد الدنيا ؟..

– من أعظم الأدلة على ذلك وجود هذه الأسرة الكبيرة بل العشيرة الكثيرة وهذه الأموال الطائلة التي كلها محسوبة له سواء من المال أو من البنين.. وهذان الاثنان هما كمال لذة الدنيـــا وزينتها كما ذكرها الله بكتابه العزيز بقوله : المال والبنون زينة الحياة الدنيا الخ ..

وبعدما أنتهى السبهان من حديثه هذا تنهد ابن (ابو رقطه)وقال :

– أرى انه من الاحسن والحالة هذه أن تبعث رسولاً من عنــــدك لتستدعي والدي لــكي يقص عليك ما لقيه من حياته السعيدة كما يخيل اليكم..

– يبدو من الجملة الاخيرة أن في حياة والدك لغزاً مبهماً ؟.
– طبعاً فيها أكثر من لغز ..

أتستطيع أن تشرح لي ما تعرفه عن حياة والدك ؟.

– مـا دام أن والدي قريب منا الآن فمن الاحسن ان تبعث اليه رسولاً من عندك ليحضر .. ومن ثم يروي لـكم الشيء الذي يسترعي الانتباه من صميم واقع حياته ..

– لا بأس هذا أحد رجالي سوف يذهب الى والدك ليأتي به الينا وإنما اريـد منك ان تهدي رسولي الى بيت والدك ..

– لا يحتاج بيت والدي الى دليل ثم أشار بيده الى بيت أبيـه قائلاً للرسول بالاشارة :

– انظر الى بيته المرفوع على ثلاثة أعمدة وتلك علامته الفارقة لأنه ليس في قطين الحي بيت على ثلاثة أعمدة يشابهه ..

فراح الرسول الى البيت المشار اليـه ووجد صاحبـه متكئاً على سرج الفرس ويحيط به عدد كبير من أبنائه وأحفاده وأحفاد احفاده فقال له الرسول بعد ان بدأ بالتحية التقليدية :

– ان الامير يريد أن يراك ..

فأجابه الشيخ بالموافقة بعد ان طلب منه ان ينتظر حتى يقدم له اكواباً من

القهوة : وبعدما احتسى الرسول مـــا طاب له من القهوة ذهب الى السبهان وبصحبته الشيـخ ..

وبعد تبادل التحية التقليدية وانتهاء الشيـخ من أكواب القهوة والشاي اللذين احتساهما بأناة ووقار ، بعد ذلك وجه له سالم السبهان السؤال التالي :

– أيسمح لنا عمنا بأن نسأله بعض الاسئلة ؟..

– تفضل يا بني ..

– كم تبلغ من العمر ؟..

– ما يناهز المائة سنة ..

– يبدو لي انك اصغر من ذلك بكثير ..

– ولكن الذي قلته لك هو الواقع ..

– مـا هو السر في نمو صحتك وسلامة حواسك بالرغم من كونك بلغت من العمر عتياً ؟..

– أهم شيء في ذلك حسبا أظن هو ان التجارب علمتني بأن لا أحزن على الماضي ولا أفرح بالحاضر ولا اهتم للمستقبل ..

– فهمت من مجرى الحديث الذي دار بيني وبين ابنك ان في حياتك عبراً .. فهل يمكن ان تحدثنا عن أهم تجربة عرفتها خلال حياتك الطويلة ؟..

– لم أر – ولله المنة والشكر – في حياتي ما يكدر صفوها خاصة بعدمـا تجاوزت سن الشباب والفتوة وربما كان هذا ايضـاً من أهم العوامل التي ساعدتني على تماسك صحتي لأن أهم شيء يؤثر على صحـــة المرء ، ليس الا توالي الامراض وتتابع الأحداث والمصائب التي يبتلي بهـــا الانسان بعدما يتجاوز سن الفتوة

ويدخل مرحلة من سن الكهولة .. عند ذلك يفقد قوة المقاومة ..

ومضى الشيخ بحديثه الى ان قال : ومن رحمة الله ولطفه بي أن المصيبة التي ابتليت بها كانت في عنفوان شبابي فلم تؤثر عليّ من الناحية الصحية لأن في الشباب قوة ومناعة لمواجهة الاحداث لا توجـــد عند الشيوخ ، كما اعطتني تلك التجربة المرة درساً في مستقبل حياتي فصيّرت مني إنساناً يقابل الملمات والمصائب بايمان وصبر لا يتخلل اليها القنوط واليأس ..

– نحن بحاجة الى أن تسمعنا التجربة التي أشرت اليها ..

أنكحني والدي من ابنة أخيه المتوفي وذلك عندما كنت في سن المراهقة فأنجبت مني ذكرين- وذلك بعد أن توفي والدي فأصبحت إبل والدي الكثيرة وإبل عمي التي لا تقل عنها عدداً ملكاً لي بحكم انني العاصب لعمي والابن الوارث الفذ الوحيد لوالدي ، ولم يكن لعمي ذرية ما عدا ابنته التي في عهدتي ، فكنت أغنى وأسعد فتيان عشيرتي ..

ثم استطرد الشيخ وقال :

– وفي ذات يوم ضافني ضيوف لم يكن لي بهم سابق معرفـة من قبل ، ولم أرهم فيما بعد فذهبت واستدنيت كبشاً وذبحته كضيافة لهم ثم ذهبت لقضاء حاجة ما ، فجاء الطفل الكبير وأخـــذ المدية واتجه نحو أخيه الاصغر الذي انطرح له ليمثل دور الكبش كما مثل الكبير دوري بتذكيتي للخروف فـذكاه بالشفرة المسنونة كما رآني أذكي الكبش .. فخرجت والدتها وعندما رأت هذا المنظر فقدت رشدها فالتقطت حجراً كبيراً وقذفت به الصبي الكبير فأصابت منه مقتلاً، فخر الآخر ميتاً بجانب أخيه ، فوقعت هي الاخرى على ابنيها ميتة من فورها ، فجئت فوجدت الابنين وزوجتي قد فارقوا الحياة، فكان وجود ضيوفي مما ساعدني على التجلد والصبر ، فذهبت أحفر قبورهم بمعونة من ضيوفي .. وبينما كنت قد حفرت القبر الاول والثاني وبدأت بالثالث عند ذلك جاءني راعي ابلي يصيح بأعلى صوتـه

فتركت حفر القبر واتجهت نحوه اسأله الخبر فأخبرني ان غزاة من قبيلة عتيبه صبت غارتها ونهبت الابل بكاملها. فذهبت على الفور وامتطيت جوادي الأصيلة السريعة العدو ، وتنكبت سلاحي ولحقت العدو وأنا في حالة يأس من حياتي.. قد قررت أحد الامرين أما ان استعيد أبلي وأما ان اقاتل الغزاة حتى اقتل ، ولكن الذي حصل هو انني لم أحظ لا بهذه ولا بتلك ، لانني عندما هجمت على الغزاة اطلقوا على عياراتهم النارية فأصابت مقتلاً من الفرس فسقطت ميتة فذهب الغزاة بالابل بعدما عدت الى بيتي الخالي من الزوجة والابل والاولاد والفرس ،وحتى الضيوف ذهبوا وتركوا ضيافتهم ولكنهم لم يذهبوا حتى واروا جثمان الزوجة وطفليها..

وصمت الشيخ قليلاً .. فانتهز ابن سبهان صمته هذا وقال :

– وكيف جمعت هذا المال بعد تلك الكارثة ؟.

– فأجابه الشيخ وهو يبتسم فقال :

عندما بلغ رجال قبيلتي ما حل بي من كارثة أبدوا رأيهم بالاجماع بأن أذهب الى قبيلة عتيبة الذين غزوني ونهبوا أبلي لأشكو لهم أمري لعلهم يعيدون لي أبلي أو بعضاً منها بعدما يعلمون بالكارثة التي حلت بي،ولكنني رفضت واصررت معتمداً على الله ، وواثقاً به ومقرراً بأن لا أبدي شكواي لأي مخلوق كان ومؤمناً بأن الضجر والشكوى للمخلوق الفاني ليست إلا عدم ثقة بالباريء جلت قدرته ، فقاطعه ابن سبهان قائلاً :

ثم ماذا كانت الاسباب التي التمستها حتى وصلت الى هذه الثروة الطائلة والبنين الكثيري العدد ؟.. فقال الشيخ :

– ليس هناك أسباب مادية تستحق الذكر سوى الاسباب المعنوية التي أهمها

الصبر .. ثم مضى الشيخ في حديثه الى أن قال :

ـ عندما نكبت بهذه المصائب جاء قومي فتطوعوا من تلقاء أنفسهم فجمعوا لي أبلا كما هو شأنهم في تكاتفهم الاجتماعي بحالة كهذه ، وقدموها لي كسلفة [1] على أن أتولى رعايتها والعناية بها فلي منها البانها ، وأوبارها وما تنجبه في العام الاول من ذرية مقابل عنايتي ورعايتي لها .. فقبلت ذلك كقاعدة متبعة وعرف متبادل ، فأعطاني رجال قبيلتي مجموعة كثيرة من أبلهم وقد أخذت أتولى رعايتها والعناية بها حتى بارك الله في ذريتها ، فأنجبت جميعها ..

وبعد ذلك أعدت الأصل من الابل الى أهلها بينما بقيت عندي الذرية .. واسترسل الشيخ بحديثه الى ان قال :

ـ وأعجب ما في الامر أن غزاة عتيبة الذين نهبوا أبلي لم يبلغهم خبر الكارثة التي حلت بي إلا بعد مدة تزيد على العام بحكم الحروب القائمة على قدم وساق بيننا وإياهم التي من شأنها ان تجعل حلقة الصلة بين الطرفين مقطوعة ..

ولكن ما أن تأكد غزاة عتيبة انهم اختطفوا أبلي وقتلوا فرسي في اليوم نفسه الذي مات فيه ولداي وزوجتي حتى أعادوا عليّ ابلي كاملة مضافاً اليها ما انجبته من الذرية خلال المدة التي بقيت عندهم بها كما اعطوني عهداً متفقاً عليه من رجال قبيلة عتيبة بأن لا يغزوني أحد منهم قطعياً ، فعادت إليّ إبلي بكاملها مع ما أنجبته من ذرية بالاضافة الى ما هو عندي من ذرية الابل التي أشرت اليها ، فأصبحت من ذلك اليوم الى يومنا هذا لا أغزو ولا أغزى لا أنا ولا أبنائي

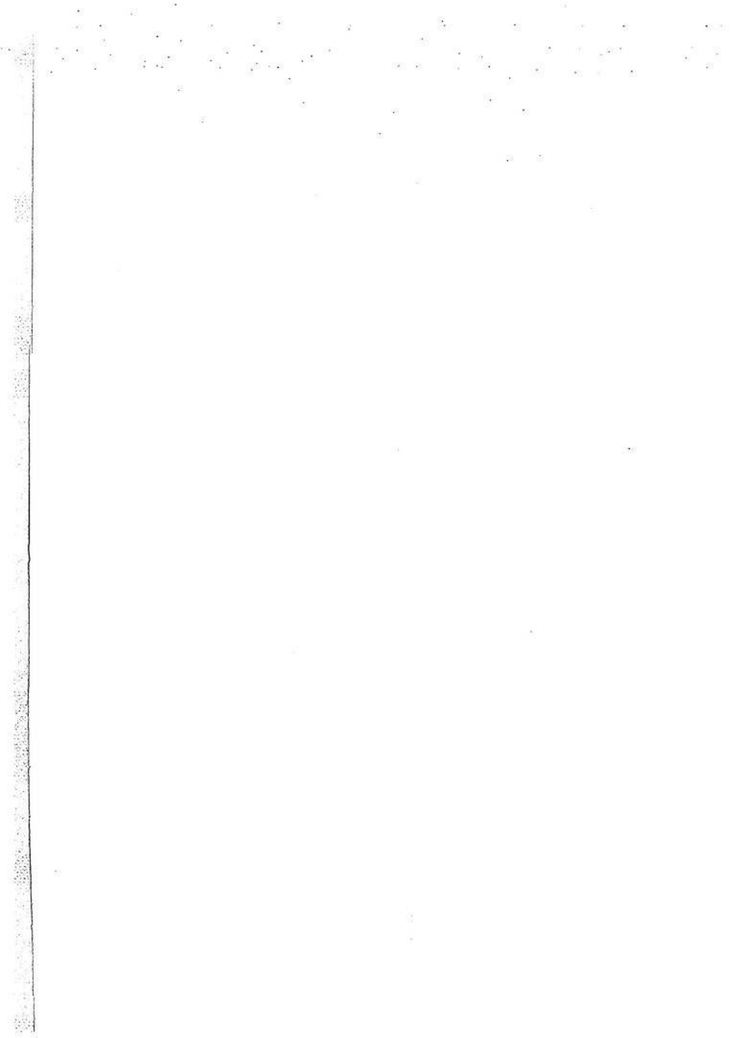
---

١ ـ انظر كتابنا التطور الفكري في جزيرة العرب في القرن العشرين للمؤلف ص ٣٥ .

وحتى احفادي ، وكل هذه النعمة نتيجة للصبر فهو خير عدة يستعين بـــه المرء بالملمات والمحن .. وهذا ما أوصي به أبنائي فيما اذا أصابتهم كارثة مـا فيها ضياع للمال أو الاولاد ، فقد أوصيتهم أن لا يفقدوا الصبر . فيكونوا وقتهـــا حرموا الأثنين : ضياع ما اصيبوا به في إتلاف كما حرموا الصبر [1] .

---

١ - ومن هنا بدى لنا الامر جلياً ان من اهم اسرار النجاح في هذه الحياة هو الصبر .. لا اعدمنا الله اياه ..



الفصل الرابع

اصطناع المعروف والمكافأة عليه

ومن يجعل المعروف من دون عرضه
يفِره ومن لا يتق الشتم يشتم

اذا كان ابتكار المعروف فرض كفاية
فان المكافأة عليه فرض عـــين

- ٢٧ -

إذا كانت الارض الطيبة والتربة الخصبة البكر إذا جاءها المـاء القراح الزلال اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فإن الارض السبخة مهما تدفق عليها الماء العذب فإنه لا يغير شيئاً من طبيعتها ..

وما يقال عن الارض يقـــال عن طبيعة بني الانسان عينـاً بعين ولا غرو ، فإن القرآن الشريف يقول : منهـا خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى) ..

إذن فالانسان بطبيعته جزء لا يتجزأ من الارض التي منها الخصبة ومنهـــا السبخة ..

وعندما ننظر الى ما قاله كثير من الشعراء والأدباء المتشائمين بل ونشاهد نحن بأنفسنا رؤية العين مـا يؤيد كلام هؤلاء في حكمهم على كثير من البشر الذين لا يفيد في طباعهم المعروف ولا يؤثر عليهم الفضل إلا إذا كان الماء القراح الزلال يؤثر على الارض السبخة ..

عندما ننظر هذه الظاهرة نكاد أن نؤمن إيماناً راسخاً بأن بني الانسان خلقوا كلهم من ارض سبخة ولكن سرعان ما نفند هذه النظرية حينما نرى من بني الانسان من يؤثر على كيانه أدنى عمل من المعروف كما هو شأن الارض الخصبة التي تشمر تربتها وتزدهر فيها شتى أنواع النبات بدون سقي ماء مباشر وانما مجرد طل خفيف فقط ..

هكذا طبيعة الارض الخصبة وهذه سجية الانسان الكريم الوفي الذي خلقت طينته من هذه الارض المباركة الشكور بطبيعتها ..

وليست الحادثة المشهورة التي سوف نوردها الآن إلا دليلاً ملحوظاً من جملة الأدلة الواقعية المؤيدة لصحة ما نصبو اليه ..

وقصتنا هذه وقعت في عام ١٢٦٨ هـ فيكون لها الآن ما يقارب قرن وربع القرن ..

وفي العام المشار اليه أعلاه فكر أمير بلدة حائل آنذاك المدعو (طلال العبدالله الرشيد) ان يدعو البارزين من أعيان بلاده وأعيان أهل القرى القريبين من البلاد ليأخذ رأيهم في أمر ذي أهمية فبعث رسولاً من عنده يخبرهم برغبته هذه ويعين لهم الزمان والمكان اللذين سيتم الاجتماع فيهما .

ووفقاً للرغبة المشتركة توافد المواطنون حسب تعيين الزمان المحدد قاصدين المكان الذي كان في قصر الامير بالذات ، فانتظر الامير قليلاً ليصل بقية المواطنين خاصة من أهل القرى النائين عن البلاد، ثم بعد ذلك بدأ بشرح الأمر الذي جمعهم من أجله ، وبعد أن أنهى حديثه صمت فترة ثم قال :

كل منكم يوافيني في رأيه في هذا الشأن لأنني لم اطلب حضوركم هنا إلا ليكون الرأي مشتركاً ..

وفي أثناء كلامه هذا وقبل أن يبدي كل فرد من القوم رأيه دخل شخص من أبرز شخصيات قرية تسمى قفار[1] يدعى سالم بن راشد ولهــذا الشخص مكانة مرموقة في المجتمع وكان حضوره المتأخر مشكلة بالنسبة اليه وللأمير ايضاً وذلك انه لم يأت إلا بعد ان اخذ كل فرد من اعيان البلاد مكانه في المجلس وكان مركز هذا الشخص القادم يفرض عليه ان يكون في صدر المجلس فاذا لم يكن الرجل الاول الذي يلي الامير بصورة مباشرة فينبغي أن يكون الثاني أو الثالث فاتجه الرجل الى صدر المجلس ليتخذ مكانه الطبيعي فيه فوجده حاشداً بأعيان البلاد الذين يرى كل فرد منهم لنفسه من المكانة ما يضارع ابن راشد ، فاتجــه الى يمين النادي ليختار له مكاناً فيه فوجده غاصاً ولم يكن له مكان فيه ، فعاد الى اليسار بسرعة فيها شيء من الخجل فكان الرجال متراصين فيه المنكب حذو المنكب ، وليس من السهل ان يتنازل أي من هؤلاء الاعيان قبل ان يشارك جماعته بالرأي وقبل ان يعرف ما هو الرأي الذي اتفق عليه القوم ، كما ان الامير وان كان يرى لابن راشد مكانة تستحق الاحترام ولكنه لا يستطيع من الناحية الأدبية والاجتماعية ان يأمر احداً من هؤلاء الاعيان بالخروج ليجلس ابن راشد في محله فهذه العملية وان كانت احتراماً لابن راشد من ناحية ولكنها احترام لا يتم إلا على حساب المس من حرمة وكرامة المواطن الآخر ..

وفي هذه اللحظة الوجيزة التي كان فيهــا الامير في حيرة من أمر ابن راشد وكان ابن راشد يتصبب عرقاً من الخجل متمنياً في قرارات نفسه أنـه لم يأت من قريته في هذه الثواني لم يكن أمام ابن راشد إلا أن يتجــه نحو الباب قاصداً الخروج .

---

١ – كانت هذه القرية الاصل وكانت حائل عبارة عن قرية اذ لم تكن تابعة لقفار فهي اقل منها شأناً . انظر كتاب المؤلف الجزء الخامس فيما اذا اصدر .

وقبل أن يتخذ قراره النهائي قفز شخص يدعى حسن الباذري [1] من صدر المجلس وصاح به : تفضل يا أبا فلان في مكاني ثم انحرف بوجهه نحو الأمير قائلاً :

ـ لقد سمع القوم الرأي الذي جمعتنا من اجله ، ولكن فلانا لم يسمعه بحكم بعد قريته ومن الاوفق أن يعيد الأمير اطال الله عمره حديثه ليسمعه فلان بصفته رجلا لا نستغني عن رأيه ، ثم اردف قائلاً : أما بالنسبة لرأيي فقد منحت صوتي لفلان (يقصد ابن راشد) قال الباذري هذه الكلمة بعدما اخلى مكانه لابن راشد ثم خرج فوراً ..

سر الامير لهذا الموقف الذي اتخذه الباذري والذي سر له اكثر وأكثر ابن راشد طبعاً .

كان الحديث الذي تحدثه الباذري من شأنه أن يجعل الامير ملزماً باعادة حديثه من جديد ليسمعه القادم الجديد فما وسع الامير الا أن اعاد حديثه السابق وقد اعيد تداول الرأي فيه من جديد وساهم ابن راشد برأيه الذي يعتبر رأي رجلين أي رأيه ورأي رفيقه الباذري ..

ولما كان الرأي المأخوذ به في حالة كهذه يعود الى الاكثرية فقد كانت الاكثرية بجانب القوم الذين في طليعتهم ابن راشد فأخذ برأي الاكثرية في ذلك الامر الذي حتى الآن لم نعرف كنهه لانه ضاع في خضم الحادثة التي كان لها من الاثر في نفوس المواطنين ما جعل ذلك الموضوع نسياً منسياً ..

كانت العادة المألوفة آنذاك أن يتبادل الدعوة فيا بينهم أهل القرى واهل البلاد

---

١ - الباذري من اهالي بلدة حائل .

وحيث أن القرى في فصل الصيف يكون فيها خضروات وفواكه لذلك تكون الدعوات من أهل القرى لاهل البلد بصورة مستمرة بهذا الفصل يضاف الى ذلك أن اهالي قرى حائل اكرم بكثير من اهل البلاد انفسهم بل أكرم من أهل اية قرية من قرى شبه الجزيرة ، ولذلك لم يستغرب الباذري دعوة ابن راشد له لتناول وجبة الغذاء .. لا لم يستغرب الباذري هذه الدعوة ولم يفسرها الا انهـا دعوة طبيعية كشأن كثير من الدعوات والولائم التي يقوم بهـا ابن راشد بين فترة وأخرى فذهب الرجل ممتطياً دابته قاصداً قرية قفار التي لا يتجاوز بعدها عن بلدة حائل اكثر من خمسة عشر كيلومتراً وقد رأى الرجل وهو في طريقه مـا أثار انتباهه من كثرة عدد الرجال الذاهبين من اعيان أهل البلاد إلى قرية قفار بدعوة من صاحبه نفسه ولكنه لم يفسر ذلك الا انها دعوة من ابن راشد أمـا على شرف الأمير او في مناسبة اخرى ذات شأن خاص به ..

وعندما دخل بيت صاحب الدعوة ووجد الامير طلالاً والقاضي وجميع أعيان أهل البلاد وأعيان أهل القرى الذين حضروا مجلس الامـير سالف الذكر كلهم موجودون فظن في نفسه أن الامر كما تخيله ..

ولكنه سرعان ما أدرك ان الدعوة له بالذات لا للأمير ولا للقاضي وانما هي على شرفه ، لقد شعر بذلك بصورة واضحة عندما أمسك بذراعه المضيف وأجلسه في المكان الذي أعده له كضيف شرف ثم تلى الكلمة المألوفة التي يعرف المدعوون من مفهومها من هو ضيف الشرف عندما قال :

– ان «حسناً» كثير البركة فقد كان سبباً لحضور الامير والقاضي وأعيان قومنا الافاضل .

دهش الباذري من هذه الدعوة التي هي على شرفه بدون ان يخبره المدعو ،اديرت اكواب القهوة كالمعتاد وبعد ذلك وقف احد أخوة المضيف وأشار لهم ان يتفضلوا الى المائدة فجاء ضيف الشرف يسير بخطى وئيدة بين الامير والقاضي وكانت المائدة

فيها من الخيرات ما يزيد عن كفاية الامير وحاشيته الكثيري العدد وأعيان البلاد والقرى .. خرفان كثيرة العدد وناقة من سمان الابل واكواب اللبن المخيض يدور به رجاله على المدعوين وصحون الفاكهة والتمر الذي يسيل منه الدبس وجد كل ذلك موضوعاً تحت الجفنـــات التي يقطر منها السمن ويغطيها أليات الخرفان وسنام الناقة .. ظل الامير وبعض من المدعوين تتجه أبصارهم نحو ضيف الشرف فكان لسان حالهم يشير له من طرف خفي بأن هذه الدعوة اكرام لك تجاه موقفك من مضيفك في المجلس الحاشد أي سالف الذكر .. كما أن ضيف الشرف هو الآخر بدأ يشعر ان هذه الدعوة مقابل قيامه له بذاك الحفل ..

كان كل من الامير وضيف الشرف والمدعوون يرون ان ابن راشد قابـــل معروف الباذري بدعوته له مقابلة لا مزيد عليها ولم يخطر لهم ببال ان القضية لم تقف عند هذا الحد.

« الرجل اكثر كرماً مما يظنه المدعوون وأجم مروءة مما يتصورون »

عندما انتهى المدعوون من طعامهم ذهبوا الى مجلس المضيف وبعدمـا احتسوا اكواباً من القهوة ولم يبق إلا (دخون العود)[1] عندئذ وقف المضيف وقال :

ـ لا يخفى على الامير المثل القائل: ثلاث هزلهن جد وهن الهبة والطلاق والعتق ثم مضى قائلاً : اشهدوا عليّ بأنني قد وهبت حسن الباذري نصف ما املك فهو من الآن فصاعداً يشاركني بكل ما أملك من المال والماشية والارض الزراعية، كما اني اشهدكم بأن هذه الهبة سوف تكون سارية المفعول في حياتي وبعد مماتي . ثم أوضح قائلاً : يعني أن أبناءه سيكون لهم حق الشراكة مع ابنائي ..

---

١ - معروف لدى المواطنين في الجزيرة العود الى يومنا هذا وهو نوع من شجر يأتي من الهند طيب الرائحة وعندما يوضع دليل ان المجلس انتهى .. ويقال في المثل ليس بعد العود قعود..

ومن هنا قفز الباذري وقال :
ــ انني أرفض قبول هذه الهبة ..
فأجابه أبن راشد قائلًا :
ــ الهبة لا ترد .. والكريم امثالك لا يرد هبة الكريم .. ثم استطرد وقال : لا تنس انك انت صاحب الفضل الاسبق وانت الذي بدأتني بمعروفك ..
فعارضه الباذري قائلًا :
ــ أنا لا أذكر انني قدمت لك معروفاً يستحق الذكر الى هذا الحد .
ــ معروفك الذي وشحتني فيه لا يحتاج الى شهود فكل هؤلاء القوم بما فيهم الامير خير شاهد على معروفك الذي أسديته لي عندما كنت في احرج الظروف ــ مشيراً الى قيامه له ــ .

ــ أنا لم أفعل إلا ما يفرضه عليّ الواجب ليس إلا .

ــ إذا كنت تعتبر ما قمت به نحوى فرض كفاية فإنني اعتبر ان ما سأقوم به الآن فرض عين وإذا كنت ترى لذة في فعل المعروف من حيث هو معروف فإنني اشعر بلذة لا يعادلها لذة في المكافأة على المعروف ..

ــ عندما قمت لك لم افكر ولم يخطر لي ببال انك ستقف مني هذا الموقف الذي اخجلتني واحرجت به موقفي .

-- لو كنت أعلم أو أشك بأنك قمت بدافع يحدوك نحو طلب الجزاء أو المكافأة مني لما فعلت معك ذلك .. ولما كنت مؤمناً بأنك لم تفعل معي ذلك إلا بدافع المروءة ، فانني أجد الدافع نفسه يضطرني أيضاً لأن أقابل معروفك هذا بدافع من المروءة لأجل المروءة وبحافز من النخوة لكي يكون كل منا قدوة صالحة لقومه ..

وعندما طال الجدل بين الراشد والباذري ، فالأول يعبر لسان حاله عن المثل العربي القائل : (اصطناع المعروف فرض كفاية والمكافأة عليه فرض عين) ..

والثاني يناجي نفسه بما قاله البارودي :

خلقت عيوفاً لأرى لابن حرة
عليّ يداً أغضي لها حين يغضب

وبينا كل منهما متعنت بفكرته عند ذلك توسط الامير فقال :

ـ ألا تقبلان أن اكون حكماً في حل الإشكال بينكما ..

فانتهز هذه الفرصة ابن راشد وسبق صاحبه قائلاً :

ـ لا مانع عندي ..

فالتفت الامير الى الباذري يسأله :

ـ هل انت موافق على حكمي ..
فقال وهو يتلعثم خجلاً :
ـ أجل اوافق ولكن بشرط ..

وقد أدرك ابن الراشد عن طريق البديهة ان الامير سوف يصدر حكمه بصالحه لكي يتنافس مواطنوه على ابتكار المعروف والمكافأة عليه ، لذلك أسرع فقال :

ـ لا أعلم ماذا يكون حكم الامير ، هل يكون بصالحي أم ضدي ولكني مع ذلك لا يسعني الا أن اقول انني قابل بما يحكم به اميرنا بدون قيد ولا شرط ..

ثم أردف قائلاً :

ـ ولا اعتقد الا ان أبا فلان سيقبل (مشيراً الى الباذري) حكم الامير بدون قيد أو شرط ..

فأجاب الباذري بالقبول ..

فقال الامير : خير الأمور أوسطها ..

ثم مضى وقال : عليك يا ابن راشد ان تتراجع عن كون ابنـــاء الباذري يكونون شركاء لأبنائك وان تتراجع ايضاً عن كون الهبة سارية المفعول حتى بعد مماتك وان تكتفي بأن تكون الهبة معمولاً بها ما دمت على قيد الحياة كشريك لك بكل ما تملك ..

ثم وجه الامير كلامه الى الباذري فقال : وعليك ايضاً ان تقبل هـذا الشرط فتكون أخاً شقيقاً لصاحبك ..

ثم قفز الامير وذهب يتبعه حاشيته دون أن يعطي الباذري مجالا للمعارضة أو طلب استئناف الحكم .. كما ان المدعوين تفرقوا حالما ان ذهب الامير، فلم يسع الباذري إلا ان قبل حكم الامير وهو يردد في نفسه المعنى الذي عبر عنه الشاعر المعاصر احمد الصافي النجفي :

ونبيل قوم جـــاد لي برسالة
فواحـــة من لطفـــه بعبيره

وإذا بهـــا ملغومـة بسخائـــه
فاخـتـرت بـــين مساءتي وسروره

حـاولت رد سخائـه فخشيت أن
اقضي على نبـــع السخـا بضمـيره

فرضيت منكسراً بجرح كرامتي
وقبلت جرحي خوف جرح شعوره

وقد قام ابن راشد من فوره بارسال نصف ما يملك من حصاد زرعه ونخله وما لديه من نقود إلى صاحبه الباذري .

وظلت الصلة بينهما وثيقة العرى الى أن توفاهما الله ..
ولست أدري ايهما الذي لقي ربه قبل صاحبه ..
وقد رويت هذه القصة عن اكثر من واحد من النفر الذين منهم عاصر الحادثة وتوفي الى رحمة الله ومنهم من نقلها عمن شاهد الحادثة وكانوا شهود عيـان عليها ..
وعلى أية حال فالقصة معروفة ومشهورة خاصة عند سكان مدينة حائل فهناك من الاحياء الذين يعرفونها بحكم تناقل الرواية المتداولة من السلف الى الخلف ..

ادخار الفضل في اعناق الكرام خير من ادخار المال

-٢٨-

يخطيء كل الخطأ من يظن أن المال او العقار الذي يدخره المرء لابنائه وحدهما كاف لسد حاجات الزمان وغوائل الدهر ، بل هناك من الاشياء التي يصطدم بها المرء في حياته احياناً لا ينفع بها المال المرصود ولا العقار المدخر اكثر من نفع المعروف الذي يدخره المرء في اعناق الرجال ذوى الفضل ، فالمعروف في ذمة اصحاب المروءة كنز لا ينضب معينه ، ولعل في هذه الحادثة التي نقلتها من مصدرها المرحوم محمد بن ماضي [1] ما يعطينا اصدق الأدلة على صحة هذه النظرية .

كنت بين فترة وأخرى اذهب من دمشق الى لبنان لزيارة المرحوم ابن ماضي عندما كان في مصح ظهر الباشق والواقع انني كنت انوي في زيارتي له ان اسليه واقاسمه الهموم كمريض يشكو من عدة امراض وكغريب وبعيد عن اهله .. ولكنني عندما اجتمع به أجدني عند رجل بدلاً من أن اسليه اشعر بأنه هو الذي يسليني وهو الذى يبدد الهموم عني ، بأحاديثه الشيقة التي هي من صميم واقعنا العربي ، فكأن الرجل دائرة معارف مستقلة خاصة بما له علاقة في تاريخ جزيرة العرب ، وبمعرفة انساب الاسر والقصص الشعبية .. ويعجبني منه ضبطه للحوادث

---

١ – محمد من بلدة الروضة في سدير توفي عام ١٣٧٣ هـ ١٩٥٣ م .

وحسن القائد ، فتارة يحدثني عن تاريخ بلادنا في قرننا الحالي وطوراً يتحدث عن رجال القرن الماضي الخ ...

وفي ذات يوم اسمعني حادثة وقعت على يده ويؤكد انه كلما يذكرها يشعر بسعادة ولذة لا يعادلها اية سعادة ولذة في حياته كلها.. فيقول :

عندما كنت والياً من قبل الحكومة السعودية على مدينة ضبة المتاخمة للحدود الاردنية وردتني اوامر من المرحوم الملك عبد العزيز تشير الى المنع التام لتصدير اغنام المملكة الى الخارج ، لأن كثيراً من تجار المواشي اصدروا غنماً الى سورية والاردن وفلسطين في عهد الانتداب البريطاني بلا حساب ، الامر الذي سوف يجعل البلاد فقيرة بثروتها الحيوانية فيما اذا استمر التجار في سلوكهم هذا ، ولما كانت المكاسب التي يربحها التجار من وراء الماشية مغرية فان ذلك مما دفعهم الى الاستمرار بتجارتهم وذلك عن طريق التهريب، وحينما بلغ الملك ان التجار انتحلوا طريق التهريب ، عند ذلك أمر القائمين على رؤوس الحدود بأن يشددوا الحراسة وبالاضافة الى ذلك أمر بان الماشية المهربة التي تقع بيد امراء الحدود تكون ملكاً لهم ، الأمر الذي جعلهم يتصرفون بها كيف يشاؤون، وهذه الاوامر الاخيرة المغرية جعلت امراء الحدود يزدادون حرصاً على الحراسة اكثر من أي وقت مضى ، لأن القضية اصبحت قضية مصلحة محسوسة ، والامير الذي يوفق الى القبض على غنم مهربة فهذا يعني انه سوف يكسب صفقة خيالية من المال تزيد اضعافاً مضاعفة عما سيوفره من مرتبه الشهري ، فيما لو عاش عمراً طويلاً في خدمة الدولة ، لأن التاجر الذي ينوي ان يهرب غنماً من المملكة سوف لا يغامر بأقل من الفي كبش وقيمة الكبش لا تقل عن خمسين ريالا ..

وأمـــام هذا الربح المغري يؤكد ابن ماضي انه امر جنوده بأن يضاعفوا جهودهم بالتحري والتنقيب في الصحراء لعل القـــدر يسوق لهم من يستولون على غنمه ..

غنيمة لا يخشى مغتنمها الفقر

وعندما كان جنود ابن ماضي يطوفون الصحراء تارة خلسة ، واحياناً علانية ، التقوا بضالتهم المنشودة ، حيث وجدوا غنماً كثيرة العدد يسوقها صاحبها نحو الحدود الاردنية ، وقبل ان يدخل الحدود القي عليه القبض ، وجاءوا به يسوقونه الى اميرهم ابن ماضي ، بينما ذهب بعض من الجنود مسرعاً الى الامير ليبشره بالغنيمة الدسمة التي لا يخشى مغتنمها من غارات الفقر مدة حياته .

كانت البشرى عظيمة بالنسبة لابن ماضي ، وكانت الغنيمة فوق ما يتصوره ومنتهى امنيته ..

وعلى الفور أمر رجالا ممن يثق بهم بأن يحصوا عدد الغنم ، كما أمر بسجن التاجر صاحب الغنم بدون ان يعرف اسمه أو يحقق معه ، لأنه ليس بحاجة الى معرفة اسمه كما ان القضية لا تحتاج الى تحقيق لأن الاوامر الصادرة اليهم من قبل الملك تشير الى مصادرة أي شيء من الماشية التي تتجه نحو الحدود الاردنية بأي شكل من أشكال هذا الاتجاه. والتجار سبق ان ابلغوا هذا الانذار،واصبح لديهم علم بأن من يقرب من الحدود الاردنية الهاشمية بماشيته أو يتجه نحوها ومن ثم يلقى عليه القبض فان ماشيته سوف تصادر عن بكرة ابيها .. ولا يقبل له أي عذر كان ..

وعلى هذا الاعتبار اصبح صاحب الغنم يائساً من استرجاع غنمه .. وكل ما يهمه الآن هو ان ينجو بنفسه من غياهب السجن الذي أودع فيه ، اما امير ضبة ابن ماضي فقد كان همه الوحيد محصوراً بتصفية هذه الصفقة ومعرفة الزبون الذي اشترى منه الغنم دفعة واحدة ، وبينما هو سابح في لجة سروره بغنيمته هذه واذا به يسمع احد جنوده يذكر اسماً يكنى به اسرة كبيرة من اهالي بريدة محبباً الى

نفسه وهو ما يدعى (بابن شريدة) فقال ابن ماضي للجندي :

– ما هي المناسبة التي جاء بها ذكر ابن شريدة ؟..

فقال الجندي ببساطة :

– يسألني رفيقي عن اسم صاحب الغنم فقلت يدعى سليمان بن شريدة ..

« لذة كسبه المعنوي طغت على اللذة المادية !! »

– ولماذا لم تخبرني ان صاحب الغنم ابن شريدة ؟..

– لم تسألني عنه ..

– اذهب فوراً الى وكيلي الذي وضعتم عنده الغنم وأكد عليه بأن لا يتصرف بشيء منها وها انا ذاهب اليه لأقدم له اعتذاري وافرج عنه واسلمه غنمه ليتصرف بها كيف يشاء ..

* * *

كان المرحوم ابن ماضي يروي لي هـــذه القصة وكنت مصغياً بكل حواسي لحديثه ، إلا أنه بعدما وصل الى تصرفه الاخـير أي عفوه عن السجين واعادة غنمه اليه وتحمله المسؤولية امام الحكومة ، عند ذلك قاطعته الحديث قائلاً :

-- ما هو سر هذا التناقض ؟..

فقال : عندما عرفت ان الغنم لابن شريدة شعرت بلذة طغت على كل مـا في نفسي من الطمع ، وذلك ان والدي حدثني بأن محمد بن شريدة عميد هذه الاسرة أسدى اليه معروفاً وذلك منذ اربعين سنة ، وصفة هذا المعروف هـو ان والدي عندما زار مدينة بريدة بمعية المرحوم الملك عبد العزيز قـدم ابن شريدة لوالدي مبلغاً من المال وقال له : هذه النقود خذها ان شئت فهي قرض وأن شئت هبة

واستعن بها على نوائب الدهر ..

واسترسل ابن ماضي بحديثه الى ان قال : ومن اجل هذا المعروف الذي بذله ابن شريدة لوالدي تحملت المسؤولية ، واطلقت سراح السجين واعدت اليه غنمه بعدما اعددت له ضيافة تليق بمقامه .. وزدت على ذلك بأن بعثت معه جنوداً يحرسونه حتى يوصلوه المكان الذي وجدوه فيه ، وفي الوقت نفسه بعثت رسالة للملك عبدالعزيز شرحت فيها جميع تصرفاتي من اولها عندما اردت ان ابتلع الغنم كما شرحت فيها الاسباب التي جعلتني اقدم على ما اقدمت عليه .. ولم يأت اليّ من المرحوم ادنى ملامة على تصرفي الاخير .

الفضل يملك الكريم وان قلّ

-٢٩-

قرأنا في كتب الأدب العربي المثل القائل (الفضل يملك الكريم ويخدع اللئيم) والمثل الآخر القائل : استغن عمن شئت تكن نظيره ، واحسن الى من شئت تكن أميره ، واقبل معروف من شئت تكن أسيره ، والأمثال في مثل هذه المعاني كثيرة ، وأسوأ مثل سمعته هو المثل القائل: (اتق شر من أحسنت اليه). فهذا المثل ينهى بطريقة غير مباشرة عن فعل المعروف ، ومن المؤسف انني وجدته معلقاً في براويز في اكثر من بيت من بيوت المدن العربية فكأن واضعه يوصي أبناءه ان لا يفعلوا معروفاً ..

والحقيقة ان هذا المثل لا يضعه في منزله الا شرير لئيم..أجل فالمعروف لايذهب سدى حتى مع الأشرار اللؤماء ، فالشرير اذا قدم له المعروف اذا لم يكن هذا المعروف رادعاً لشره فإنه على الأقل يكون مخففاً من أذيته ولو الى حد ما.. والشاعر العربي بيت يناقض هذا المثل السيء اذ يقول :

احسن الى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الانسانَ احسانُ

والمثل العربي المنسجم مع بيت الشاعر يقول : المعروف رق ، فاختر لنفسك من تضع رقك بيده .

والذي أراه في هذا الصدد هو أن يبتعد المرء ما استطاع عن قبوله لمعروف أي انسان كان .

وأما إذا كان تنفيذ هذه القاعدة ضرباً من المستحيل وفقاً للمثل القائل : الناس بالناس والكل بالله ، إذا كان الأمر كذلك فعلى الرجل الابي الحر ان يختار كريماً لقضاء حاجته هذا اذا كان في ضرورة ماسة الى ان يعتبر ذلك ديناً معنوياً في ذمته وان يبتعد عن منة اللئام مهما قست ظروفه .

وإذا كان من خلق الكريم ان ينسى أو يتناسى أو يتجاهل أي معروف يصدر منه مهما كبر شأنه وفي الوقت ذاته يستكثر أي فضل يسدى اليه مهما كان ضئيلاً ، فإن من طبعت نفسه على اللؤم سيكون عكس الاول .

«والفضل في نظر الكرام جزء لا يتجزأ ، قليله كثير ، وكما ان اعادة الدين المادي واجب شرعاً فإن المكافأة على المعروف واجبة خلقاً وأدباً ومروءة ، وتلك ظاهرة أمر بتنفيذها النبي محمد ﷺ فقال : من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه ، فإن لم تجدوا فادعوا له ، ومن معنى الحديث الشريف يبدو ان المكافأة على المعروف واجبة..»

وفي قصتنا هذه أكثر من معنى يدل على أن المعروف في نظر الكرام وان كان ضئيلاً لا أهميـــة له فإنه كبير كمعروف ، بصرف النظر عن ضآلته وصغر حجمه ..

في عام ١٢٤٩ هـ غزا الامام فيصل[١] بن تركي آل سعود جنوب الجزيرة ، وكان من ضمن رجاله الغزاة عبدالله العلي الرشيد وكان وقتها لم يبلغ من ذيوع الصيت ما

١ – الامام فيصل الجد المباشر للمرحوم الملك عبدالعزيز .

بلغه مؤخراً ، وانما كانت دلائل النجابة وعلامات الرجولة تعبران على انه لم يكن بالشاب العادي ..

وفي ذات يوم دخل الفتى مجلس الامام فيصل فوجده حاشداً من شتى أعيان ساكني شبه الجزيرة بدوهم وحضرهم فجلس الرجل حيث انتهى به المجلس وكان من ضمن الرجال الذين جمعهم نادي الامام فيصل شخص يدعى حماد الذائدي من قبيلة عنزة،وما ان ابصر الذائدي عبدالله جالساً حتى قفز من مكانه وقدم اليه (عوكية)[1] فاستدناها عبدالله واتكأ عليها وبعد ان انتهى المجلس أعادها الى صاحبها ..

مرّت الايام واذا بعبدالله ينال ثقة الامام فيصل واعجابه فيوليه امارة بلدته حائل، فيكون عبدالله أميراً للبلاد ولقبيلته شمر بعدما كان شاباً عادياً لا يملك من الدنيا إلا قلباً ألمعياً طموحاً مغامراً لا يفكر في نتائج مغامرته ومنفذاً كل التنفيذ للمعاني التي نوه عنها الشاعر الاحسائي ابن المقرب حينما قال :

لا يبلغ العليـاء إلا ابن حرة
قليل افتكار في وقوع العواقب

جريء على الاعداء مر مذاقه
بعيد المدى جم الندى والمواهب

وعندما بلغ عبدالله ما بلغه من المجد هناك راح ينفذ عملياً قول الشاعر العربي:

ان الكرام اذا ما أيسروا ذكروا
من كان يألفهم في المنزل الخشن

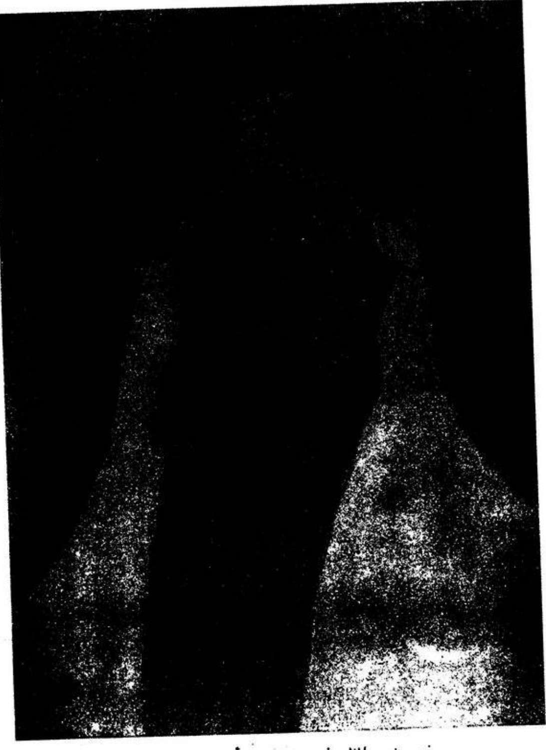
فذهب ينقب عن الذائدي الذي ناوله العوكية في أيام ضعفه لكي يكافئه على

---

١ ـ العوكية هي عبارة عن عصا معكوفة الرأس صالحة لأن يتكأ عليها .

ذلك المعروف المتواضع . في ايام قوته ومجده، وعندما وجده أكرمه اكراماً يليق به وواساه واعتبره أخاً حمياً . وقد توفي الذاندي قبل وفاة صديقه عبدالله فما كان من هذا الاخير الا ان تعهد برعاية وعناية ابناء الذاندي الايتام كأنهم ابناء أخيه، وبما هو جدير باعجابنا بالوفاء العربي من حيث هو .وأنى كان مصدره،ان عبدالله لم تقف به مكافأته لمعروف الذاندي الى حد اكرامه له في حياته واكرامه لابنائه بعد مماته والدم،لا لم يقف به الامر الى هذا الحد، بل انه أوصى ابناءه بأن يتعهدوا ابناء الذاندي بالاكرام مما جعل اواصر الصداقة بين ابناء عبدالله وابناء الذاندي وطيدة الاساس راسخة الاصل مدة طويلة من الزمان .

الشيخ شملان



ذهـــاب المال في حمـــد وأجر
ذهـــاب لا يقـال له ذهـــاب
لاحد شعراء العرب

الكريم الذي ينسى ما اسداه من معروف ويذكر ما اسدي اليه

- ٣٠ -

اعتقد إنني ذكرت في غير هذه المناسبة انه من شيمة الكريم ، أن ينسى كل ما يبدو منه من معروف لاخوانه وأن يذكر بالخير دائماً ما يسدى إليه حتى ولو كان المعروف المسدى اليه قليلاً ومعروفه هو كبيراً ..

وهذه الظاهرة معروفة في عالم الاخلاق والشيم العربيـــة ، ولدينا من الادلة الواقعية بهذا الشأن أكثر من دليل وأنا أود أن استشهد بقليل من كثير ..

نقل الي السيد سليمان [١] ابراهيم القاضي الرواية الآتية :

يقول القاضي انه عندما كان موظفاً للحكومة السعودية ويعمل كمشرف على الحجاج القادمين عن طريق الكويت وذلك في عام ١٣٦٠ هـ في تلك الأيام مر به نفر من سكان الكويت قاصدين بيت الله الحرام .. وكان الفصل شتاء شديـــد البرد ، وقد لفت نظر القاضي على حد قوله شيخ مديد القامة يوحي منظره لأول وهلة بالوقار والهيبة والرجولة .. فسأل عنه فقيل هذا شملان بن رومي [٢] .. يقول

---

١ – سليمان القاضي من بلدة عنيزة .. راجع كتاب المؤلف (من شيم العرب) الطبعة الثانية ج ١ ص ١٥٠ .

٢ – شملان من اعيان اهالي الكويت واصله من قبيلة عنزه .

القاضي : كنت اسمع عن الرجل بأنه كان من رجال المروءة والكرم والنجـــدة والثروة الجة ..

قل أن يجتمع المال والكمال

كما سمعت أن مروءته الدافقة وسخاءه المتناهي كانا على حساب رأس ماله الذي انفقه في سبيل النجدة وبذل المعروف .. ولذلك يقول الراوي إنني عندما رأيته في منظر لا يتجاوب ومنزلته الاجتماعية وسمعته الطيبة جئت اليه وأخذت بيـــده قائلا العبارة الآتية :

(تفضل يا شيخ شملان أنت كالحصان الاصيل عند الشواوي) [1] .. فيقول : جئت به الى مكاني الخاص وأكرمت مثواه وكان ذلك كما أشرت في عـــام ١٣٦٠ هـ ..

ويؤكد القاضي انه لم ير شملان بعد ذلك إلا في الكويت بعد مضي أربع سنوات وذلك في مناسبة جاء بها القاضي الى الكويت كمندوب من قبل الحكومـــة السعودية ، ويقوم بعمل المساعد التجاري وهو ما يعبر عنه بالملحق التجاري ..

وفي اللحظة الاخيرة التي كان فيها القاضي على اهبة الاستعداد للسفر الى بلاده منتهياً من مهمته .

كان يظن أنه يريد أن يأخذ منه واذا به يريد أن يهبه

وقف شملان بجانبه وقال :

– إنني أريد منك يا بني حاجة ما ،وأود ان لا تردني خائباً ..

---

١ – الشواوي الذين لا يعرفون الخيل الأصيلة . أي انك كالجوهرة عند من لايعرفها :

يقول القاضي : لما كنت أعرف ان اوضاع الرجل المالية متدهورة فإنني لم اشك قطعياً إلا انه يريد ان يستدين مني ،ولذلك شعرت ساعتذاك بعاملين يغمران كياني وكلاهما متضاربان : العامل الاول هو سروري عندما قصدني هذا الرجل الكريم دون غيري لاعتقادي ان نفسه العظيمة لا يمكن ان يذلها لأحد الا لأفذاذ الرجال الذين يعتقد فيهم المروءة . والعامل الثاني هو انني خشيت انه سوف يطلب مني ان اقرضه مبلغاً من المال اكثر من الرصيد الذي املكه .. ويقول القاضي : وبين هذين العاملين وجدتني بحيرة من امري واخيراً مددت يميني له وقلت :

– أبشر بموافقتي سلفاً على مـــا تطلبه مني فيم اذا كنت استطيع ان اقوم بطلبك على الوجه الاكمل ..

فقال الشيخ :

– لقد طوقت عنقي بمعروفك الذي لا يمكن ان انساه مدى حياتي ، وذلك عندما اخذت بيدي وقلت لي تلك الكلمة التي كلما اذكرهـا اشعر بنشوة تهيمن على كياني ، ولهذا اود ان تقبل مني يا بني هذه الهبة التي اجدني بغنى عنها وانت كموظف راتبك محدود قد تكون بحاجة اليها وهي عشرين الف روبية ..

يقول القاضي : انني لم استغرب هـــذه المروءة من شملان ، ولكن موضع استغرابي هو انني اعرف ان الرجل صفر اليدين من المال ..

الفضل كله يعود لصديقي الوفي

ويؤكد القاضي بأنه شكر الشيخ واقسم له انه ليس بحاجة لشيء من ذلك ، وانما الشيخ الذكي ادرك بفطنته ما يدور في مخيلة القاضي من الاستغراب وعلامات

الاستفهام الخفية ولذلك بادر شملان القاضي قائلاً له :

– قد يقول لسان حالك يا بني ان شملان تقلصت ماليته ، فمن اين له هـذا المال الآن ؟..

ثم مضى الشيخ بحديثه الى ان قال : حقيقة ان مالي ضـــاع من بين يدي ، ومستني الحاجة واصبحت فقيراً بعدما كنت ثرياً ، ولكن الفضل كله يعود لصديقي الوفي الشيخ يوسف [1] بن عيسى القناعي الذي جبر عثرتي وواساني بنفسه وأعاد الي اعتباري وذلك بنجدته الفذة ..

وراح الشيخ يروي المروءة التي قام بها صديقه يوسف القناعي فقال :

– عندما مررت بك حاجاً الى بيت الله الحرام كانت اوضاعي الاقتصـــادية متدهورة ، وعندما عدت من مكة الى اهلي وجدت منزلي مملوءاً بالسكر والشاي والقهوة والهيل والاقمشة الخ .. فسألت الأهل لمن تكون هذه البضاعة فقيل انهـا ليوسف القناع،ولما كان بيني وبين القناع صداقة ارتفعت فيها الكلفة، فقد ظننت انه اراد ان يؤمن عندي هذه البضاعة الى ان يحين الوقت الذي يأتي فيـــه زبون يشتريها منه ، وعندما طالت المدة ذهبت اليه فقلت على سبيل المداعبة :

– لقد مضى على بضاعتك مـــدة طويلة في منزلي فما عليك الا ان تدفع لي الارضية والاجرة معاً ..

فصمت القناع قليلاً ثم ابتسم وقال :

– أرى ان تتصرف في جميـع ما عندك من البضاعة مقابل الاجرة ..

---

١ – يوسف القناع من اهالي الكويت ، وحتى كتابة هذه الاسطر وهو على قيد الحياة ، وكان يعمل رئيساً لمحكمة التميز في الكويت .

يقول شمـــلان : كنت اظن أن حديث صاحبي كله مزاح بمزاح ولكنه عاد وقال :

- ان كل مـا في منزلي من البضاعة انما هو ملك لك انت بالذات ، لانني منذ مدة طويلة فرزت رصيداً معيناً من ماليتي ونويت ان اضعه بأسمك وان ابيع فيه واشتري كتجارة لحسابك ، فكانت النتيجة ان نمت تلك التجـــارة وتبار كت حتى بلغت الذروة ، ومـا هذه الاشياء التي في منزلك إلا حق لك لا يشاركك به احد ..

هو صاحب الفضل الاسبق

يقول القاضي : عندما سمعت هذا الحديث من الشيخ شملان بحق الشيخ القناع ذهبت على الفور الى منزل يوسف القناع ورحت اشكره على مروءته التي أسداها الى رفيقه ، فقال القناعي : سامح الله أخي شملان لقد تحدث عني بأكثر من اللازم ولكنه لم يتحدث عن نفسه ، وعن المعروف الذي أسداه اليّ فلو انه قال الحقيقة على وجهها الأكمل لعلمت انه هو صاحب الفضل الأسبق عليّ والذي فعلته لم يكن إلا مقابل الشيء القليل من كثير .. ومضى القناع بحديثه الى ان قال : عندمـــا أوصدت بوجهي جميع أبواب الرزق جاءني الشيخ شملان وقال :

- اريد منك ان تأمر أخاك حسيناً لكي يذهب الى الهند ليفتح مكتباً هناك وأنا بدوري ارسل له كوكيل لي ، يقول فأجبته قائلاً :

- ان المكتب يحتاج الى رأس مال كثير ونحن لا نملك من المـال شيئاً .. فقال شملان :

- فليذهب الآن وقضية المال لا يهمك أمرها فهذا شيء سوف اكون انا المسؤول عنه فيقول الشيخ القناع فذهب اخي الى الهند وظل الشيخ شملان يموله بالمال والمعاملة من عنده حتى يسر الله امرنا وجميع ما نملكه الآن هو فرع من أصل البذرة التي غرس ثمرتها اخي شملان فهو الأصل في رزقنا بعد الله ..

الفصل الخامس

برّ الوالدين وفطنة المرأة العربية

العَيْشُ مَاضٍ فأكرمْ والديكَ بهِ
والأمُّ أوْلى بإكرامٍ وإحسـانِ

أبو العلاء أحمد بن عبد الله
ابن سليمان المعري

القتاة التي طغى برها بوالدها على عطفها بابنها

٣١

كانت القاعدة المألوفة تشير الى ان الفتـاة متى ذهبت من بيت ابيها الى بيت بعلها فمعنى ذلك انها ارتبطت بنسب زوجها واصبحت محسوبة من اسرة الزوج،اما إذا انجبت من بعلها ذرية فعندئـذ تكون انقطعت صلتها نهائياً بوالدها واهلهـا واصبحت صلتها ببعلها واهله صلة وثيقة لا تنفصل ..

وكثيراً ما نرى صحة هذه القاعدة في تاريخ ارتباط النكاح المشروع ، فنرى مثلاً فتاة ما انكحت من رجل من غير اسرة اهلهـا او من غير رجـال قبيلتها ثم حدثت خصومة وشقاق بعد عقد النـكاح بين اهل الفتاة وبين بعلها ، فكثيراً مـا نسمع ونرى ان الفتاة تميل مع بعلها اكثر من ميلها مع اهلهـا ، خاصة إذا انجبت منـه ذرية واصبحت رابطة الالفة والنـكاح قوية بين الزوجين .

وكنا نظن ان هذه القاعدة مطردة لا تؤثر عليها عاطفـة الوالدين .. ولكن سرعان ما اتضح لنـا خطأ ما كنا نتصوره ..

وذلك في مناسبة حادثة سوف نذكرها في حديثنا هذا ، تلك الحادثـة التي اعطتنا دليلاً واضح المعالم على ان هناك من الفتيـات العربيات من يرين ان الوفـاء

للوالدين والبر بها فوق الرابطة الزوجية بل وفوق عاطفة الام لأبنها ..

وخير المشاهد الناطقه على صحة مـــا اشرنا اليه من صميم هذه القصة الواقعية التالية :

بين عام ١٢٩٠ و١٣٠٠ هـ وقع نزاع بين سالم الشليخي [1] ومبارك بن مغيث وتطور ذلك النزاع من الكلام الى الفعل ، حتى وصل الأمر الى ان طعن احدهما الثـــاني بمديته طعنة بليغة ولكنها لم تصب منه مقتلا .. وكان البادىء بالطعنة الشليخي ..

وحسب العرف المتبع هرب الطاعن الى قبيلة عتيبة المضادة لقبيلة قحطان لكي يكون في حصانة منيعة من يحاول ان يأخذ منه الثأر ..

وكان الطاعن والمطعون كلاهما كما اشرت آنفاً من عشيرة واحـدة ومن بطن واحد وتربطها ببعضها لا رابطة العشيرة فحسب..بل ورابطة المصاهرة وذلك أن ابنة الشليخي الطاعن في عصمة شقيق مبارك المطعون .. وكانت الفتـــاة في وضع حرج جداً بين والدها الذي ذهب شريداً طريداً خوفاً من انتقام بعلها واخيه وبين زوجها الذي هي مرتبطة به برابطة النكاح الشرعي .. وزاد الطين بلة انهـا انجبت من بعلها مولوداً لا زال يعيش على حليب أمه ، فأصبحت الفتـــاة تكافح عاملين كلاهما يتصارعان في صميم كيانها :

- عامل عاطفة الامومة تجاه طفلها الرضيـع ..

- وعامل يحفزها بعنف تجـــاه برها بوالدها الذي ترى انه سبب وجودها بهذه الحياة ..

ظلت الفتاة في حيرة من أمرها بين اختيارها لأحد السبيين ، وبلغت بها الحيرة

---

١ - كل من الشليخي وابن مغيث من قبيلة قحطان ومن فخذ يسمى آل عاصم .

وشرود الذهن درجة أنستها ابنهـــا وأصمت اذنيها عن صياح الطفل الذي اقض مضجع رجـــال ونساء القبيلة في تلك الليلة الماطرة المدلهمة من ليـــالي الشتاء الطويلة ..

كان والد الطفل يتعلل في نادي رئيس القبيلة ويشارك القوم بالاستماع الى قصة يرويهـــا شيخ طاعن بالسن من الرواة المختصين بحفظ القصص الشعبية ، والبارعين بحسن الالقاء .. وكان مصغياً لأحاديث الراوي بكل حواسه .. وفجـــأة قطع الشيخ القصاص حديثه دون أن تنتهي القصة متأثراً بصراخ الطفل المزعج .. كما ان والد الطفل استعـــاد حواسه التي كانت منصبة نحو احاديث الشيـخ ، وتحركت عواطفه نحو صياح الطفل الذي وجده يشبه صياح ابنه .. كما ان رجال الندوة عن بكرة أبيهم تأثروا من صوت الطفل ، الذي يشبه صياح من لدغته افعى . ولكن الوالد كان اكثر القوم انزعاجاً وتأثراً من صوت الطفل ، الذي كلما اصغى اذنيه ليتثبت من الصوت ازداد يقيناً بأن الصوت ليس الا صوت ابنه ..فلم يسمعه إلا ان قفز من النادي وذهب الى بيتـــه .. وكان يسير في بداية الأمر سيراً طبيعياً ، ولكنه كلما ازداد قربـــاً من بيته ازداد يقيناً بصحة حدسه بأن الصراخ صراخ ابنه .. فبدل مشيه المعتاد بالهرولة ثم بالقفز كالمطرود.حتى وقف على الحقيقة فوجد ابنه يصيح صياحاً يتفطر له أقسى القلوب غلظة.. ويتقلب على بطنه تارة وعلىظهره أحياناً ويتخبط الارض بساقيه الطريتين.. فخطفه ووضعه على ذراعيه وراح يسأل عن أمه وقد اخذته روعة منظر الطفل عن رؤيته لزوجته التي كانت بجانب الطفل جالسة ولكنها شاردة الذهن فكأنها في سبات عميق ولم تفق من ذهولهـا وحيرتها حتى صاح بهـا بعلها بعدما استرد شيئاً من ذهوله هو الآخر ونظر اليهـا فوجدها صامتة كأنها تمثال من تماثيـــل دكاكين الاقمشة في المدن الكبرى لم يتحرك منها شيء ابداً حتى بصرها كان طافحاً شارداً كأنها في عالم غير عالم الاحياء.. فدنا منها ووضع كفه الايمن على رأسها بينما كان ضاماً ابنــه الى صدره بذراعه الايسر وقد تضاعف بكاؤه وازداد صراخه ثم شد رأس زوجته بعنف صارخاً بها قائلاً :

ـ يا فلانة .. مالك .. فكأنه يوقظها من سبات عميق ، فأشاحت بوجهها عنه بعدما اتخذت قرارها النهائي ولم يكن للحيرة والموقف الوسط المذبذب أي مكان في قلبها الوفي البار بوالدهـــا الذي استولى على كيانها، الأمر الذي جعلها تضحي بكل غال في سبيل رضاه حتى ولو كان فلذة كبدها البكر الوحيد.. فشعر زوجها ان حليلته تتعمد تحديه وتتجاهل وجوده فصرخ بها ثانية :

ـ ألا تسمعين ؟ ..

ـ بلى أسمع وأرى ..

ـ ألا تسمعين صراخ ابنك اللديغ ؟..

ـ أجل ، ولكنه ليس باللديغ كما تظن ؟..

ـ اذن ما باله يصيح ؟..

ـ لأنه جائع يريد الرضاع ..

ـ ولماذا سهوت عن رضاعه ؟..

ـ لم أنسه بل تركته عامدة متعمدة ولن يرضع ثديي البتة ..

ـ أبك جنة ؟..

ـ كلا بل انني سليمة العقل والحواس ولله المنة وانما رأيت أن من العقل والوفاء والبر بأن اهجر الابن الذي كان ابوه وعمه جملا والدي يهجرني ويهجر أهله وقبيلته ويجلو شريداً طريداً ..

ثم صمت قليلًا وقبل أن ينتهي بعلها من جوابه لها الذي بدأه بقوله :

ـ ألا تعلمين ان والدك كان البادىء باعتدائه على أخي ..

فقاطعته الحديث قائلة :

ـ أجل لقد اخذت على نفسي عهداً بأن لا ارضع ابنك لأن اباه وعمه لم يكن لديها من التسامح والعفو اللذين هما من شيمة الكرام ما يجعلانها يغفران هفوة جده ..

وقد توقفت قليلاً تكفكف دمعتها التي انحدرت على خديها كحب اللؤلؤ المنفرط من سلك الحرير ، ثم قالت :

ـ ان الولد الذي ينحدر من هذه العائلة العاقة الجافية التي لم يفكر رجالها يوماً من الايام بالحلم والعفو عن والدي بقدر ما يفكرون بعقابه والانتقام منه جدير بالجفاء وخليق بالعقوق والحرمان ..

وجم الرجل قليلاً ثم ذهب الى اخيه حاملاً ابنه الذي لا زال يوالي صراخه المفجع ..

وكان الليل قد مضى منه ثلثاه وكان أخوه قد تدثر بلحافه السميك .. ولكن صراخ الطفل قد أيقظه من سباته قبل ان يوقظه اخوه .. فراح يشعل النار مقابلاً أخاه بالتحية التي تلتها حروف الاستفهام المترادفة :

ـ مال ابنك يا أخي ؟.. عسى ان لا يكون لديغاً .. أهو الذي كان يصرخ من أول الليل .. حتى قطع علينا القصة الشيقة التي رواها لنا الشيخ فلان ..

ـ أجل هو ابني ولكنه لم يكن لديغاً كما تظن وكما خيل إلي سابقاً عندما سمعت صراخه في أول الامر ..

ـ اذن لا بد ان يكون مريضاً .. ما أسوأ مرض الاطفال ..

فقاطعه اخوه قبل ان يزيد على كلمته التي اشار بها الى قوله ان الطفل اذا مرض مرض والده فقال :

ـ ان ابني لم يكن مريضاً ولكنه جائع ..

ـ جائع .. أين والدته ؟..

ـ الحديث عن والدته طويل وطويل .. وسوف اشرح لك امرها بعدما تأخذ طفلي وتسله لزوجتك لترضعه ..

ـ أنا لا أحب ان يكون بين ابنك وابنتي رضاع خشية من المستقبل الذي يجعل القران بينهما محرماً ..

ـ نحن الآن في حالة ضرورة والمستقبل لا يعلم ما وراءه إلا الله ..

اخذ العم ابن اخيه وسلمه لحليلته التي هي الاخرى أيقظها من رقادها صراخ الطفل ثم عاد لأخيه ليستفهم منه خبر زوجته ..

وقد بدأ أبوالطفل يشرح لأخيه الرواية بينما أخوه مصغ لحديثه بجميع حواسه ولكن صراخ الطفل كان يستثير عاطفة والده فيقطع الحديث بين كل كلمة وجملة ويسأل أخاه قائلا :

ـ أرى الطفل ما زال صراخه مستمراً ..

فيهدىء أخوه من روعه بقوله :

ـ سوف يسكت الآن وينام بعدما يرتوي من الرضاع .. فيمضي والد الطفل يواصل قصة زوجه ثم يصمت برهة مصغياً الى صراخ الطفل الذي أخذ في الازدياد.. وكان أخوه مبارك قد استوعب قصة الزوجة وان كان ابو الطفل لم يصل بالقصة الى نهايتها بسبب صياح طفله الذي شتت عليه افكاره وبعثر حواسه ..

ذهب مبارك الى زوجته لينظر ما هو سبب بكاء الطفل بعدما ارتوى من الرضاع على ما يظن.. وقبل ان يسأل مبارك زوجته قاطعته امرأته قائلة :

ـ ان الطفل رفض ان يرضع مني بل ولم يقبل ان يضع ثديي بفيه رغم محاولتي اليائسة ..

فعاد إلى أخيه لا ليخبره بأن طفله رفض الرضاع وإنما ليؤكد له بأنه قد تجاوز وعفا عن والد الفتاة الذي طعنه .. فقال مبارك ..

– هيا بنا الى امرأتك ..

– ماذا تريد منها ؟..

– لأعطيها عهدالله بأنني قد تنازلت عن ثاري الذي أدين به والدها واؤكد لها بأنني سوف اذهب غداً الى قبيلة عتيبة لأعلن لوالدها تنازلي عن حقي ولن أعود حتى يكون أبوها بجانبي .. ما رأيك بهذه الفكرة ؟..

– الأمر عائد اليك فأنت صاحب الحق فإذا عفوت فهذه شيمة وفضيلة منك.. ثم انت الأخ الاكبر فالذي تأمرنا به سوف لا نخالفه ..

– أرى ان تذهب الان الى زوجتك وتخبرها بالحديث الذي يسرها طبعاً ..

– فلنأخذ الطفل معنا ..

– دع الطفل الان عند زوجتي وسوف تأتي والدته نفسها تحمله وتكفينا أمره ..

ذهب الاخوان الى المرأة البارة وما ان رأتها حتى أيقنت انها نجحت بفرض إرادتها فبادرها مبارك قائلاً :

– يا ابنة فلان .. لقد تضاعف قدرك واحترامك عندنا بعد موقفك هذه الليلة مضاعفة فوق ما تتصورينها .. فصمت قليلاً ثم واصل حديثه قائلاً:

– اعاهدك الله انني قد عفوت عن والدك كما اعاهدك الله ثانية بأنني سوف اذهب غداً اليه ولن أعود حتى يكون بصحبتي ..

– هذا ما ينبغي ان يعمل به كريم من امثالك ولست استغرب ذلك منك وانما استغرب منك عكس هذا..

– ألا تذهبين معنا لتأخذي طفلك ؟..

– بلى ..

ذهبت الزوجة الى بيت حماها وأخذت طفلها وأرضعته ونام الطفل بعد ذلك

نوماً لذيذاً كما نامت والدته وهي قريرة العين عامرة الوجدان راضية عن نفسها بارة بوالدها ..

وفي الصباح الباكر ذهب الاخوان الى قبيلة عتيبة ولم يعودا حتى عاد معهم ابو الزوجة ..

وعندما وصل اهله وذويه ووجد ان اصدقاءه الذين كان يعتقد فيهم الوفاء قد جفوه بعدما ابتلي بمحنته التي اضطرته الى الجلاء والتشريد، كما وجد ذويه الاقربين لم يواسوه بغربته ولم يسألوا عنه .. عند ذلك راح يفكر ويفكر .. ويعبر عن افكاره وما يختلج في نفسه بقصيدته التي جاء منها قوله :

الله يلومْ خويلدِ وابن دِرعانْ
لومٍ مهم وورقْ الحَمايم ُتغني

ما ساعدوني يوم تفريق الاضعان
تجالدوا يوم الذيابةً عوني

الشرح : يلوم الشاعر بعض أفراد قومه الذين لم يتوسطوا له بالصلح مع أبناء عمه .. وهذا ما قصده في البيت الاول ، وأما في البيت الثاني فإنه يقول ان هؤلاء النفر تخلوا عني في أبان محنتي يقصد عندما أراد أن يجلو عن أهله وقبيلته فيقول لقد تركوني في الحين الذي كثر فيه اعدائي حتى أصبحوا كالذئاب المفترسة ..

اقطعْ رفيقٍ لي الى صِرتْ َطربانْ
والا على ُالشدّاتْ ما هو مني

يقول : ألا قبح الله الصديق الذي يتظاهر بالوفاء والاخلاص بأيام السلم

والسرور والطرب بينا هو بالشدائـــد والمحن سرعان مـا يتخلى عني كأنه لا يعرفني ..

إذا احتملت فهو من الثـِّيلِ عريانٌ
وإذا احتمل مني العيون اسهرني

يقول : ألا قبح الله الصديق الذي إذا أصابتني مصيبـــة لا يعبأ بمصيبتي ولا يعيرها ادنى اهتمام .. بينا أجدني إذا أصابته مصيبة لا أبيت الليل من همـه حتى اشعر انني اشاركه بآلامه وبؤسه وأحزانه ..

اذا كان لك يد على الكرام فلا تخف

- ٣٢ -

كان الزمان الذي عاشته أمة العرب خاصة في الزمان الاول قائماً على الأمور المعنوية أكثر من قيامه على الماديات ،وحياتهم الأدبيةوالأجتماعية كلها تثبت صحة ما أشرت إليه بأدلة لا يعتريها شك ولا ريب ..

ولئن بدأت تلك الناحية تتقلص مع الأسف في بعض البلاد العربية فإنها في صميم جزيرة العرب إذا لم أقل انها سارية المفعول إلى يومنا هذا فإنني لا أستطيع أن أقول أنها اضمحلت نهائياً لأنني تركت البلاد منذ مدة لا تقل عن ثمانية عشرة سنة من تاريخ يومناهذا ١٧-٧-١٣٨٤ هـ -٢٧-١٩٦٤ واعني أنني تركت السكنى بين تلك الاحياء الشعبية وأبعدت عن معرفة الحياة الأجتماعية وأصبحت من تلك المدة بعيداً كل البعد عما كنت اعرفه عن حياة قومي عن كثب كما كنت سابقاً وهذا ما يجعلني أزداد تأكيداً بأنني لا أستطيع أن احكم الحكم الفاصل في كلتا الحالتين ، فلا اقول أن جزيرة العرب اصابتها العدوى التي أصابت بعض البلاد العربية كما أنني لا أستطيع القول أيضاً بأن سكانها ظلوا متمسكين حتى الآن ، بعاداتهم وشيمهم التي ورثوها منذ فجر التاريخ ، ولكن الشيء الذي استطيع أن

اثبته بالأدلة الأكيدة وهو أن الأخلاق التي عرفت بها العرب منذ العهـد الجاهلي وما قبله تلك التي قامت على احترام المعنويات اكثر من احترامهم للماديات ، هذه الاخلاق ظلت سارية المفعول بصورة ملحوظة الى عهدنا القريب الى درجـــة أن النساء المخدرات اصبحن يدركن هذه الظاهرة بالبديهة ، واليك الدليل القاطع على صحة ما أشرت اليه :

كان ذلك في عام ١٢٨٩ هـ عندما قتل محمد العبد الله الرشيد أبن أخيه «بندر» امير حائل ، ولا أراني بحاجة الى شرح الأسباب والحوافز التي دفعت محـمداً الى ذلك ، فتلك امور أشار اليهـــا المؤرخون الذين كتبوا عن تلك الحقبة من الزمان ..

وشاهدنا هنا ما نقله اليّ المرحوم سلمان بن رشدان [١] يقول ابن رشدان أن مصرع بندر على يد محمد كان مفاجئاً لنا نحن اهل البلاد بشكل عام ، كما كان بلا ريب مفاجئاً لاخوته وزوجه بصورة مذهلة .والسبب على حد قول الراوي أن اهل البلاد كانوا يعرفون أن محمداً سافر في مهمة ما ، ولكن القضاء والقدر اخلف ظن الجميع وذلك أن المسافر قدم في الحين الذي كان أمير البلاد بنـــدر خارجاً عن البلاد قاصداً موقعاً قريباً من البلاد يسمى (الحريمي) لا يتجاوز خمسة كيلومتراً يتنزه فيه ويغرس مشاتل النخل في أرضه الخصبة ،وفي قدوم المسافر محمد من سفره وخروج الأمير بندر الى نزهته حدث الامر الذي لم يكن بالحسبان والـذي كما اشرت لا أريد شرح اسبابه ومسبباته ، المقصود أن محمداً قتل بندرا خارج البلاد، وكان حمود العبيد أبن عم محمد حاضراً عملية التنفيذ ويؤيد محمداً ضمنا بقتله لبندر ، وكان أخوة بندر الاشقاء ستة وهم بدر وسلطان ومسلط ونهار ونايف وعبد الله بينما

١ – سلمان بن رشدان ورد اسمه والتعريف عنه في اكثر من موضع من كتابنا هـــذا ..

كان محمد لا أخوة له ولا أبناء ايضاً بصفته عقيا ، الامر الذي جعله لا يستطيع أن يقدم من فوره على احتلال قصر الامارة الذي يقيم فيه اخوة الامير المقتول فذهب وقصد جبلاً يشرف على مدينة حائل وملاصقاً لها الغاية .. سمي (تَغَيرف) وهو في ذهابه هذا يريد أن يعرف ماذا يلاقيه من موقف الرأي العام الشعبي ، فإن وجدتأييداً شعبياً اقدم على قصر الحكم وأن لم يجد مضى فيسبيله لينجو بنفسه ،أما أبن عمه حمود فقد ذهب الى قصر الامارة بحكم انه يسكن في الجانب الشمالي منه وراح يعد العدة لمؤازرة محمد ..

فطنة وذكاء وبعد نظر

فذهب يفرق السلاح على حاشيته ، ويهيء نفسه للطوارىء ، اما أخوة بندر فلم يعرف أحد منهم ماذا حصل لأخيهم القتيل ، ولم يكن لديهم من الفطنة ما يجعلهم ينظرون الى ما يقوم به جارهم حمود من تفريق السلاح على حاشيته ومن الاعمال التي تدل على الريبة منه وعدم الاطمئنان اليه ، لا لم ينتبه اخوة الامير القتيل لهذه الناحية وانما الذي انتبه اليها ولاحظها بدقة زوجة الأمير بندر المسماة (نمشه) أبنة بن علي والتي هي محور قصتنا هذه ..

فهذه المرأة عندما رأت حمود العبيد يفرق السلاح والعتاد على رجاله وجهت سؤالها التالي الى بدر شقيق بندر القتيل قائلة :

– أين شقيقك الامير ؟.. فرد عليها قائلاً :

– خرج للنزهة الى (غريسه) .. فقالت :

الا ترى أن مجيء حمود قبل الامير وتفريقه السلاح على حاشيته واغلاقه لباب

القصر الا تشعر أن كل هذه الامور من شأنها ان تدخل الشك والريبة وتجعلنا نفترض شتى الاحتمالات السيئة ؟..

وعندئذ استيقظ بدر من غفلته وقال :

- كل ما اشرت اليه حقيقة وما علي الآن الا أن اذهب الى اخوتي وحاشيتي لنتخذ الاجراءات اللازمة لمواجهة الطوارىء وشتى الاحتمالات .

فقالت المرأة الذكية :

- فلنفرض أن شقيقك الامير قتل ، ثم مضت وقالت : وهب ان هذا الافتراض حقيقة واقعية لا تقبل الجدل فقل لي من الآن كم عدد الرجال المواطنين الاوفياء الذين استطعت أن تضع في اعناقهم معروفاً معنوياً لكي يقفوا بجانبك فيما اذا دعتك الحاجة الى مؤازرتك في ظروف حرجة كهذه .. فقال :

- كنت اذكر انني شفعت عند الامير بصالح الجراد [1] في مناسبة ما .. فقالت :

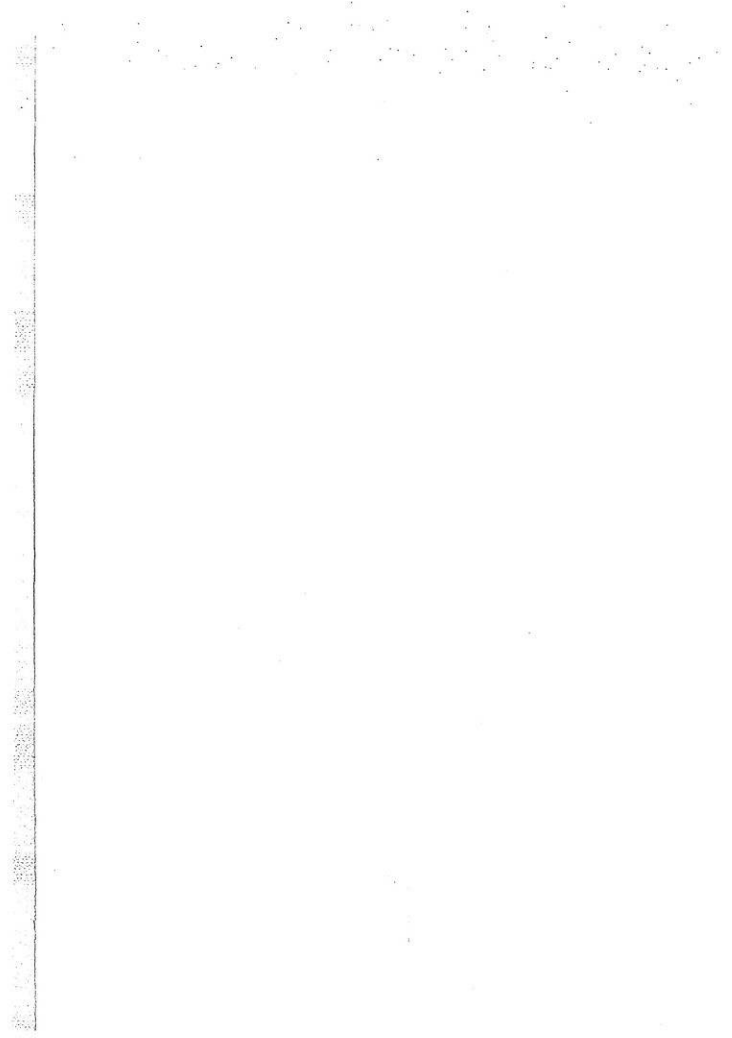
اذا كان الامر كذلك فهذا دليل على أنه لم يكن لك منن في اعناق الرجال الكرام الا بصورة فردية محدودة ، وهذا يعني انني سوف اعتقد جازمة انك لن تجد من يناصرك او يربط مصيره بمصيرك في هذه الساعة الحرجة المجهولة المستقبل ..

وأخيراً جاءت تقديرات تلك المرأة موافقة طبق الاصل لما توقعته ، وذلك انه عندما علم المواطنون بصرع الامير بندر على يد عمه محمد ، لم يكن وقتها لدى شقيق المقتول أي رصيد شعبي يمكن ان يعتمد عليه في ساعته تلك الحرجة ، وكل

---

١ - انظر ص ١١٧ ج ١ من شيم العرب الطبعة الثانية للمؤلف .

ما في الامر ان جاء اليه عدد قليل جداً من المواطنين وفي مقدمتهم ذلك الرجـل الذي شفع له عند الامير المدعو صالح الجراد وظل بجانبـه الى اللحظـة الاخيرة ، وبالتالي انتهى الامر بتخلي المواطنين عنه هو واخوته الستة الـذين لم يكن لهم في اعناق الرجال الفضلاء من المعروف ادنى شيء يذكر فكانت نهايته كنهاية أي حـاكم لا يحسن سياسته باختياره للرجـــال الكرام ذوى المروءة والفضـل والوفـــاء ..



الفصل السادس

أفعال البر والسخاء المحمود

« كما أن السؤال يذل قوما ... كذلك يعز قوم بالعطاء »
علي بن الجهم

باعث نهضة ومعلم جيل

-٣٣-

قد يخيل لقارىء هذا العنوان انني أقصد بذلك منه أكبر منزلة سياسية واجتماعية من صاحبه الحقيقي ، ولكن الذي يعرف صاحب الترجمة ، يدرك للوهلة الاولى ان العنوان المشار اليه اعلاه مطابق كل المطابقة للاعمال التي قدمها هذا الرجل لأمته بكل تفان واخلاص ..

والرجل الذي أعنيه هو محمد علي زينل رضا [1] صاحب الاعمال الجبارة التي لا يستطيع القيام بها الا من وفقه الله لضمير يتجاوب والقيام بمثل تلك الاعمال التي سوف يبقى ذكرها خالداً الى الابد ..

وحيث انني لا اعرف الرجل شخصياً ، كما انني لا اعرف أعماله التي قام بها الا بصورة اجمالية لذلك رأيت انه من الانسب ان اكتب رسالة لكل من الشيخ محمد نصيف الذي عاصر الرجل ولابن عمه الشيخ أحمد يوسف زينل طالباً منهما أن يوضحا ما يعرفانه عن الشيخ محمد علي زينل خاصة بما له علاقة

---

١ - لما كانت اسرة زينل بين رجالها اسمين متشابهين : فانه يطيب لي بأن اوضح للقارىء بأنني اقصد بذلك محمد علي زينل مؤسس مدرسة الفلاح صاحب الاعمال الانسانية والاجتماعية، لا محمد علي زينل الذي كان اول وزير للتجارة في المملكة العربية السعودية . والذي يعمل حالياً سفيراً للملكة العربية السعودية في الجمهورية العربية المتحدة . لا لم اقصد هذا وانما اقصد الأول .



الشيخ محمد علي زينل

لو كنتُ أعبُد فانيا في ذا الدُّنا ... لعبدتُ من دون الاله المحسنا

وجعلت قلبي مسجداً لتعبدي ... سراً وفهت له بشكري مُعلنَا

كي لا أكون مرائياً بعبادتي ... ولكي أكون بشكره متفنّنَا

في مجتنى غرس الخليقة لم أجدْ ... غرساً سوى الإحسان حلْوَ المجتنى

بينا هو يغدو للنفوس مقيداً ... بالحب ، يطلق بالثناء الألسنا

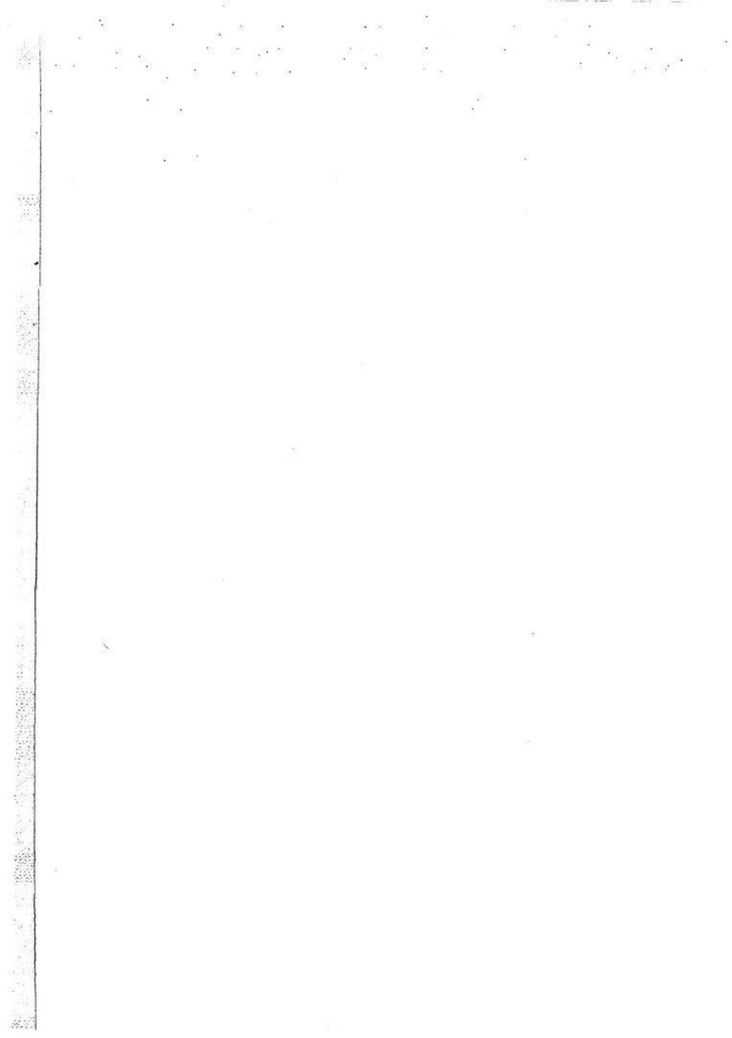
يستعبد الأحرار وهو صنيعهم ... ويرد بغض المبغضين تحننا

ما أن تظلّلَ موطن بظلاله ... إلا أعز الله ذاك الموطِنا

لا يحسنُ الإحسانُ إلا « هكذا » ... قد صار طبعا للنفوس وديدنا

والمال أن جادت به يدُ محسن ... حسَنٌ وإلا فهو بئس المقتنى

معروف الرصافي



بقيامه بمشروعه الذي شمل نفعه جيلاً بكامله ..

فجاءني الرد من الشيخ محمد نصيف والاخ احمد زينل في آن واحد ..

ويسرني ان اقدم رسالتيهما للقارىء كما وردتا بنصها الحرفي ،

وهذه رسالة الشيخ نصيف :

من جده في ٣ جمادى الاولى سنة ١٣٨٣ هـ ٢١ سبتمبر ايلول ١٩٦٣.

الى انقره

حضرة الفاضل الاستاذ الشيخ فهد المارك المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وصلني كتابكم وسرني دوام صحتكم . أدام الله على الجميع نعمه .. ومطلوبكم :

الافادة عن سنة تأسيس مدارس الفلاح وصورة مؤسسها الشيخ محمد علي زينل علي رضا وصورتي فها كم البيان :

الصورتان . وان الحاج زينل علي رضا أو زين العابدين بن علي رضا وفـــد من الخليج العربي ،من أهل السنة .

وأهل فارس يختصرون زينل من زين العابدين . وأصلهم من العرب والخليج العربي كلهم من العرب .وان كان يتكلمون الفارسية فارسيتهم ركيكة .ويتكلمون العربية أجود من الفارسية . وأصلهم من أولاد الصحابة ومن الانصار .

الشيخ محمد علي بن زينل بن علي رضا

مؤسس مدارس الفلاح بجدة ومكة .

الشيخ محمد علي بن زينل علي رضا أسسها في عـام ١٣٢٣ هجرية يوافق في زمن الحكومة العثمانية .

أول تأسيسها كانت مدارس صغيرة في جدة لتحفيظ القرآن وعلوم الدين والخط والحساب وأول ابتدائها ٢٠ تلميذاً ثم كثروا فصـار عدد طلبتها في مكة نحو الف طالب وفي جدة نحو الف وأدخل غير اللغة العربية اللغة العثمانية لغـة الدولة تدرس في مدارس الفلاح .

محمد بن عبد الله بن علي رضا وزير التجارة سابقاً في الحكم السعودى هو ابن عم الشيخ محمد علي زينل علي رضا ..

عبد الله بن علي رضا كان قائمقام جدة في الدولة الهاشميـة زمن الشريف الملك الحسين بن علي ملك الحجاز الذي كان أمير مكة زمن كان الحجاز تابعاً للاستانة ثم صار الشيخ عبد الله قائمقام جده زمن الحكم السعودي الى أن مات .

مؤسس بيت زينل التجاري بجده هو الحاج زينل بن علي رضا وكان شريكـه أخوه الشيخ عبد الله فصارت العائلة تعرف بآل زينل أو بيت زينـــل .. وكان للحاج زينل ولد أكبر من محمد علي يدعى قاسم بن زينل عضوا في البرلمان العثماني في استانبول في أول سن الدستور أو المشروطيه ..

لما توسعت مدارس الفلاح وكثر فيها الطلاب صار يدرس فيها فقه المذاهب الأربعة السنية..وكان غالب الطلبة شافعية واثنان حنفية واثنان مالكيـة واثنان حنابلة .. وكان مدرس الحنفية الشيخ احمد بن طه رضوان مأمور الويركو ومن علماء جدة وكان يدرس ــ لولديه . وكان مـدرس الفقه المالكي والحنبلي الشيخ محمد بن حسين ابراهيم وكان الطلبة اثنين مالكية واثنين حنابلة وكان مدرس اللغة العثمانية الاستاذ شكري الجندي من أهل حمص بسوريا والآن محامي في بـــلده . وكان من موظفي الحكومـــة العثمانية معلمان سياران لهما حصة في المدرسة لتعليم

الطلبة ثم سافروا إلى استانبول فاحضر بدلاً عنها السيد شكري الجندي معلماً دائماً من أول النهار الى آخره يعلم اللغة وغيرها ..

وكتبه : محمد نصيف ..

واليك الرسالة الثانية :

حضرة الأخ الكريم الشيخ فهد المارك حفظه الله

تحياتي الطيبة وتمنياتي أن تكونوا بأتم الصحة والعافية وبعد :

تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٠ – ٩ ١٩٦٣ بشأن استفساركم عن بعض النقاط الخاصة بمدارس الفلاح ويسرني أن أجيبكم عليها فيما يلي :

١ – تاريخ الافتتاح : تأسست مدرسة الفلاح بجدة سنة ١٣٢٣ هـ .

٢ – تأسست مدرسة الفلاح بمكة سنة ١٣٣٠ هـ .

٣ – صرف الحاج محمد علي زينل على هذه المدارس من جيبه الخاص بجميع ما يلزمها الى نهاية عام ١٣٥٤ هـ أي مدة تزيد عن ربع القرن .ولما حالت الأزمة المالية العالمية دون مواصلة الصرف الكامل على المدارس ترك لهـا ربع عقاره في مكة وجدة لتكمل به مصروفاتها وذلك مستمراً الى الوقت الحاضر ..

٤ في سنة ١٣٤٨ هـ بعث الحاج محمد علي زينل بعثة من الطلاب الى الهند على حسابه الخاص عددها عشرون طالباً نصفهم من مكة ونصفهم من جدة ..

راجياً أن تكون هذه الأجابة طبقاً لما استفسرتم عنه .

وتفضلو بقبول وافر تحياتي .

الأمضى

احمد يوسف زينل علي ويضا

هاتان الرسالتان أوردتها بنصها الحرفي دون أن أغـــير أو أبدل بها شيئاً قطعياً ..

والذي تجدر الاشارة اليه هو أن محمد علي زينل لم يكن عمـــله محدوداً على ما أشار اليه صاحبا الرسالتين نصيف واحد ، بل أنه افتتح مدرسة في الهند على نفقته الخاصة لابناء العرب الموجودين هناك .. وهذه الحقيقة لم اكن أعرف عنهـا شيئاً لولا انني اجتمعت بمحض الصدفة بالشيخ قاسم مخدوم الذي التقيت بـــه في انقرة وأفادني بأنه كان في الهند يعمل مدرساً للغة العربية للطلاب العرب الذين يدرسون في مدرسة الشيـخ محمد علي زينل على نفقته الخاصة ..

... وبعد : فإنني اعتقد جازماً أن العمل الذي قام به زينل وأن كانت فائدته محصورة على ذلك الجيل المعاصر من أبناء المنطقة الغربية ولكنه فيا بعد أفاد شبه الجزيرة العربية بكاملها خاصة بعد أن وحد البلاد المغفور له الملك عبد العزيز وذلك أننا نجد الاكثرية الساحقة من الذين تولوا مهام الأعمال في الدولة من الشؤون المالية الى ادارة التعليم الى ادارة الجمارك الى الذين برزوا بالأدب والصحافة كل من هؤلاء واولئك كانوا متخرجين من تلك الدوحة التي تعهد تأسيسها والعناية بها محمد علي زينل .. ولم يتخل عنها حتى أتت اكلها لذيذاً شهياً .. ومما لا شك فيـه انه لولا وجود هذه النخبة المتخرجة من مدارس الفلاح التي افلح محمد زينل بإنشائها لولاها

لما وجد في المملكة من يقوم بمهام امور الدولة المتحدة البكر خاصة عندما تم اتحاد المنطقة الغربية بالمناطق الاخرى في المملكة كالشرقية والشمالية والجنوبية ، فكل من هذه الجهات كان ساكنوها شبه أميين لعدم وجود مدارس على الطرز الحديث أو بالأحرى لعدم وجود رجال لديهم من الوعي الحديث والامكانيـــة الفكريه والمادية ما هو موجود عند محمد علي زينل الذي قام بهذا العمل الجليل الذي سيبقى خالد الذكر وتعترف له بالفضل الاجيال القادمة مدى الدهر .. لقـد كان هـذا المجاهد الجليل قدوة حسنة لا في عمله هذا الذي أنشأ به جيلاً وافاد به وطنه بشكل عام فحسب بل كان قدوة صالحة حتى بأقواله الحكيمة وآرائه السديدة .. ولقـد احسن اليّ بتوجيهاته الرشيدة وحكمته المأثورة بدون أن يعلم ، وذلك انـه كان لي الشرف بقيام بمشروع انساني ، وكم عانيت من العقبات والمشاكل التي كدت بسببها أن اتخلى عن القيام بذلك العمل الذي لا اذكر بحياتي انني وفقت لعمل ما كتوفيقي لذلك العمل المتواضع [1] ولكن كلما وهنت عزيمتي وفترت همتي واوشكت أن ادع ذلك العمل الطيب بسبب ما عانيته ولاقيتـه من مشقة ونصب ومصائب لا يعلمها الا الله أقول كلما تأهبت للهزيمة وشئت ان افر هارباً ، قبل ان أتم عملي عند ذلك اذكر كلمة لمحمد علي زينل رويتها عن المرحوم الشيخ عبد العزيز بن زيد ، وحينما اذكر هذه الكلمة استرد شجاعتي من جديد واشعر بحافز يشحـذ همتي ودافع يلهب عزيمتي وايمان يقوى ارادتي ، ومن ثم استمر بعملي شوطاً بعيد المدى وهكذا دواليك .. كلما شئت ان استسلم للهزيمة واليأس ذكرت كلمة زينل تلك الكلمة التي هي صالحة لأن تكون نبراساً حياً يقتدى بانواره كل من أراد ان يعد نفسه للاعمال الشاملة النفع في كل زمان ومكان ..

والكلمة من حيث لفظها وجيزة الغاية ولكنها من حيث المغزى لها الف معنى

---

١ – هو انشأ مؤسسة لجمع الأيتام المغتربين السوديين في دمشق .

ومعنى ..ولا يعرف قيمتها الا من جرب مفعول علاجها الشافي لعلته ..

واليك ما رويته عن ابن زيد رحمه الله : يقول الراوي نقلاً عن صاحب الترجمة او عن أخيه ان محمد علي زينل جمع رجالاً من وجهاء واثرياء مدينة جدة واقنعهم برأيه وأثر عليهم بشخصيته بشأن القيام بمشروع وطني انساني لا علم لي به حتى الآن ولكن الذى أعلمه من ابن زيد هو أن المشروع ذو أهمية ويحتاج الى اشتراك عدد من اثرياء البلاد بحكم تكاليفه المادية الامر الـذى جعل محمد علي زينـل يجمع وجهاء البلاد ويذهب واياهم سويا الى الشيخ بناجي ليستعين بجاه هؤلاء الوجهاء عند بناجي من ناحية وليستعين بمعونة بناجي المادية وتأييده المعنوى لمشروعه بصفتـه من أعيان البـلاد البارزين . ولكن بناجي عندما جاءه القوم لم يكن موقفه سلبياً من المشروع فحسب بل تكلم بجملة قال ما معناه : (أن ابواب الخير مفتوحـة لكل من أراد أن يعمل خيراً وعلى فاعل الخير أن يعمل بـدون أن ينتظر من يسوقه أو يقوده الى سبيل الخير الذي لم تكن أبوابه موصدة في وجـه أي انسان يقصد دخولها بنية صالحة وقلب مخلص) ..

كانت هذه الجملة من بناجي صدمة عنيفة لزينل بصورة خاصة ولرفاقه بشكل عام مما جعلهم يخرجون خاثري القوى الأمر الذي جعل أحد أعيان جـدة وهو المزاز على حد قول الراوي يسخر من محمد علي زينل ويضع عليه اللائمـة قائلاً : (اجئت بنا عند هذا الرجل من أجل أن يجرح شعورنا وينال من كرامتنا) ؟.. فأجابه زينل مبتسماً بكل هدوء ورزانة ورباطة جأش وثقة بالنفس قائـلاً : إذا كنت تريد أن تعمـل لخير أمتك بنية صادقة فما عليك الا أن تتحمل كل أذية واهانة وسخرية تأتيك في هذا السبيل ..

يا الله ما أعظم شأن هذه الجملة وما أعظم مفعولها على كاتب هذه الأحرف لا بالها

علاقة بمشروعي سالف الذكر بل في كل عمل من الاعمال الحيوية التي يصطدم بها المرء في حياته اليومية في كثير من الاحيان مع أناس يـــلاقي الانسان منهم من السخرية وتثبيط الهمة وتشويه الحقيقة الشيء الذي يرهق الاعصاب وينهك القوى ويوشك ان يخلق وهنا في العزيمة وقنوطاً في النفس لا يجد المرء سلاحاً يحارب بـه هذه العوامل بعزم وثبات الا تلك الكلمات الخالدة لمحمد علي زينل (اذا كنت تريد الخير لأمتك الخ .) .

ومما لا شك فيه ان الانسان يسمع ويسمع من امثال هذه الجملة ما هو ابلغ منها لفظاً ومعنى ولكنني وطيد الأيمان بأن السر الذي جعل لهذه الجملة اثراً فعالاً في مجرى حياتي هو أن هذه الجملة صادرة من قلب صادق حينما قالها ومؤمن بمفهومها ومطبق لمعانيها ..

والحقيقة أن اعجابي بهذا الرجل بلغ درجة جعلتني افكر أن اهـدي مؤلفي هذا بإسمه ولكنني اعرضت عن ذلك لا لسبب ما وانما وجدت أن الاهداء الذي اخترته في الجزء الأول اشمل معنى

والجدير بالذكر ان صاحب الترجمة لا زال على قيد الحياة حتى كتابة هـــذه الاحرف في ١ - ٧ - ١٣٨٤ - ٥ - ١٢ - ١٩٦٤ .

والشيء الذي أحب أن أختم به هذه الكلمة هو أنني على يقين راسخ من العلم والأيمان بأن الرجل مهما جمع من المال ومن الثروة الطائلة ومن المركز الرفيع فإن ذلك لا يكون له أي اثر في عالم التاريخ بقدر الاثر الذي يقدمه لامته من اعمال انسانية وثقافية واجتماعية كهذا العمل الذي قام به هـذا الرجل المحسن الكريم ،

ولا يسعني حيال ذلك إلا أن أنشد مع الرصافي قوله :

لو كنت اعبد فانياً في ذي الدنى
لعبـــدت من دون الالـــه الحسنا

وجعلت قلبي موضعـــاً لتعبـدي
سراً وفهت له بشكري معلنـــا

قيمة الرجال بأعمالهم

- ٣٤ -

تقدر جميع الاشياء المحسوسة أما بثقل وزنها فيما اذا كانت ذهباً مثلا ، أو مواد غذائية أو بمساحتها - إذا كانت أرضاً ، أو ما أشبه ذلك من تلك الاشياء التي تقاس بالسنتيمتر ، أو باتقانها وجودتها اذا كانت صناعة . الخ ..

المقصود .. أن كل شيء في هذه الحياة يمكن أن يباع ويشترى . ويمكن أن يقدر له ثمن محدود . اللهم الا نوع واحد - إلا وهو - « الأنسان » .

هذا المخلوق العظيم الذي كل معجزة في الكون من أرض وسماء - و ... و ... و ... الى آخره ... كل ذلك لا يقاس عظمته واعجازه ، بعظمة هذا الانسان ومعجزة وجوده التي كانت ولم تزل لغزاً مبهماً ، طاشت عقول العباقرة في معرفة كنهه وكل منهم ذهب في تفسيره لهذا اللغز المدهش - مذهباً معاكساً - ولم يعلم ولن يعلم أسرار هذا النبت المزيج المزدوج ، كيف أنشئت أول بذرة منه ؟... ومتى ينتهي آخر هذه البذرة ؟... لا ... لا يعلم أحد عن ذلك الا من أنشأها من العدم ... الا وهو : « الله » - جل شأنه - وتعالى عما يصفون ..

هذا المخلوق التافه والعظيم في آن واحد . الذي صارع الحديد وصرعه وجعل

منه طائراً يحلق فوق السحب مسخراً بأمره ولأمره ، وصارع الجبال فجعلها دكا طوع بنانه ، وتحدى الاسود في غاباتها ، وقهرها في عرينها فساقها ذليـــلة حقيرة لا لحاجة بها . وانمـــا ليشبـع غرور نفسه عندما يرى أنه بمكره ودهائه وشجاعته استطاع أن يجعل من الاسد العوبة يسخر بها (في متحف الحيوان) .

هذا المخلوق الذي لا شيء في الدنيا أقدر منه لفعل الخير الشامل النفع اذا كرس مواهبه للاعمال الطيبة والمثل العليا . ولا شيء أضر منه اذا صرف جهوده للاضرار والافساد والشر . والوشاية عند ذي سلطان والنميمة والأذية عنـــد من يملـك العقاب ..

هذا هو الانسان الذي لا تقدر قيمته بما يكسبه من مال وافر ، ولا بمـا يناله من شهادات عالية ، ولا بما يحوزه من جاه رفيـع وسلطان باذخ لا ، لا تقدر قيمة الانسان بأية معنى من هذه المعاني ـ اللهم الا تقديراً مجازياً ، أمـا التقدير الحقيقي الذي يجعل ذكره عاطراً ، أبدياً ـ فإنه لا يأتي قطعاً الا عن طريق العمل الذي يسديه لأمته . وبقدر ما يكون عمله شاملاً لعدد ما من مواطنيه أو لبني الانسان بصورة اعم واشمل بقدر ما ترتفع قيمة أسهمه في عالم الخلود ، ومدار بحثنا هنا ، يدور حول مواطن عربي من ساكني ليبيا ، تلك البلاد التي احببتها ، بل أحببت أهلها ، وفقاً لقول الشاعر العربي :

ومـــا حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

والحديث عن ساكني ليبيا وعن شيم أهلها العربيـة بالنسبة للمؤلف يحتاج الى كتابة خاصة او الى سفر مستقل .

ولا بد لي أن اشير الى ذلك باختصار في آخر بحثنا هذا ، أمـا الآن فأود أن أشير الى مواطن من أبنائها البررة ـ ذلك الرجل الذي لو كانت قيمة الرجال تقاس

بوفرة بالمال لما كان له أية قيمة ، ولو أن قيمة المرء تقاس بالعلم ، لما كان له أدنى ثمن ولو ان نباهة الذكر وذيوع الصيت يستدل عليها بسمو الجاه لما استدللت على ذلك الرجل العادي بمظهره والمتواضع بمهنته ـ ولكن عمله وحده هو الذي حفزني الى معرفته بل والى تقديري له واعجابي به .

وكأنني أرى حروف الاستفهام من القاريء تترامى عليّ حرصاً منه على معرفة صاحب الترجمة . وعلى العلم بكنه العمل الذي قادني الى معرفته واحترامه ..

كنت في مدينة طرابلس الغرب، في مطلع عامي ١٣٧٩هـ ١٩٥٩ م كممثل في سفارة حكومة وطني هناك، وعلى الاسلوب الروتيني وجهت الي بطاقة تحمل دعوتي لحضور افتتاح مدرسة تسمى (مدرسة جميلة بوحيرد) كما وجهت لزملائي دعوة مماثلة ،وقد جاءت ظروف حالت دون حضوري الدعوة التي فهمت من زملائي انه حضرها ولي العهد الليبي كما حضرها عدد جم من اعضاء السلك السياسي، ومن وجهاء البلاد، وكبار موظفي الدولة ، وقد أسفت فيما بعد لعدم تلبيتي للدعوة ، وكان أسفي في بداية الأمر شكلياً ليس الا ... ولكنني بعدما عرفت ان صاحب الدعوة وان كان مجرداً من الصفة الرسمية كتجرده من نباهة الذكر ومن أي شيء يمت الى الثقافة بصلة ، ولكنه رجل اوقف نفسه وكرس جهوده ، وبذل ماله للقيام بمشروع مقدس يفرض عليّ لا ان ألبي الدعوة فحسب ، بل ولأزوره في مكانه لأهنئه على ما وفق له من قيامه بعمل خالد يستحق الاحترام من أجله ، حقاً .. بعدما عرفت عنه ذلك هرعت في صبيحة الغد ذاهباً أسأل وأسأل. وعمن أسأل .. يا ترى أسأل عن ذلك المواطن الليبي العادي المتواضع . المدعو « يوسف مادي » بفتح الميم ..

- ومن هو مادي ؟.. وما عمله ؟..

رجل عادي أمي أو شبه أمي... بائع احذية..

ولمـــاذا أذهب اليه - لاعتذر منه . أولاً - ولأقدم له تقديري واعترافي له بالجميل الذي أسداه لمستحقيه من بني وطنه العربي ؟..

وما هو العمل الذي تصدى يوسف مادي للقيام بـه والذي رفع اسمه وزاد قيمتـــه ، من رجل بائع أحذية - الى رجل فرض عليّ احترامه وتقديره حتى أوجبني الأمر أن أضيف اسمه الى حقل « شيم العرب » هذا السفر المتواضع الذي آليت على نفسي بأن لا أضع بين صفحاته الا الرجال ذوي المروءة ، والشهامـة والانسانية ، أنى كانوا ، كباراً كانوا أو صغاراً ، سادة أم مسودين ، نابهي الصيت أم خاملي الذكر ، لا عبرة عندي بذلك ، وانما العبرة الحقيقية ليس الا بالأعمال الجيدة التي يقوم بها أصحابها فللأعمال أكتب ، ومن اجلها احترم واقدر ، وهاأنذا أجيب السائل عن العمل الذي قام به يوسف مادي - كما يلي :

عندما كانت حرب الجزائر الضروس في أوجهـــا وكان الفرنسيون متمادين بتقتيل المواطنين الجزائريين . وكان مجاهدو الجزائر الابطال يكافحون دولة الظلم والطغيان وكان واجب الجهاد الذي اضطرهم أن يقدموا نفوسهم الطاهرة ودماءهم الزكية قرباناً لاستقلالهم ،كان من شأنه ان يكونوا في شغل شاغل عن العناية بايتامهم الذين قتل الفرنسيون الظالمون آباءهم وشتتوا شمل امهاتهم فظلوا هائمين بالصحارى قوتهم من النبات وفراشهم الارض وغطاءهم السماء .

كان من شيمة يوسف مادى ان اهتم بهؤلاء الايتام كما اهتم بابنائـه فذهب الى ارض الجزائر فوجد الايتام فتياناً وفتيات أكثر من ان تتحمـــل طاقته اعالتهم جميعاً .. ولما كان الفتيات أقل احتمالاً من الفتيان للمشاق فقد رأى مادى ان يأخذ من تلك الفتيات ما يخوله وضعه الاقتصادى ان يعولهن أو بالحرى ما تتحمل شيمته ومروءته اعالتهن لأن القضية بالنسبة اليه بصورة خاصة وفي حالة كهذه بصورة عامة قضية تعود الى توفر الشيمة والمروءة اكثر من وفرة المال.

كان بود يوسف مادي ان لا يترك فتاة يتيمة في الجزائر الا جاء بها وأعالها كما

يعول ويعنى بأطفاله ولكنه رأى ان يبتدىء المرحلة الاولى بأعالة خمسين من الفتيات على نفقته من غذاء وكساء وعناية ورعاية اللهم الا ان الحكومة الليبية آزرته بتعهدها بالسكن والمعلمين .

ومن أجل هذه الاعمال المجيدة ذهبت الى يوسف مادى اسأل عنه في آخر شارع عمر المختار في مدينة طرابلس فوجدت رجلاً في مستهل الكهولة تحيط به الاحذية من كل جانب تشعر من اول حديث معه بسلامة طويته وبساطته وقد أثار انتباهي تمثال (جزمه) مصنوعة من النحاس الاصفر معلقة في ذراعه بجانب سوار ساعته مما أثار فضولي وجعلني أسأله عنها فأجابني فوراً بافتخار بأنه دخل مسابقة في روما مع المختصين بمعرفة فن الاحذية وانه نال الاسبقية بدرجة الرابع ولذلك منح هذه الاشارة كدليل على (نبوغه) من لدن الجهة المختصة في نقابة الاحذية في روما ..

هذا وقد كان ممثل الجزائر في ليبيا السيد احمد بودا حاضراً ساعتذاك فقال : لا يكون عدد منافسيك في ميدان السباق ثلاثة فقط وانت الرابع فأجاب باندفاع : لا بل كنا سبعة ، فضحك السيد بودا وانا على سرعة اجابته .

هذا هو السيد يوسف مادى لم يكن فيه من حيث مهنته ولا شخصه ما يثير الانتباه ولكن الانتباه بل الاعجاب والتقدير جاء اليه من حيث عمله الجليل : ولما كان الشعب الليبي من خيرة الشعوب العربية التي أبدت اندفاعاً وحماساً في قضية الجزائر فقد قدروا هذا العمل من السيد مادى حيث ذهب اليه عدد كثير منهم وطلبوا منه ان يرشح نفسه نائباً في مجلس الأمة الليبي الذي تم انتخاب اعضائه في عام ١٩٦٠ ولكن مادى رفض قبول هذا الطلب ويخيل الي ان رفضه هذا مبني على علمه بنفسه بأنه ليس لديه ما يؤهله من الثقافة للقيام بهذه المهمة .. هذا من ناحية والناحية الأم والأرجح عندي هي انه على يقين من العلم بأن مواطنيه لم يطلبوا منه ان يرشح نفسه كنائب عنهم الا من أجل عمله ليس الا ولذلك ما أراد ان لا يشرك

في عمله الوطني والانساني عملاً سياسياً ولكن اخواننا الليبين عندما رأوا عدم قبوله لطلبهم هـذا أصروا عليه بأن يرشح من يشاء من المواطنين ليمنحوه اصواتهم فاضطر تحت الضغط ان يرشح شخصاً لم يسبق ان دخل مجلس الأمة كنائب ، ومع ذلك فاز مرشح يوسف مادى على الرغم من ان منافسه الشيخ عبدالرحمن القلهود وهو من الرجال الثقيلي الوزن بالعلم وبالمكانة الاجتماعية وقد تقلب بعدة وزارات قبل هذا الترشيح وبعده .. كما كان نائباً لرئيس مجلس الوزراء في عدة مناسبات ولم يسبق له ان خسر مقعده النيابي في مجلس الأمـة الليبي الا هذه المرة التي نافسه فيها مرشح يوسف مادى ..

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدلنا على تقدير شعب ليبيا للأعمـال أنى كان مصدرها .. ولما كنت وطيد الثقـة بأن ما قام به اخواننا الليبيون من تكريم ليوسف مادى فإنما كان قصدهم تشجيعه ليتخذ المواطنون القادرون منه قدوة صالحة بالقيام بعمل مماثل لعمله ، فقد رأيت من واجبي ان اقتفي أثر اولئك المواطنين في اكرام الرجل ولو في بعض الاشياء المجازية ولذلك وجدتني عندمـا اقيم دعوة في مناسبة فإنني غالباً ما اضع اسم مادى في مقدمة المدعوين .. وكان كثيراً ما يعتذر . وفي مناسبة دعوة اقمتها لأحد المواطنين السعوديين ففي هذه المرة ألزمت يوسف مادى بالحضور دون ان اقبل منه أي عذر فحضر بعد الحـاحي الكثير الذي لم أفعله إلا لحاجة في نفسي وهي انني اردت ان اعرف المدعو على مادى أو بالأصح أردت ان اعرفه على العمل الجليل الذي قام به بائع الحذاء مؤملاً ان يقوم صاحبي المدعو بعمل مماثل لأن لديه من القدرة المالية ما يمكنه من ذلك .. وقد حضر مادى ضمن المدعوين وعند ذلك قدمته الى الضيف شريف وقلت همساً في اذنه أي في أذن السعودي ان بعضاً ممن دعوت لم أدعه الا لأجل مركزه الحكومي أو لوجاهته إلا هذا الرجل فقط فإنني لم أدعه لهذه ولا لتلك وإنما دعوته لعمله ومن أجل عمله الذي هو كذا و كذا الخ ..

ومما يزيدني تقديراً واعجاباً بمادى هو ان هذا الرجل لم تقف به مروءته عند حد العدد الذي أشرت اليه آنفاً أى اعالة خمسين فتاة فقط بل ذهب يهيء مكانـاً يضم مائتي فتاة علاوة على العدد السـابق . وقد منحته الحكومـة سكناً لهذا العدد

الاخير كما تعهدت له بأن تكون مرتبات المعلمين والمعلمات على نفقتها وكان يشاركه هذه المرة في مشروعه الاخير مواطن من مشاهير أثرياء مدينة طرابلس الغرب يدعى محمد السامي ، وقد ذهبت والدكتور مدحت فتفت سفير الجمهورية اللبنانية في ليبيا ، ذهبنا الى المدرسة الجديدة فوجدناها مجهزة بكل شيء من التخوت الى الفراش الى عدة الطبخ الى الالبسة فكل ما يكفي لمئتي فتاة من جميع اللوازم قد أعد وهيء من قبل مادى والسامي ، ولكن فرج الله جاء الجزائريين بأخذهم استقلالهم وطردهم الغاصب المستعمر وعند ذلك ظلت اليتيمات اللائي قرر مادى والسامي جلبهن ظللن في بلادهن كما ان الفتيات القديمات اللائي في عهدة مادى عادين الى بلادهن الجزائر ..

هذا وان كتابتي هذه عن يوسف مادى ان هي الا امتداد لمقال سابق كنت كتبته عنه ونشرته جريدة الندوة السعودية في عام ١٩٦٠ بعنوان (ألا تشاركني الاعجاب بهذا الرجل) .

واني لأذكر جيداً معنى أشرت اليه في ذلك المقال ولشدة ايماني بصواب ذلك المعنى أراني مضطراً الى تكراره الآن وهو قولي : (ان الحياة اذا تجردت من أمرين لا قيمة لها : الامر الاول : هو مصارعة الطغاة الظالمين والثاني الاخذ بيد المظلومين .. وهذا هو مذهبي الذي أدين لله به .. وقد قدمت مصارعة الطغاة الظالمين على الاخذ بيد المظلومين بالرغم من ان منظر البائسين المظلومين قد يستفز الشعور الانساني من حيث العاطفة اكثر من استفزازه لرؤية الظالمين .. وذلك عندما ننظر لقضية المظلومين من حيث اطارها العاطفي ولكن عندما ننظر للأمر من جذوره نظرة موضوعية عند ذلك تتضح لنا الحقيقة الواضحة القائلة : لولا وجود الطغاة الجبابرة الظالمين لما وجدنا في الامة مظلومين ولولا ان فرنسا جاءت غازية باغية للجزائر حتى قتلت الرجال ويتمت الاطفال ورملت العجائز والنساء.. لولا ذلك لما وجد يوسف مادي يتيمات هائمات في الصحارى لا أهل لهن ولا مأوى ولولا ظلم الغزاة البغاة الصهاينة لما وجد مشردون من اخواننا الفلسطينيين ..

فمصارعة الظالمين وإذلال الجبابرة الطاغين ومحاربة الاستغلاليين الذين لا تتم سعادة الفرد منهم إلا على حساب تعاسة وشقاء الالوف المؤلفة من بني الانسان وفقاً لما قاله الشاعر الرصافي :

ورب سعيد واحد تم سعده
بألف شقي بالمعيشة راغم

ولئن كان الاخذ بيد المظلومين فرض كفاية فان محاربة الظالمين وسحقهم من عالم الوجود فرض عين ولولا بطولة الجزائريين وقهرهم للظالمين لولا ذلك لظل سيل الايتام واليتيمات يتدفق من الجزائر بدون انقطاع حتى الابادة .. وهذا دليل قاطع يزيدنا ايماناً بأن مصارعة الظالمين والقضاء على دابرهم هي في الوقت نفسه نجدة للمظلومين بل في حالة ابادة الظالمين لن تجد مظلومين في حاجة الى الاخذ بيدهم لأن الداء الساري حسم من مصدره وجذوره .. ولكن هذا لا يمنعنا من تقديرنا لذوي المروءة الأخذين بيد المظلومين كيوسف مادي وأمثاله من المواطنين البررة.. وعندما اذكر يوسف مادي من اخواننا الليبيين اذكر ايضاً مواطناً آخر من مدينة طرابلس وهذا الآخر تعهد باعالة عدد من الايتام الذكور الجزائريين على نفقته هو السيد ابو بكر ..

والحقيقة ان المدة التي قضيتها في ليبيا منها ثلاث سنوات في طرابلس وثلاثة اشهر في بنغازي كانت تلك المدة التي أقمتها هناك فيها الكفاية التي اعطتني الفكرة عن الشعب الليبي . لا من حيث موقفهم في جانب الجزائريين فحسب بل ومن حيث ما يتصف به سواد الشعب من خلق عربي أصيل..

وعلى سبيل المثال والاختصار يلذ لي ان اذكر ما رأيته كشاهد عيان من حوادث وقعت من اناس من عامة الشعب وهي حوادث قد لا تكون ذات أهمية من حيث

يعيش الناس في حال اجتماع فتحدث بينهم طرق انتفاع

وتكثر للتعاون والتفـــادي على الأيام بينهم الدواعـــي

ولو ساروا على طرق انفراد لما كانوا سوى همج رعاع

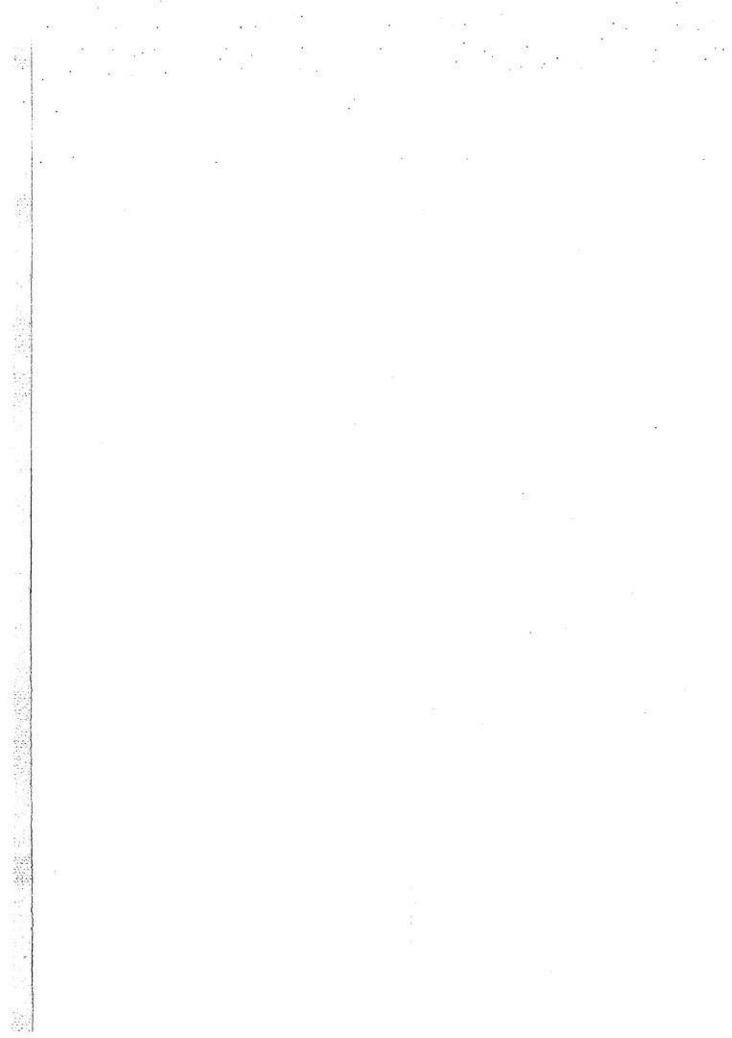
ولم يصلح فساد الناس إلا بمال من مكاسبهم مشاع

تشاد بـه الملاجىء لليتامى وتمتار المطـــاعم للجيـــاع

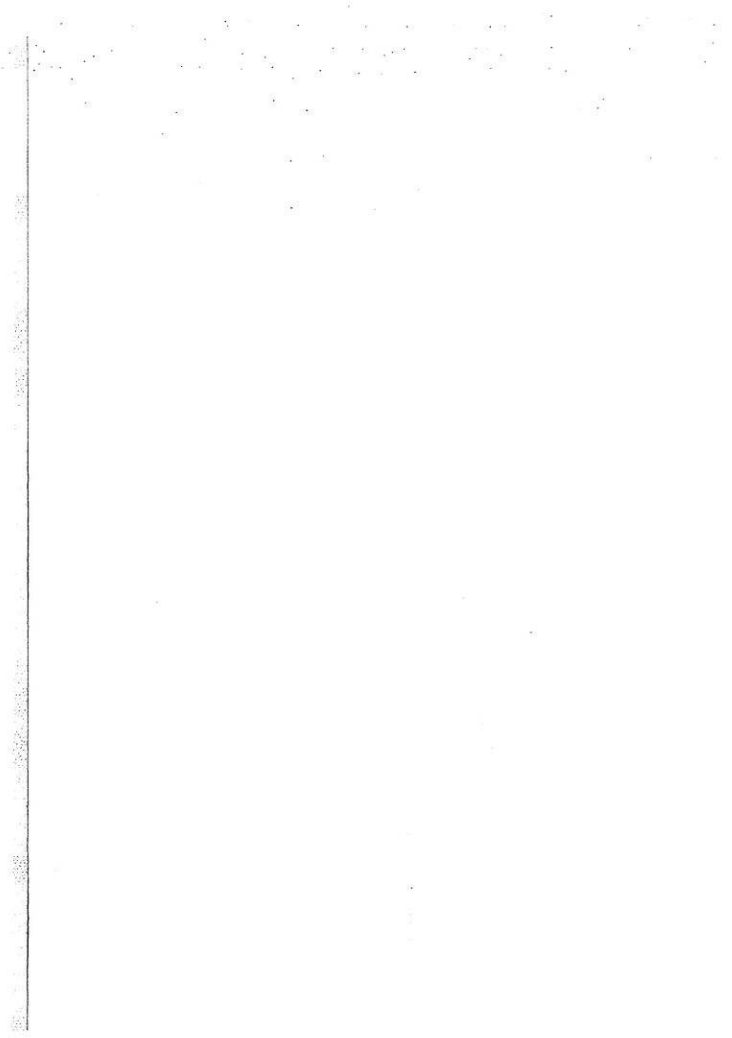
ومـــا سرني أني أناجـــي رجالاً في الفخار ذوي ابتداع

سعوا لحمـاية الأطفـال منـا بمـا أوتوه من كرم الطباع

معروف الرصافي



السيد يوسف مادي العربي الليبي الذي سعى بمجهوده الخاص باعالة وتعليم الفتيات الجزائريات وعن يساره ولي العهد الامير الحسن الرضا ورئيس التشريفات فتحي الحجا ومن خلف الجميع اليتيمات الجزائريات



ذاتها ولكنها تعبر تعبيراً قاطعـــاً عن عراقة الشيم العربية التي يتمتع بها الشعب الليبي ..

وبما أن الخلق القومي الاساسي لأي شعب كان لا يمكن معرفة كنهـه إلا عن طريق الفئة التي يعبر عنها بعصرنا الحـــديث بـ (البروليتاريا) أي الطبقة الشعبية الدنيا ، لذلك بذلت ما أستطعت من الجهد للوصول الى معرفة خلق عامة الشعب الليبي ، وقد أدركت أنني لا أستطيـع الوصول الى ذلك إلا عن طريق الامتزاج بعامة الشعب الأمر الذي جعلني أترك ركوب السيارة واسير على قدمي في كثير من المناسبات وهذه الطريقة وحدهـــا هي التي مكنتني من الوصول الى غايتي المنشودة ..

والذي أثار انتباهي في سماحة خلق هـذا الشعب هو انني لا أذكر انني سألت أحداً من عابري السبيل عن مكان ما ومن ثم أدرك هـذا المسؤول أنني غريب الا وذهب يرافقني حتى يوقفني على المكان الذي أريد : فمثلاً في اليوم الثـــاني الذي وصلت فيه الىالبلاد جئت سائراً على قدمي من فندق المهاري الى السفارةولم أكن أعرف وقتها موقع السفارة وطبيعة الحال تضطرني أن اسأل من يـدلني فألتقيت بشخص راكباً (دراجة) فسألته عن دار السفارة وكان سائراً نحو الغربفسرعان ما أنحرف الى جهة الشرق ونزل عن دراجتـــه وذهب بجانبي حتى قطعنا مسافة ليست بالقريبة فقلت في نفسي لابد أن هذا الرجل يعمل في السفارة فذهبت اسأله عن عمله فقال انه بائع حليب فقلت الك معامـلة مع السفارة ؟ فقال كلا : فطلبت منه أن يرجع الى السبيل الذي عاد منه وان يكتفي بالاشارة الى موقـع السفارة فرفض بحجة ان مكانها بعيد وانني لا أستطيع الاهتداء عليـه بالأشارة ولم يتركني الرجل حتى اوقفني على باب السفارة ثم قفل راجعاً وقد تكرر معي مثل هـــذا العمل مرات متتالية وفي عدة مناسبات .. ولا يسعني أن اسرد كل ما شاهدته من امثال هذه الحادثة وانما اكتفي بذكر حادثتين : ذهبت ذات يوم الى صاحب آلة كاتبة ليبيض مسودة مقال اعددته للنشر فوضعت الأوراق عنـــده على اساس أن اعود عليه في الغد ولكن عندما عدت أريد مكانه ضعت عنه وكنت قد حفظت

اسمه فذهبت اسأل أحد اصحاب الحوانيت عن مكان الرجل هذا وعلى الفور خرج المسؤول من حانوته وقال : هيا اتبعني ، ثم اشار لجاره فقال : (انتبه لبضاعتي حتى اعود .. فذهب يهديني الى صاحب الآلة الكاتبة تاركاً عمله وقـد قطعت مسافة بعيدة عن دكانه ولم يتركني حتى اوقفني على صاحبي ...

هذه الأولى وأما الثانية فقد كنت خارجاً من السفارة وذاهباً الى منزلي سيراً على الأقدام ويرافقني مواطن سعودي هو الاخير فضل المشي على ركوب السيارة وقد التقينا بصاحب (عربية) يحمل فواكه متنوعة فقرر صاحبي ان يشتري منه عنباً .. ولكن بعدما وزنه الرجل أدرك رفيقي انه لم يكن لدى البائع ماعون يحمل فيه عنبه كما أن البائع لا يستطيع ان يترك بضاعته في الشارع ليحمل مع المشتري حاجته فلذلك قرر رفيقي ترك العنب .. وكان عند صاحب العربة رجل من عامة الشعب يحمل ماعوناً فيه مؤونة لاهله فسرعان ما أفرغ هذا الرجل مافي ماعونه وراح - يطلب من رفيقي أن يحمل له العنب فوافق صاحبي ظاناً ان هذا الشعبي لم يفعل ذلك الا طمعاً بالأجرة ولكن سرعان ما أدرك رفيقي انه مخطيء في ظنه وذلك بعدما وصل منزله وأراد ان يدفع نقوداً للرجل الليبي ولكنه أي الليبي رفض قبولها بعنف قائلاً : ألست عربياً .. قال صاحبي بلى .. قال ألم تكن عراقياً ؟ قال ماذا تعني فيما اذا كنت عراقياً ؟ قال اعني انك لست من اهل هـذه البلاد .. قال رفيقي وهو كذلك .. قال الليبي اذن اصبحت ضيفاً لنا فكيف بي اخذ منك اجرة .. ومن هنا ادخلت نفسي بالحديث بينهما فقلت لليبي ما هو عملك فقال عامل في المستشفى ثم اشار بيده مودعاً ..

فهذه الأعمال وأن كانت بحد ذاتها بسيطة ولكنها من هذا العامل وامثاله تعبر ابلغ التعبير عن عراقـة الخلق الليبي لأن هؤلاء العمال وأمثالهم هم ولا شك المرآة المنعكسة والمعبرة عن الخلق الكامن المورث في كيان الشعب ..

والواقع انني تجولت كثيراً في البلاد العربية وقد وجدت ان العادات العربية

كلها متشابهة في كل بلد يشبه الى حد كبير البلد الثاني ولكنني لم آسر ولم اجد الاصدقاء الكثيرين الذين ركنت اليهم واطمأنت نفسي لماشرتهم في بعض الاقطار كما وجدتها في الشعب الليبي .

ولئن كان النفط المتدفق في بلادهم اليوم كالسيف ذى حدين له ماله من حسنات وسيئات .. فإنني ارجو الله تعالى ان يوفق الليبيين للأخذ بما فيه من حسنات تتجاوب واخلاقهم الكريمة وان يقيهم شر سيئاته .

عندما تطغى المروءة على الجشع

-٣٥

أتى الى شبه الجزيرة العربية في السنين الغابرة مجاعة لا يمكن أن يتصورها العقل، ولم تكن تلك الأيام المجدبة بعيدة العهد، الى الحد الذي يمكن ان تنسى أو تغيب عن الاذهان ذكراها المريرة: بل كانت قريبة العهد: وقد ظلت آثارها باقية حتى مطلع القرن العشرين: وكانت البلاد ايامها محرومة من الانتاج الزراعي ومن جميع المعدات الزراعيــة كما يكن فيها انهار ولا سدود وكل ما في الأمر ان سكان البلاد يسعدون اذا أنهمرت السماء عليه بماء مدرار ويشقون بعـدم نزول الغيث. ومن المعلوم ان الامطار في الجزيرة لم يكن نزولها دائماً متوفراً بصورة مستمرة كما هو الامر في البلاد الاخرى البـاردة الكثيرة الاشجار؟! وكان القوت الاساسي لأهل البلاد هو القمح والتمر وهذان الصنفان هما الانتاج الزراعي المحلي وربما كان الاخير قوت الطبقة الوسطى من الشعب بل قوت السواد الاعظـــم من المواطنين جميعاً، اذ انه لم يكن وقتها ثمة تباين بين طبقات الشعب من حيث الثراء الفاحش بل يكاد أن يكون الشعب كله طبقة واحدة فإن يكن هناك فرق بين المواطنين بالغنى فإن هذا الفرق نسبي لا أهمية له..

وكما أن أثرياء الحرب يدخرون المواد الغذائية بمجرد ما يشعرون ان هناك خطراً يهدد العالم بوقوع حرب عالمية أو محلية كذلك كان الاثرياء على قلتهـم في

شبه الجزيرة كل فرد منهم يسعى جاهداً ان يشتري بكل ما يملكـــه من نقود قمحاً أو تمراً استعداداً لمواجهة القحط فإن اجدبت البلاد باع ما أدخره من تمر او بر او كلتاهما باضعاف مضاعفة ما اشتراه به وان ساق الله مطراً واخصبت الارض فانه سيبيع ما عنده برأسماله فـــلا يخسر شيئاً وان خسر فان خسارته ليست بذات بال .

وقد كان هذا الادخار شيئاً مألوفاً ولا يعاب فاعـله بالرغم من ان من يقوم بعمل كهذا فإنه ممقوت شرعاً وعقلاً : وحسب فاعله من العار والخزى انه في قرارة نفسه وفي عقله الباطن يحزن عندما تخصب البلاد وترخص المواد الغذائية وبالعكس يطرب ويتهلل وجهه سروراً ويرقص طربـــاً حينما يمتنع الغيث وتقحل الارض وتزداد قيمة مواد الغذاء لانــه لا يعيش ولا يلوى بـل لا يبلغ الى ذروة الجشع والتخمة الا على حساب جوع الالاف المؤلفة او الملايين من مواطنيه .

وبالرغم من جسامة عار من يقوم بأعمال كهذه فاننا لن نجد أمامنا دليلاً مادياً يوحي بأن المواطنين يعيبون من يقوم بمثل هذا العمل الشنيـع كما هو شأنهم مقت واحتقار أي مواطن يقوم بأعمال تتنافى والخلق العربي . مع العلم ان من يتولى القيام بأعمال حقيرة كهذه يجب ان يكون أول من يحتقر وآخر من يحترم، أجل وأي خزى أسوأ من خزى وعار مواطن لا تتم سعادته الا بشقاء السواد الاعظم من مواطنيه .. ولكن الذي يبدو لي ان هذه العادة القبيحة اصبحت كما ذكرت آنفاً مألوفة عند المواطنين ومتى أصبح الشيء عـــادة مألوفة عنـد ذلك يتساهل المواطنون بحقها وتضعف حاسة الغيرة في نفوسهم شيئاً فشيئاً حتى تتلاشى نهائيـاً وتذوب مرة واحدة ..

هـذه ناحية رئيسية في هذا الموضوع بل تـكاد ان تكون قاعدة مضطردة في جميـع الامور بصورة عامة ، والناحية الثانية التي هي الاخرى ذات اهمية هي ان كل فرد من أهل البلاد يملك ولو قليـــلاً من النقود فانــــه بدلاً من أن يضعها مجمدة ومعطلة عن الفائـــدة فانـه يذهب ويشتري فيهـــا مـواد غذائية ويخزنهـــا لا من أجل أن يربـح من ورائها بل من اجــل أن

يدخرها كمؤونة يقتات منها في حالة وقوع قحط مفاجيء بل قحط منتظر الوقوع لأن أغلب السنين التي تمر بأهل البلاد يكون قحطها وقتذاك اكثر من خصوبتها، المقصود هو أن من يدخر شيئاً من المؤونة خاصة الذي ينوي التجارة بهـــا فانه لم يدخر ذلك على حساب الفقير فحسب بل وعلى حساب المسكين إذ أن الفرق بين الفقير والمسكين في اللغة العربية هو ان الاول الذى لا يملك قوت السنة والاخير الذى لا يملك قوت يومه وليلته ، ومن هنا يعرف مقدار جريمة محتكرى المواد الغذائية عليهم من الله ما يستحقونه .

كان من بين هؤلاء المحتكرين شخص يدعى محمد بن شريدة [1] الذى احتكر نوعاً من الاغذية الرئيسية إلا وهو التمر ، وهذا النوع ربما كان هو الغذاء الاساسي بل هو الغذاء الرئيسي بالنسبة للفقراء ذوى الفقر المدقع ، جاءت سنة قاحلة لم ينزل فيها نقطة من الغيث وارتفعت قيمة مواد الغذاء فيها ارتفاعاً مدهشاً وبلغت المجاعة فيها حداً فوق ما يتصوره العقل واصبح عدد المتضورين جوعاً والبائتين على الطوى أكثر بكثير ممن يجد لقمة من العيش بل ممن يجد له حبيبات من التمر يسد بها رمقه .. وازدادت نسبة المتسولين وخاصة اذا ادلهم الليل هناك يتضاعف عـــدد المتسولين لأنه اذا جاءت سنة كهذه هلك فيها الضرع والزرع فانــه حتى الشاب مفتول الساعد ينـاله من المجاعة كما ينال الطفل والعجائز والشيوخ لأنه لا يجد له عملاً يقتات من ورائه ..

وعلى كل فقد كانت تلك السنة من أسوأ السنين المجدبة وأشدها وطأة وهولاً على المواطنين، وبقدر ما كان هذا العام عام بؤس وشقاء على المواطنين الفقراء بصورة عامة وعلى المساكين بشكل خاص بقدر ما هو عام هناء. وسعادة للتجار محتكري الطعام ، فلهم أن يتلاعبوا بأسعار الطعام كيف يشاؤون وكما يريدون فلا سلطة

---

١ - انظر صفحة ٢٢٧ من هذا الكتاب.

هناك وقتها قوية تحدد الاسعار إذ أن البلاد وقتذاك لم يتم للمرحوم الملك عبدالعزيز توحيدها بعد ، فـما على المحتكرين ميتي الضمائر ومعدومي الوجدان ومبلدي الاحساس ومقتولي العواطف ومفقودى المروءة : الا أن يرقصوا طرباً على عويل المتضورين جوعاً ، فنفر من هذه الفئة لا يصح ان يطلق عليهم اسم البشر بل هم الى الحيوان اقرب كثيراً منهم الى الانسان بل هم الى نوع معين من الحيوان اقرب بخلقهم من أى نوع آخر من انواع الحيوانات جميعاً واعني بها الكلاب وفقاً للمثل الشعبي الدارج بين المواطنين حيث اذا شاء احد منهم ان يصف شخصاً من هذه الفئة التي لا يهنأ لها العيش الا في الحين الذى يصاب بـه المواطنون بجائحة من جوائح الزمان ، عند ذلك يقال فلان (كالكلب الذى يفرح بمصيبة اصحابه)،أى أن الكلب عندما تصيب أهله كارثة ما يسر لوقوع هذه الكارثة ، والسبب انه في الحين الذي يكون به أهل الكلب في ذهول من هول الكارثـة يجعل نفوسهم لا تقبل الطعام فعندئذ تكمل سعادة الكلب بحيث يتسنى له التهام طعام اصحابه منفرداً.. وهذا خلق التجار المحتكرين لا يطيب لهم العيش إلا على حساب جوع مواطنيهم ، اللهم الا من يكن بين جنبيه قلب ألمعي وعاطفة دافقة ووجدان عـامر مستيقظ ومروءة جمة كمحمد ابن شريدة رحمه الله ،ذلك الرجل الذي احتكر التمر فعلاً كما يعمل غيره من المحتكرين، وكانت تلك السنة المجدبة من أمنيته فيما لو لم تطغ مروءته على جشعه ولكنه عندما خرج ذات ليلة من منزله فوجد الكثير من بادية بلاده ومن قراها بل ومن نفس اهل مدينته البائسين يتضورون جوعـاً ، عندئذ لم يسعه إلا أن لبى نداء ضميره وأصغى لحافز وجدانه وأصم أذنيه عن صوت الجشع واستجاب بكل جوارحه لصوت المروءة الذي تجاوب مع خلقه الكريم .. لبيك يا صوت المروءة لبيك .. أجل لقد وقف محمد بن شريدة بتلك الليلة المدلهمة منادياً بصوته الجهوري قائلاً : أيهـا الاخوان كل من هو بحاجة الى التمر فليـأت اليّ واهباً اياه بلا ثمن ..

يا الله ما أكثر الملبين من المواطنين لهذا النـداء .. لقد تزاحم المحتاجون أو الجائعون عند باب ابن شريدة وظل يقسم عليهم ما احتكره من التمر ، ولا زال

يقسمه حتى لم يترك في منزله حبة مما كان ينوي احتكاره سابقاً ثم بات تلك الليلة قرير العين مرتاح الضمير ، وفي صبيحة الغد ذهب لوالده ليخبره بما فعل :

الأبن - ابشرك يا والدي انني ابعت التمر بثمن فوق ما يتصوره العقل ..

الوالد - هل ابتعته نقداً أم مديناً ..

الأبن - بل ديناً .

الوالد - وكيف تبيعه ديناً يا بني ونحن بأمس الحاجة الى ثمنه نقداً ؟..

الأبن - كان الذي اشتراه مني قوم هم بأمس الضرورة اليه كغذاء يسد رمقهم عن الموت اكثر الف مرة من حاجتي إلى ثمنه .

الوالد - فهل حددت اجلاً مسمى لدفع الثمن ..

الأبن - كلا .

الوالد - وهل لديك كفالة حلي أو عقار من المشترين تضمن لك استرجاع الثمن ؟..

الأبن - طبعاً لدي من الضمانة ما يكفل اعادة ثمن تمري اضعافاً مضاعفة عن ثمنه الحالي فيما لو ابتعته في الأسواق .

الوالد - إنني اشك كثيراً بأن هناك من يستطيع أن يضع عندك كفالة تعادل ثمن تمرك بصورة مضاعفة على النهج الذي اشرت اليه كما انني اشك ايضاً أن هناك من يستطيع أن يسددك ثمن تمرك من المواطنين مهما كان المشتري اميناً ووفياً خاصة بهذه السنة المجدبة القاحلة التي لم اذكر بحياتي هذه الطويلة انه مر عام «قحط» كعامنا هذا الاسود التعيس .

الابن - يا والدي الكريم انني على يقين من العلم بأن ثمن تمري سوف يعود مضاعفاً بلا شك عندي ولا ريب ..

الوالد - فهل لك يا بني أن تصف الطريقة التي تمت فيها عملية المبايعة ..

الابن - مالك يا والدي ومال معرفة طريقة المبايعة ما دام انني قد اكدت

لك أن صفقة البيع كانت رابحة بصورة اكثر بكثير ما باع به تمرهم جميع التجار التجار في بلادنا كما أنني أزيدك تأكيداً انـــه ما من تاجر باع تمره وهو مرتاح الضمير وواثق من ربحه كراحة ضمير ابنك بربحه المضمون ..

الوالد ـ وأنا ايضاً واثق من عقلك وحكمتك بأنك لم تقـدم على أمر الا وانت عارف مسبقاً بنتائج كل امر تقوم به وان لا تضع قدمـــك حتى تعرف ما هو المكان الذى وضعت قدمك فيه وانني إذ الح عليك في طلبي بمعرفة السبيل الذى تمت المبايعة فيه بينك وبين المشترين فإن ذلك من سبيل الاحتياط او بعبارة اصح لكي يطمئن قلبي ليس الا ..

الابن أحب ان اصارحك اكثر وهو انني ابتعت تمري على قوم لا أريـــد منهم ثمناً من ورائه ولم أطلب منهم ولن اطلب مقابله جزءاً ولا شكوراً ..

الوالد ـ لعلك انفقته يا بني في سبيل الله وابتغاء مرضاته ..

الابن ـ اجل يا والدي لقد وهبته لمواطني الفقراء والمساكين لأنني كنت اشعر بوخز الضمير وقلق الوجدان واضطراب الحواس ولم اطمئن من هذا العذاب المؤلم حتى انني اتخذت القرار النهائي الذي على أثره قمت بتوزيع جميع ما دفعني الجشع الى احتكاره من التمر ولم اترك منه حبة واحدة وانني اؤكد لك يا والدي تأكيداً قاطعاً بأنني منذ ان انفقت ذلك التمر لأولئك البائسين الذين شاهدتهم يتضورون جوعاً ويضطربون هلعاً من تلك اللحظة وأنا أشعر براحة واطمئنان ونشوة سرور وبلذة من السعادة التي غمرت كياني بصورة لا اذكر بحياتي انني شعرت بسعادة تعادل تلك السعادة ومن أوضح الأدلة على ذلك هو انني نمت تلك الليلة نوماً هادئاً لذيذاً مطمئن النفس بشكل لم يسبق ان استسلمت فيه للسبات بسعادةوحبور هنيئاً على فؤادي كتلك الليلة ..

الوالد ـ سامحك الله وزادك توفيقاً من ابن بار كريم ..

الابن - ماذا تقصد يا والدي بهذا الدعا .

الوالد - اقول سامحك الله ثانية وثالثة بعدم اخبارك لي بهذا النبأ السر فقد كان الاولى بك ان تدخل على قلبي السرور من حين ان سألتك عن مصير بضاعتك أما وقد وفقك الله لهذا العمل المبارك الذي لا يقوم به الا من يوفقه الله ويختاره للقيام بأعمال البر والاحسان بعد هذا التوفيق فإنني أرى انه من الواجب عليّ شخصياً وقبل كل شيء أن أحمد الله تعالى واسجد له شكراً الذي وهبني ابناً نجيباً ذا مروءة كمروءتك التي جعلتك تشارك اخوانك المواطنين بؤسهم وتشاطرهم آلامهم وتقاسمهم همومهم . ثانياً : أحب ان اؤكد لك تأكيداً يغني عن القسم بأنك ادخلت على قلب والدك بعملك هـــذا النبيل سروراً لا يعادله أي سرور وأزحت عن نفسي كابوساً من عذاب الضمير الذي طالما عانيت من وخزه العبء الذي لا يطيق أحتماله صاحب الوجدان الحيّ .

ثالثاً - ابشرك ان الله سوف يخلف عليك من عنده اضعافاً مضاعفة على مـــا انفقته في سبيله لأنه جل شأنه لا يضيع أجر من أحسن عملاً..

الابن - بورك فيك من والد ورع حكيم لقد كنت راضياً عن نفسي عندما قمت بهذا العمل كما انني واثق بأنني قد أرضيت الله وأرضيت ضميري ولكنني كنت في حيرة من أمري فيما له علاقة برضاك فلا أعلم ماذا ألاقي منك وهـــذا هو السر الذي اضطرني الى عدم مبادرتي باشعارك فوراً بعملي هذا أما وقد بدا لي منك أدلة الرضا فإنني شعرت الآن بأن سعادتي قد بلغت الذروة وسيان عندي الآن أيذهب مالي أم لا يذهب ؟. المهم عندي بهذه الحياة هو الرضا والسعادة وها أنذا أشعر برضى لا يعادله رضا وسعادة لا تضارعها سعادة .

الوالد - بل أعيد وأكرر لك ما قلته آنفاً بأن الله سوف يرزقك من عنـده برزق لم يخطر لك ببال لأن ذلك سنة الله بعباده الكرام المحسنين ..

هذا وقد أكد الرواة الثقاة ان الله يسر لأبن شريدة رزقاً من عنده كان اضعافاً مضاعفة لما أنفقه على اولئك البائسين وذلك بأقرب فرصة مناسبة بفضل صفقة تجارية ربح بها ذلك المحسن التقي ذو المروءة الدافقة والشعور الانساني اليقظ[1] .
القصة مشهورة

---

١ ـ محمد بن شريدة من اعيان اهالي بريده ذوي الحل والعقد، قتل رحمه الله في احدى المعارك الطاحنة ابان الحروب الاهلية في المعركة المسماة بـ جراب سنة ١٣٣٣ هـ ١٩١٥م.

من ثمرة الأحسان

- ٣٦ -

أذكر أبياتاً لشاعر المجتمع المرحوم معروف الرصافي نوه بها عن فضل الاحسان والمحسنين بقوله :

لو كنت أعبد فانياً في ذي الدنا
لعبدت من دون الاله المحسنا

وجعلت قلبي موضعاً لتعبدي
سرا وفهت له بشكري معلنا

وخير مال ينفقه المرء في هذه الحياة هو ما يبذله في الاحسان ومن اجل الاحسان، وعندما يوفق المرء لذلك يجد اطمئناناً في نفسه وراحة في ضميره وسعادة في فؤاده بل وغذاء روحياً في الظروف الحرجة كما حصل ذلك فعلاً مع صاحب هذه القصة لمرحوم (عليان الجبرى[1]) ومع شخص آخر يدعى (حداد بن مجلوب) من

---

١ – عليان من قبيلة حرب ومن البطن المسمى (عوف) ومن بادية المدينة المنورة .

قبيلة شمر . والاخير لا يزال على قيد الحياة .. ولنبدأ الآن بقصة الجبرى :

يقول الجبرى : انه كان في تركيا ابان الحرب العالمية الاولى ومن ضمن الجنود الاتراك المناضلين بجانب مصطفى كمال .. وفي أحدى الليالي ذهب بمهمة حربية هو ونفر من الجنود الاتراك المجاهدين ، وفي الطريق نزل عن جواده لقضاء حاجته ثم لحق برفاقه ولكنه ما أستطاع ان يهتدى اليهم في ظلام الليل الدامس . وعندما ادرك انه ضل السبيل وقف في مكانه بدون ان يسير خطوة واحدة حتى انبلج الفجر ، ولكنه مع ذلك ظل يجهل الطريق ولم يكن بوسعه ان يفرق بين الطريق الذي يؤدي الى قومه او الذى يرمي به في معسكر العدو .. وكان الفصل شتاء والثلوج تنزل بكثرة والبرد قارساً ، وخير وسيلة اختارها لنفسه هي انه ذهب نحو جبل عال وعندما وصله وجد في رأسه كهفاً فسيحاً وفي جوفه حطب وافر ، وكان من حسن حظه انه محتفظ ببندقيته و (كبريت) فذهب واشعل ناراً ليزيح عنه البرد الذى كان على وشك ان يفتك به . .وبعدما اخذ حقه من الراحة والتدفئة سمع حركة في أقصى كهفه الفسيح فاستدنى بندقيته وراح نحو هذه الحركة فوجدها من النوع الذى يسمى مفردها باللغة الشعبية (واوى) ومن المعلوم ان هذا النوع لايحل لحمه ولكن الرجل وصل درجه من الجوع تباح له معها المحرمات الامر الذى جعله يقتل هذه الحيوانات ويذهب يشوى منها ويستطعم مدة من الوقت من لحومها وبالتالي لم يجد شيئاً يقوم بأوده ما عدا الماء فقد وجده بصورة متيسرة ولكن المشكلة الآن قضية الطعام فقد اصبح يعاني الالم الكثير من الجوع الشديد وقد كان يود ان يذهب الى رفاقه المناضلين ولكنه لا يعرف الطريق ، ولا يفرق بين الارض التي يقيم بها العدو من المكان الذى فيه رفاقه بصفته غريباً عن البلاد ، وعندما يتعذر عليه السبيل يذهب ويستعين بالنوم.

هي الى الخيال اقرب منها الى الحقيقة !!

ويؤكد بطل الحادثة وراويها بأنه في الحين الذى يضطجع مستسلماً للنوم في

تلك اللحظة التي يكون بها بين النوم واليقظة يرى رجلاً يذهب الى نخلة ويقطف منها رطباً جنياً ثم يناوله إياه فيحاول ان يعرف من هذا الرجل فيمتنع عليه معرفته . أما النخلة التي يقطف منها الرجل التمر فإنه لا ينكر انها نخلة من احدى نخلاته التي في العوالي[1] وقصة هذه النخلة على حد قول الراوى فيها شيء من الغيبيات فيقول :

ان هناك ايتاماً توفي والدهم ولم يترك لهم شيئاً من متاع الدنيا ووالدتهم فقيرة وغريبة وانه عطف عليهم ومنحهم نخلة من نخلاته ، وان الرطب الذى يأتيه فيه ذلك الرجل يشعر وهو في سباته القريب من اليقظة بأنه رطب نخلته تلك التي منحها للايتام .

ولما كانت معرفتي بالرجل كانت محدودة جداً فإنه من بديهيات الأمور أن أكون بين الشك واليقين في رواية هذه بالرغم من توفر الأدلة التي من شأنها ان تعضد هذه الرواية . ومن هذه الأدلة ان الرجل عاش فترة في تركيا أيام الحرب العالمية ومنها انني علمت انه كان يقطن العوالي ولأسرته ملك فيها . ومنها قصيدة له شعبية أسمعني اياها ويصور بها ما عاناه من الجوع والخوف في رحلته الآنفة الذكر[2] كل هذه الأدلة من شأنها ان تسند رواية الجبرى ولكن رغم ذلك لم تبلغ عندى من اليقين درجة تجعلني أنقلها الى القراء كقصة من شيم العرب اللهم الا انني بعد ذلك بمدة سنحت لي فرصة برحلة يطول شرحها ذهبت بها الى بادية شمال الجزيرة.

---

١ — العوالي موضع فيه مزارع مجاور لمدينة الرسول عليه الصلاة والسلام.
١ — لم احفظ من قصيدته مع الاسف الا بيتاً واحداً فقط وهو قوله :

تسعين ليلة عيشتي لحم واوي

ما حولي الا الثلج كالقطن مندوف

وعند ذلك أسمعني شخص من قبيلة شمر قصة من نوع قصة الجبرى عيناً بعين . ولما كان صاحب القصة الاخيرة لا يزال على قيد الحياة وكل رجال عشيرته يشهدون له بالامانة والصدق، ولما كنت أعددت فصلاً خاصاً في أعمال البر والاحسان ليمضي فاعل البر في سبيله قدماً لأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، لذلك فقد طاب لي ان أسجل هذه القصة في هذا الفصل .

من صنع خيراً جنى ثمرته !!!

- ٣٧ -

لما كنت ذكرت في قصة الجبرى بأنني لست ناوياً بأن أضمها في وجود هذا الكتاب أى قصة الجبرى لولا وجود هذه القصة فإنني أزيد تأكيداً مرة ثانية بأن هذه القصة والشهود الثقاة الكثيرى العدد بصدق وعدالة راوى قصتنا هذه هو الذى شجعني على كتابة تلك .

كان ذلك في عام ١٣٦٣هـ ١٩٤٢ م عندما حكمت عليّ ظروف قاسية الجأتني بأن انزل ضيفاً عند المرحوم الشيخ عباس[1] بن عباس بن هرشان ولا تسألني عن كنه الاسباب الداعية لتلك الرحلة لان شرحها يبعد بنا كثيراً عن بحثنا هـذا ، وأرجو ان تتاح لي الفرصة التي تمكنني من اخراج كتاب كهدية مني لابنائي بمن ن د من الطفـولة الى الكهولة ،.. لا أراني بحاجة على ان اؤكد بأن خير سجية يمتاز بها البدو على اصحاب البناء المدن هي تقدير الاولين لاصحاب الفضيلة .

وبصفتي انسان عاش بين ظهراني البدو فترات متباينة وفي مناسبات عديدة، كما انني كثير الاختلاط بهم بصورة دائمة . لذلك استطيع أن أوكد بأنه ليس لدي

---

١ - جاء ذكر عباس في هذا السفر اكثر من مرة .

البدو شيئاً يغبطون عليه ما عدا تقديرهم لصاحب الفضيلة وسخريتهم بمن يتجرد منها مهما بلغ من المـــال وتلك سجية تأصلت جذورها في نفوس العرب منذ فجر التاريخ[1] . وقد اشاد بذكرها شاعر الاسلام والجاهلية حسان ابن ثابت عندما كان جاهلياً :

نسود ذا المال القليل اذا بدت

مروءته فينا وان كان معدما

رجل نكرة ولكنه موضع احترام

في احدى الايام التي قضيتها بين ظهراني اولئك القوم قدم رجـــل الى نادي مضيفي المرحوم هباس لم يسبق ان رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعـده والأمر الذي أثار انتباهي هو ما ابداه الحاضرون من مظاهر الاجلال والتقدير لهذا الرجـــل ، فمددت بصري خلسة نحو القادم محاولاً ان اتعرف عليه فوجدت انه رجل غريب عليّ ، ولكن طابع الوقار وسيما الرجولة بارزان على محيـــاه ، وبعدما افسح له الحاضرون المكان الذي احتله في صدر النادي وادبرت كؤوس القهوة ، بعد ذلك ساد الصمت قليلاً : كما هي العادة المألوفة عند البدو وهي عدم سؤالهم للقـادم حتى يحتسي القهوة ، ويأخذ بعد ذلك فترة تطول وتقصر بقدر بعد القادم وقربه منهم.

---

١ - نظريتي هذه التي اتحدث عنها محصورة على معرفتي السابقة منذ سبعة عشر سنة ونيف، ولما كانت الجماعات والافراد عرضة للتطور فانني لا استطيع ان اطلق حكمي السابق عليهم اليوم .. وليس معنى استدراكي هذا انني انفي ما قلته اعلاه . وانما اتحدث عما اعرفه سابقاً . واقف عند هذا الحد .

أما هذا الرجل وان كان موضع احترام عندهم جميعاً ولكن الأدلة تشير الى أنه ليس بالغريب عنهم . ولذلك لم تطل كثيراً فترة الصمت أكثر من دقائق محدودة وبعد ذلك وجه له الشيخ هباس السؤال التالي :

– أين نزلت ؟..

– في موضع طيب تشبع فيه الابل ولله الحمد والشكر .

وما ان انتهى الرجل من كلمته هذه التي جاءت رداً على سؤال الشيخ هباس حتى أجابه الحاضرون في المجلس بصوت واحد قائلين :

– عسى ان يكون منزلك مباركاً لأنك سخي بحليب نياقك والرجل الذي يكون من أمثالك نود له كل خير . فقال بهدوء ورزانة :

– ان ما ذكرتموه من سخائي بحليب نياقي فهذا واجب لا فضل لي بـه . ولا سيا بعد ان احياني الله بعدما اماتني وقطفت ثمرة سخائي .

عندما انتهى القادم من حديثه هذا وجم الجالسون جميعاً بينما وجدتني بحيرة من جواب هذا الرجل الذي احياه الله بعد مماته وفهمت من سكوت القوم انهم يعرفون الاشارة التي حيرتني وان الرجل لم يحدثهم بشيء غريب عليهم معرفته..ولما كان الذي كان جالساً عن يميني هو نايف ابن الشيخ هباس الذي لا زال حياً يرزق فقد همست بأذنه قائلاً :

– من هو هذا الرجل ؟..

– من الويبار[1]

١ – الويبار فخذ هباس مضيفي .

– ما اسمه ؟..

– حداد بن مجلوب ..

– ماذا يقصد بقوله بعدما أحياني الله الخ ..

– يشير الى حادثة وقعت معه وهي معروفة لدينا جميعاً وفيهـــا شيء من الروعة .

– ما هذه الحادثة ؟..

– سله ينبئك عنها ..

– انني لم أر الرجل قبل هذه المرة ولذلك يكون سؤالي تطفلاً ولعل الانسب ان يكون السؤال منك .

- وهو كذلك ..

وعند ذلك اتجه نايف الى الرجل وقال :

– هذا أخونا فلان مشيراً إليّ أراد مني أن اسألك عن الحادثة التي أشرت اليها الآن ..

– انت تعرف القضية من أولها الى آخرها ..

– أنا لست بحاجة الى المزيد من معرفتها ولعل أخونا فهـــد لا يعلم شيئاً عن كنهها وعندئذ اتجه نحوي الرجل الوقور الذي يبدو انه في بداية العقد الخامس من العمر وقال :

ـ أيها الاخ ان قضيتي لا تخفى على أي فرد من هؤلاء الحاضرين جميعاً ..

ثم صمت ، ففهمت من صمته ان القضية فيها شيء من الغرابة وان لسان حاله يقول : إياك ان تظنها من نسج الخيال فقلت :

ـ لا شك عندي ان قومك هؤلاء يعرفون القضية ولكنني لا اعرف شيئاً عنها وأحب ان اسمعها من فيك ، فقال :

ـ ربما سمعت بمعركة الشعبية[1]

ـ أجل .

كنت من النفر الذين اصيبوا في تلك المعركة اصابات قاتلة عديدة . ولكن أحياني الله بالرغم من ان الأعداء لم يتركوني إلا وهم يعتقدون انني في حساب القتلى . والواقع انني بقيت أياماً [2] في وسط القتلى كواحد منهم بلا شعور ولا احساس اللهم إلا شعور نسبي لا استطيع ان اعبر عنه إلا ان أقول انه شعور أكمل من شعور النائم وأقل من شعور الانسان عندما يكون في يقظته الكاملة وعندما أبلغ هذه الدرجة التي بين النوم واليقظة ، أشعر كأن انساناً يحلب ناقتي التي لا أنكرها فإذا انتهى منها ناولني حليبها الذي لا أذكر بالدنيا طعماً ألذ منه ، وبقيت تلك المدة أنعم بهذا الغذاء الى ان أعاد إليّ احساسي وشعوري وكامل صحتي فوجدت نفسي أشبه ما يكون بالمرء الذي استيقظ بعد رقاد طويل ، وعند ذلك ذهبت افكر في سر

---

١ ـ وقعة الشعبية في عام ١٣٣٧ هـ وهي بين الاخوان جنود الملك عبدالعزيز بن سعود وبين قبيلة شمر .

٢ ـ كنت احتفظ بعدد الايام التي ذكرها الرجل ولكني نسيتها بعد طول المدة .

حليب هذه الناقة التي كنت أسقى حليبها عندما كنت في تلك الحالة الخطرة .
وإذا بي اذكر انها ناقتي التي وهبتها لايتام توفي والدهم وهو لا يملك من حطام الدنيا درهماً فذهبت ووهبتهم هذه الناقة فظلوا يشربون حليبها ، وهكذا زاد ايماني بالله بأنه لا يضيع أجر المحسنين ومن تلك الحادثة الى يومنا هذا آليت على نفسي ان لا ادخر وسعاً من فعل الخير ما استطعت اليه سبيلاً .

بيتان متشابهان

الأول : بيت الأمة الأسلامية والثاني : بيت الفتيان العرب

-٣٨-

لما كانت هاتان القصتان متشابهتين من حيث الأصل والمعنى .. فقد رأيت أن ادمج بعضها ببعض دون أن افصلها عن بعضها ..

ولنبدأ بالأولى ، لا لان صاحبها لا زال على قيد الحياة فحسب ، بل لأن بيته كما اشرت اعلاه بالعنوان بيت للأمة الأسلامية فهذا يعني أنه اشمل معنى من الثاني الذي هو بيت الفتيان العرب ..

مما لاشك فيه أن كل من زار مدينة جدة من حجاج بيت الله الحرام وهو من الرجال ذوى الالمام بالعلوم الأسلامية ، فلا بد له الا أن يزور بيت الشيخ محمد نصيف الرجل الكريم المضياف ، وأننا إذ ننظر لهذا الرجل بعين ملؤها التقدير والأعجاب فلإنماهو للأسباب الآتية :

اولاً ـ أن بيته كان بمثابة دار ضيافة للوافدين في الحين الذي لم يكن في جدة

أي فندق كان لا حكومي ولا أهلي ..

ثانياً - أن الذي يدخل بيت نصيف لا يقف به الأمر عند الحد الذي يجد فيه مالذ وطاب من شتى أنواع الأطعمة الغذائية فحسب ، بل علاوة على ذلك يجد فيه مكتبة عامرة مليئة من شتى اصناف المؤلفات العلمية وقل أن يطبع كتاب بالعالم العربي الا والشيخ نصيف القسط الأوفر منه خاصة من الكتب الدينية السلفية بالدرجة الأولى ، وكذلك كتب الأدب والتاريخ العربي ..

فالزائر لمنزل الشيخ نصيف يجد الغذائين : غذاء الجسد الصحي وغذاء الروح والعقل معا .

وأكثر ما يكون بيت الامة الأسلامية مزدحماً في أيام موسم الحج ،ففي تلك الفترة يكون بيت نصيف اشبه ما يعبر بالمعنى الذي اشار اليه حسان ابن ثابت في ملوك الغساسنة في ذلك البيت الذي قالت العرب عنه انه ابلغ تعبير وصف به الكرام بمعنى كهذا :

يغشون حتى ما تهر كلابهم

لا يسألون عن السواد المقبل

واعتقد جازماً بأن نصيفاً افضل من الغساسنة ممدوحي حسان ، لان الاولين لهم في كرمهم مطامع سياسية كحكام لا يستقيم لهم الامر الا بما يبذلونه من مطامع سياسية ..

أما الشيخ نصيف فهو رجل أوسع الله في رزقه وليس له من وراء عمله هذا الا أنه يفعل المعروف من اجل المعروف لا يريد من وراء عمله جزاء ولا شكورا ..

كان المرحوم الشيخ حامد[1] فقي يحج سنوياً ، وعندما يأتي الى جـدة قادماً من القاهرة ينزل ضيفـــاً في منزل الشيخ نصيف هو وعدد من اتباعه شأنه شأن العدد الكثير من ضيوف نصيف خاصة ، قبل وجود الفنادق في مدينة جدة ، وقد كان الشيخ نصيف واضعاً عند الشيخ الفقي كتاباً من أجل أن يطبعه من ضمن الكتب التي يطبعها الشيخ نصيف دائماً على نفقته ويوزعها مجاناً ،واعتقد ان المدة التي تم تعيينها بانتهاء الكتاب تجاوزت الحد باكثر من اللازم الامر الذي جعل الشيخ نصيف يغضب من الشيخ الفقي على الرغم من أن نصيفاً حليماً لا يعرف الغضب ، ولكن الذي يبدو أن الكتاب الذي تأخر طبعه نفيس،ولولا ذلك لما غضب نصيف، وقد فهمت أن الفقي لم يتحمل غضب نصيف ولم ينه موضوع الكتاب ايضاً مما جعل نصيفاً يتضاعف غضبه ، ومضت الايام بدون أن ينهي الفقي طبع الكتاب ، وجاء موسم الحج ، والتنافس بين الشيخين قد بلغ أوجه ، ولكن الحامر الفقي فيما اذا وصل جدة هو واتباعه من انصار السنة المحمدية الذين يرأسهم فأين يـذهب ؟.. الفنادق لا وجود لها وقتذاك وحتى لو كانت موجودة فان الغذاء الصحي والفكري والعناية الكاملة التي يجدها الفقي في منزل الشيخ نصيف لا يجدها بأي فندق كان مهما بلغ من الرقي في مظهره ، ولكن الشيخ حامـد الرجل الذكي لم يجعـل للغضب سبيلاً يحول بينه وبين تلك الراحة والعناية اللتين يجدهما في منزل المضياف نصيف ، ولذلك وجد خير وسيلة يتبعها أن جاء الى بيت الشيخ نصيف هوورفاقه، ووضعوا امتعتهم في المكان المعد للضيافة كالمعتاد ، وذلك قبل أن يسلم على صاحب المنزل ، وبعد ذلك جاء الى المجلس العام الذي يجلس فيه الشيخ نصيف وضيوفه ، وأدى التحية التقليدية للجميـع ، ثم اتجه نحو الشيخ نصيف وقال :

ـ دع ما في نفسك عليّ من غضب يبقى على ما كان عليـه ، فغضبك لا يهمني

---

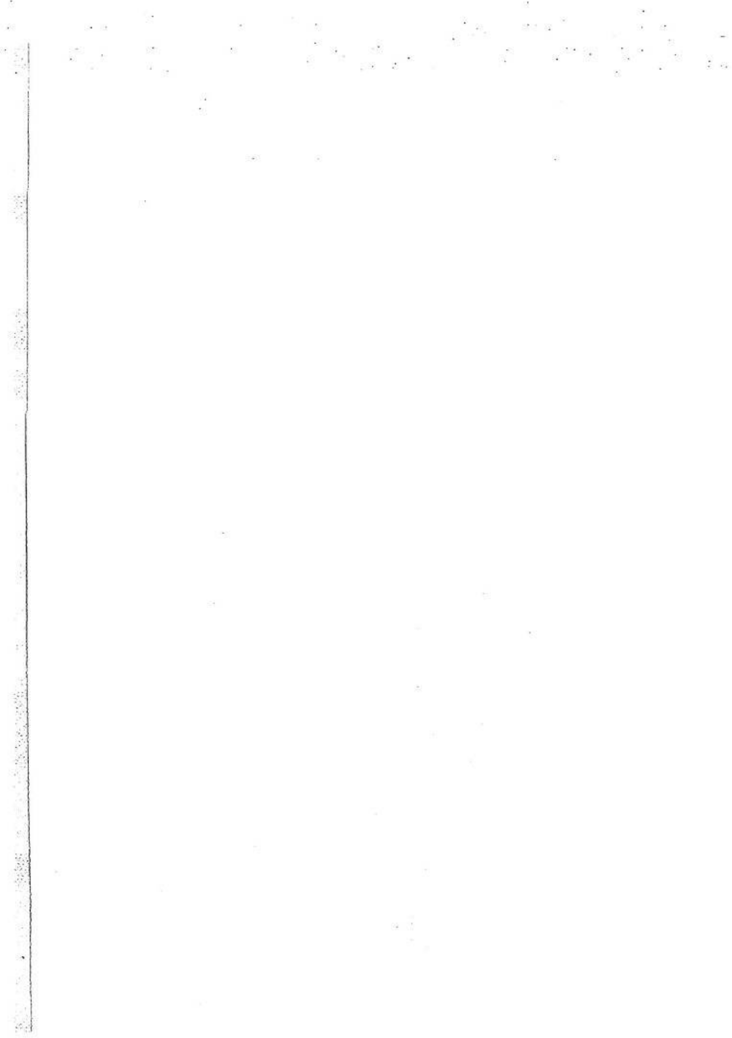
[1] ـ الشيخ حامد من رجال العلوم الدينية في القاهرة توفي رحمه الله عام ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

الشيخ محمد نصيف



يَلُومُونَني في الجُودِ والجُودُ مزنةٌ
اذا هملت في موضع نبت الشُكرُ
اذا المرءُ لم يُنفِقْ من المال وسْعَ مَا
دعتـه المعـالي فالثراءُ هـو الفقرُ

محمود سامي البارودي



سواء رضيت أم غضبت ،ثم مضى وقال عليك ان تعلم بأنني لم آت هنا الى شخصك بالذات وانما جئت الى هذا البيت الذي يعتبر بيتاً للأمة الاسلامية ، وبصفتي رجلا مسلماً فإنه من حقي ان احل فيه ضيفاً رضيت ام غضبت؟

* * *

هذه قصة بيت الامة الاسلامية واليك الآن القصة الثانية ..

بيت الفتيان العرب

-٣٩-

يوجد في مدينة حائل شخص يدعى ناصر السعد ، كان هذا الرجل وضعه الاقتصادي محدود ولكنه كلما وقع بيده صرفه لرفاقه الفتيان من أهل بلدته ..

وكانت الصفات المتوفرة في شخص ناصر ، من شأنها ان تكون كالمغناطيس للفتيان .

أولاً ـ انه يحفظ القصص العربية بصورة يكاد ان يعبر عنه بالعصر الحديث بدائرة معارف ، حتى انه حينما توفي رحمه الله في عام ١٣٤٠ هـ قال من يعرفه من المواطنين ان الشيء الكثير من القصص الشعبية ذات الصلة بشيم العرب ماتت واندثرت معالمها بموته ..

ثانياً ـ انه كان محدثاً لبقاً يحسن الالقاء بصورة جذابة ، هذا بالنسبة للقصص التي يرويها أما بالنسبة للقصائد الشعبية ، فإنه يلحنها تلحيناً شعبياً شيقاً ، حتى ان تلحينه إلى الآن معروف ومعمول به عند بعض الشعبيين ، وخاصة القدامى ..

ثالثاً ـ ان الرجل كان لديه هواية في صنع القهوة فيتفنن فيها بصورة مغرية

لذوي الذوق ، والكيف في شرب القهوة ومعلوم أن الكثير من أهل شبه الجزيرة مغرمون بشرب القهوة ..

رابعاً ـ كان الرجل كريماً ومضيافاً لا يدخر رزق اليوم للغد .

كل هذه المعاني الحيوية من شأنها ان تجعل بيت الفتى ناصر السعد أشبه ما يكون بالنادي الثقافي في عصرنا الحديث ، او بسوق عكاظ بصورة مصغرة محدودة، فكان اكثر رواده من الفتيان ومن الاحياء الموالية له ، فيجتمعون فيه بعد الظهيرة وبعد العشاء ..

وعندما شاء القدر ان يشتت شملهم أو شمل بعضاً منهم حدث شقاق بين فتيين من الفتيان الذين يرودون هذا النادي ، أحدهما يدعى عتيق الضعيفي ويدعى الثاني مبارك بن كديس[1] . فالأول فارس والثاني شجاع شاعر ، وكان السبب لشقاقهما قصيدة غرامية قالها شخص على لسان فتاة بريئة امتدح بها عتيقاً وفي الوقت ذاته نال بها من شخصية مبارك ، ولا أرى داعياً يجعلني آتي بالقصيدة وإنما نكتفي بالشاهد من القصة ، وهو ان الشاعر مبارك هجا عتيقاً ومعشوقته هجاء لاذعاً ، وخاصة بحق المعشوقة البريئة، فوصل الشقاق بينهما درجة أوشك معها ان يفتك احدهما بالآخر لو لم يكن خوفهما من القصاص الشرعي القائل : (النفس بالنفس) ..

والمشكل هنا هو ان هذا الشقاق لم يعد محدوداً بين شخص وشخص فحسب ، بل تطور حتى تأججت نيرانه وطارت عدواه الى درجة تعصب بها للمتنازعين كل فرد يمت لاحدهما بأدنى صلة من صلات النسب أو الرحم أو المصاهرة بل وحتى الصداقة .. فثارت ثائرة النعرات القبلية التي لا تستغرب في ذلك الوقت واصبح لكل منهما حزب يؤيده ويناصره ، بعدما كانوا كلهم كالأسرة الواحدة وبينهم الفة وطيدة الاساس وثيقة العرى ، يضمهم نادي ذلك الرجل الكريم الاديب يتسامرون احياناً

---

١ ـ قتل الاول في بعض الحروب عام ١٣١٦ والثاني قتل عام ١٣٢٧ .

حتى الفجر في ذلك البيت الذي أشبه ما يكون بالمدرسة الحافلة بالأدب الشعبي على مختلف أنواعه ..وكانت مصيبة الضعيفي وحزبه اكبر من مصيبة ابن كديس وذلك ان صاحب النادي بينه وبين ابن كديس صلة رحم الأمر الذي يجعل ابن كديس ورفاقه يتمتعون بهذا النادي ، بينما يكون الضعيفي وحزبه محرومين منـــه وهم كارهون،وفي ذات ليلة مر أحد انصار الضعيفي البارزين وهو المدعو صالح الفلت[1] مر وسط الشارع الذي يقع فيه منزل صاحب النادي، وعندما دنا الفلت من النادي شم رائحة القهوة التي انقطع عن التمتع بها منذ ان وقع الشقاق اللعين بين المتخاصمين، فوقف يتنشق الرائحة التي اسكرته ، وبينما كان واقفاً نشوان من رائحة القهوة ، واذا به يسمع ناصراً يلحن قصيدة شعبية بصوته الجهوري الذي استولى على كيانه بكل معنى الكلمة ، فما استطاع ان يملك شعوره بل ولا عقله ، فكأن الصوت ينقر بقلبه ، فجاء بحركة لا شعورية ودفع الباب بعنف وصاح بأعلى صوتـــه قائلًا :

– يا ابا نادر . (كنية صاحب النادي) .

فقطع الرجل صوته ليصغي الى صاحب هذا الصوت الذي لم يكن غريباً عنه ، وبينما ناصر صامت واذا بالفلت يدخل قائلًا: امض في تلحينك وقل معي ألا قبح الله كلا من الكديسي والضعيفي اللذين حرمانا لذة الاجتماع والأنس بهذا النادي.. ثم استطرد وقال : وليعلم ابو نادر بأن هذا النادي ملك لجميع الفتيـان ولم يكن وقفاً لأقاربك من دوننـا بل وحتى انت لا تملك التصرف به ، وثق انني في الغد سوف آتي بجميع أقاربي السخفاء الذين هجروا نادي الشباب بما فيهم الضعيفي عليه

---

١ – صالح الفلت قتل في معركة الطرفية الكائنة فيعام ١٣١٠ ﻫ بين ابن صباح وابن رشيد.

من الله ما يستحقه هو وابن كديس معاً..

* * *

وكانت النهاية ان جاء بالضميفي واقاربه جميعاً الذين قاطعوا النادي منذ ان بدأ الشقاق بين الفتيين وانتهى الموضوع بصلح وتسامح على الطريقة نفسها التي انتهى بها موضوع الشيخين نصيف والفقي رحمة الله عليهم جميعاً ..

جابر عثرات الكرام

- ٤٠ -

يقال أن ابلغ دعوة قالتها العرب تلك التي دعت بهـا احدى النساء العربيات لابنها المتضمن لفظها ومعناها كما يلي :

(أغناك الله عن منة اللئام ووفقك الى جبر عثرة الكرام) ..

ومما لا شك فيه أن حب المال والحرص على كسبه غريزة متأصلة في طباع بني الانسان ، ولا يستطيع أي عاقل ان يتجرد منهـا ، ولكن الاختلاف يأتي من حيث الوسائل المبذولة في كسبه من ناحية وفي سبيل انفاقه من ناحية اخرى ، واذا لم يكن الغاية من كسبه وانفاقه بصورة مختصرة ان يستغني به المرء عن الحاجة الى اللئام ، وان يجبر به عثرة الكرام ، اذا لم يكن الامر كذلك ، في مذهبي ، فان المال سيكون حجة على صاحبه ومدعاة لعداوة مواطنيه وحقدهم ، وتربص الدوائر به حتى اذا سنحت به الفرصة لم يدخروا وسعاً في مقاومته بشتى الوسائل ومختلف الاسباب ، وكثير من كرماء العرب القدامى وفرسانهم لم يعبأ بالمـال

ولم يسع له ، إلا من اجل تلك الغاية .. وهذا عنترة العبسي يقول :

دعني أنهب الأموال حتـــى
أكف الأكرمين عن اللئام

والعربي الكريم الشهم من شيمته ان يأخذ بيد الكريم ، اذا جفاه الزمان ، ويجبر عثرته من حيث انه كريم حتى ولو كان من اعدى أعدائه ..

ومن المعروف ان العداوة بين قبيـــلة قحطان وقبيلة عتيبة كانت من اعنف واشد ما توصف به العداوات ،وذلك منذ عهـد قديم ،الى ان انتهت تلك النعرات القبلية والغزوات الجاهلية وولت الى غير رجعة ، ولكن رغم ذلك كله نجـد ان احد فرسان قحطان وكرمائهم عندما عضه الدهر بنابه وقسى عليه الزمان بـــلا رحمة ، نجده ذهب الى فارس من فرسان قبيلة عتيبة وحل بداره ضيفاً بدون ان يشكو أمره له وانما بمجرد ما قصده في ساعة محنته عرف العتيبي انـه لم يأت اليه عدوه اللدود بهذه الفترة بالذات إلا وهو مستنجد بمروءته .

وهذا ما وقع فعلاً من سلطان [1] بن هندي ابن حميد رئيس عشيرة برقاء المتفرعه من قبيلة عتيبة ، وبين محمد بن فتنان القحطاني .[2]

ولنأتي اولاً بذكر المحنة التي من نتائجها واسبابها اضطر ابن فتنان بأن يذهب الى ابن حميد ..

كان ذلك في عام ١٣٠٥ عندما هجم أحد الغزاة على أبـل ابن فتيان وظفرو

---

١ – ابن حميد هو اكبر رئيس في قبيلة عتيبه .
٢ – محمد بن فتنان كان يرأس بطنا من بطون قبيلة قحطان يقال له آل روق ..

بنهبا كاملة..وعندما بلغه ذلك الخبر امتطى فرسه وذهب متبعا اثر المعتدين قاصداً أن يسترد أبله ، ولما لحق بهم وحمي الوطيس بينه وبين الغزاة اطلق الغازون سهما أصاب مقتلا من فرسه فسقطت ميتة فوراً .. فعاد الى أهله فاقداً أبله وفرسه .. وكانت المصيبة الكبرى انه حينما وصل أهله وجد غزاة آخرين صبوا غارتهم على أهله بغيابه ونهبوا الرواحل التي تقل بيته في حالة رحيله وبالاضافة الى ذلك إنه وجد زوجته ميتة من اثر رصاصة طائشة من اسهم الغزاة أصابت مقتلا منها ..

فأصبح صفر اليدين من جميع ما يملكه..فلم يرد يداً أن يذهب الى سلطان بن حميد الذي كما ذكرت آنفاًهو من ألد اعدائه واكبر خصومه ،وما ان نزل بساحته حتى استقبله بأقصى ما يمكن أن يستقبل به كريم كريماً من أمثاله. وكان اول عمل قام به ابن حميد هو ان نحر عدداً من نياقه السمان كضيافة له من ناحية،ومن ناحية اخرى قام بتنفيذ ما ينوي القيام به من جبر عثرة مستجده وضيفه ودعا على شرف ضيافته عدداً وافراً من رجال عشيرته .. وعندما انتهى قومه من الضيافة ، وزع على كل فرد منهم عقالاً وقد جرت العادة بحالة كهذه ان من يعطيه رئيس القبيلة عقالاًفإن هذا يعني ان هناك حاجة تشير الى عمل تكتلي اجتماعي يقتضي من كل فرد بأن يأتي بناقة من خيرة ابله ليقدمها لرئيس قبيلته والرئيس بدوره يجمع هذه النياق ويتصرف بها بما يعود نفعه المادي او المعنوي لرجال قبيلته،وبعد لحظات سريعة عاد رجال القبيلة وكل واحد منهم يسوق ناقة (للقحة)[1] فكان المجموع أربعمائة ناقة ومعنى ذلك انها بعد عامين سوف تكون ثمانمائة ناقة بصفة أن النياق كل واحدة منها كما ذكرت حبلى .. وكل هذه الابل سلمها ابن حميد لضيفه ، ولم يقف اكرام ابن حميد لضيفه عند هذا الحد ، بل ذهب وسعى له بالنكاح من فتاة من اجمل فتيات اسرته وهيأ

---

١ يقال للناقة الحبلى التي على وشك ان تضع (لقحة) ..

له جميع تكاليف الزواج من فراش وبيت بناه له من جديد وزوده بالمؤونة الكافية من قمح وتمر وسمن وقهوة الخ ... مما يلزم مصاريف البيت ونفقاته لمدة طويلة المدى ..

وقد عاش ابن فتنان وابن حميد كالاخوين الشقيقين الى أن فرقهما الدهر بموت أحدهما ، والقصة مشهورة ..

الشيء الذي يخل به الكريم حرمه الأبي ! !

- ٤١ -

اذا كان التباين بين بني الانسان بالخلقة ملحوظاً حتى انك لن تجد اثنين صفتها واحدة حتى الاخوين الاشقاء ، وحتى الابن وأبيه ، اذا كان الأمر كذلك في صفة الانسان المـادية فانه من مسلمات الأمور أن يكون البون شاسعاً أكثر بالصفات المعنوية ، بل قد نجـد ولو عن طريق النادر أخوين متشابهين بالخلقة ، ولكننا لن نجد قطعياً أخوين متشابهين بالأخلاق ، بل والأعجب من ذلك هو اننا نجد الشبه بين صفات بني البشر من حيث الخلقة يوشك أن يكون متقارباً الى حد مـا ولا سيا عند بعض الاجناس من بني البشر في بعض القارات كالصينيين مثلاً والجاويين ، بينما نجد هذا الشبه من ناحية الاخلاق مفقوداً في عالم الانسان

والناحية الأهم هي تباين المواهب والاخلاق والاحساس والذوق ، كل هـذه الصفات المعنوية نجد البشر يتباينون فيها تبايناً اكثر بكثير من تباينهم بالخلق المادي . .

وأعظم شيء يسترعي الانتباه في عالم الاخلاق والمواهب هو اننا قل أن نجد انساناً إلا وله خلق طـاغ على جميع صفاته ومواهبه حتى يكاد أن يكون هذا

الخلق هو الصفة البارزة التي ينعت بهـا سواء أكان هذا الخلق حسناً أو قبيحاً ، فمثلاً نجد شخصاً حالما يُذكر الوفاء والصدق يكون اسمه ملاصقاً لهاتين الخلتين ، وآخر حالما يُذكر المكر والدس والنميمة يأتي اسمه بجانب هـذه الاشياء الخ ..

ورجل قصتنا هذه شخص من المستحيل أن يذكر اسمه عند من يعرفه أو يسمع عنه إلا ويذكر بجانب اسمه الكرم العربي الاصيل والسخاء المطبوع بخلقه الذى نوه عنه أبو الطيب المتنبي :

ولنفس أخلاق تدل على الفتى

أكان سخاء ما أتى أم تساخيا

كان سخـاء المرحوم (دهام المذلول[١]) متجاوباً ونبله ومنسجماً وسماحة نفسه ، ومتفاعلاً وأخلاقه الكريمة ، ومطابقاً كل المطابقة لمثله العليا ، وواقفاً جنباً لجنب مع مروءته وشيمته ، كان دهام يشرب الدخان في الحين الذى كان شارب الدخان في شبه الجزيرة أو في نجد بصورة خاصة يعتبر مرتكباً جرماً كبيراً ، فهو لا تقبل له شهادة ولا يؤم الجماعة للصلاة حتى ولو كان أعلم بالكتاب والسنة من غيره ، ولا ينظر اليه بعين التزكية والوقار في مجتمعه .. كان من شأن هذه النظرة الجدية لشارب الدخان في المجتمع الذى يعيش دهام بين ظهراني أهله أن تجعل منـه انساناً منبوذاً محتقراً في محيطه ، ولكن كرم الرجل الذى لا حدود له وسماحة نفسه عكس الآية بصورة جعلت الدخان محبباً الى نفوس كثير من رجال طبقته ،

---

١ – دهام من ساكني مدينة حائل .

وذلك للأسباب الآتية :

وهي أن بيت الرجل أشبه مـــا يكون بناد يضم الكثير من اعيان البلاد والقادمين اليها حيث يجدون بصورة مستمرة مائدة دسمة يختلف شكل هذه المائدة باختلاف أوضاع صاحب النادى من الناحية الاقتصادية، كما تختلف باختلاف فصول السنة .. وكان في كلتا الحالتين يضيف الى مائدته السخية الدخـان المسمى بالشاور الوارد من العراق ، ولكن هذا الدخان الذى يقدمه دهـــام لضيوفه ، لم يكن دخاناً الا من حيث اسمه فقط ، أمـا من حيث رائحته فانه مزيج من الروائح الشذية ، وذلك انه يأمر رجاله قبل أن يحضروا الدخان ، بأن يقدموا أولاً مسكاً وعنبراً فيمزجونها مع الدخان، ثم يضاف اليها ماء الورد ، فعندئذ يكون الدخان جزءاً رابعاً ، فاذا كان تحريم الدخان على رأى محرميه مبنياً على اساس انـــه ذو رائحة كريهة تنفر منه ملائكة الرحمن على حد قولهم ، اذا كان الأمر كذلك فقد زالت العلة واصبحت رائحة الدخان لا وجود لها بين عبق المسك والعنبر والورد ، وعلى هذا الاعتبار زال المحذور واصبحت نسبة الشاربين للدخان الذى يستعمله دهام تنمو بازدياد مطرد وخاصة من رواد ناديه الذي دائماً مـــا يكون حاشداً من الشخصيات البارزة ..

وفي احدى السنوات فرغت يد دهام ووصل من العجز الاقتصادي درجة جعلته لا يستطيع أن يستمر على مـا كان عليه من كرمه الحاتمي ، فالمهات التي ينتدب لها من قبل امارة بلاده والتي غالباً ما يبني وارداته عليها تضاءلت ، والذي يملكه من ابل وغنم تلاشى عدده تدريجياً ، حتى انه لم يبق منـه شيء قطعياً ، فلم يسعه والحالة هذه إلا أن يتراجع عن نفقاته الهائلة ويمد رجله كما يقال على قدر فراشه ..

وأول عملية قام بها لكي يخفف عنه رواد ناديه هي أنه أعلن تركه للدخان ، وباعلانه هـذا بـــدأ عـــدد الزائرين يتقلص رويداً رويداً ، لأن الزوار

أكثرهم تعودوا أن يشربوا في ناديه الدخان أو (العبيق) ومـا دام أن صاحب النادي الذي دربهم على الشرب أعلن تركه له فهم وان لم يتركوا الدخان فانهم ليس من اللياقة ان يشربوه في منزله ..

كان جميع رواد النادي وأصدقاء صاحبه على يقين من العلم ان اعلان ترك دهام للدخان لم يكن حيلة وانما هو حقيقة ، وذلك لما يعرف عن الرجل من الصـدق والصراحة . ولم يعلم رفاقه أن ظروفه القاسية هي وحدها التي اضطرته ان يخلف ظنهم بـه الا في مناسبة طارئة اكتشفها أحـد اصدقائه البارزين وهو المرحوم (فهد أبا الخيل [1].)

والطريقة التي جعلت فهداً يكتشف هذه الحقيقة جاءت على الوجه الآتي :

كان كل من فهد ودهام مسافرين في الصحراء ضمن عـدد كثير من الغزاة في عام ١٣٣٥ هـ وبينما كان القوم مخيمين في الصحراء شم فهد رائحـة العبيق الذى لم يسبق له أن شمه منذ أن اعلن دهام تركه له ، وكان فهد وقتها يشرب الدخان ، وكلما حاول أن يتركه لم تساعده نفسه على تركه ، وعندما شم رائحة العبيق في وقت القيلولة خرج من خيمته ، وظل يسير وراء رائحته التي بدأت تقوده بـلا شعور منـه كما تقود رائحة الماء الابل التي بلغت من الظمأ حـداً من الهلاك ، وهكذا ظل فهد يسير وراء هذه الرائحة حتى تسلق جبلا عالياً ..

وفي هـذا الجبل غار فسيح فأدرك بواسطة قوة حاسة الشم ان مصدر هذه الرائحة يأتي من وسط هذا الغار فقصده حتى اذا دنا منه وجد دهاماً متواريا في قعر ذلك الكهف يمتص سبيله خلسة ،ولم يشعر حتى وقف على رأسه فهد فقام بحركة لا شعورية اخفى بها السبيل ، ولم يعلم ان فهداً شم رائحة دخانه وعرفـه قبل ان يراه صاحبه ..

---

١ - فهد أبو الخيل من مدينة بريدة ولأسرته امارة بلاده سابقاً ..

لم يكن من أمر فهد إلا ان تجاهل الموضوع من اساسه وجعل نفسه انـه جاء لهذا المكان بقصد الرياضة، وفي الوقت ذاته عاهد الله سراً بأن لا يشرب الدخان..

مضت تلك السنة على دهام بقساوتها وضيقها ، وبعد ذلك عاد رزقه الى اتساع وانقشعت عنه موجة الفاقة ، فعاد على ما كان عليه من سخائه المعتاد واعلن انه عاد الى الدخان ، فجاءه رواد ناديه ،وقد استغرب دهام اعراض فهد عن شرب الدخان وكان يظن ان فهداً آخر رجل يعرض عن شرب الدخان، فراح يوجه اليه السؤال التـالي :

– ما كنت اظنك يا فهد تتخلى عن شرب الدخان حتى ولو تخلى عنه جميـع شاربيه في الدنيا ..

فرد عليه فهد قائلًا :

– وانا كذلك ما كنت اظن انني استطيـع ان اتخلى عنه لولا انني رأيت كريماً كأبي نواف[1] الذي اعتقد جازماً بأنه لو بلغت به الفاقة درجة جعلت منـه انساناً لا يملك إلا قوت ليلته ثم بعد ذلك ابتلي بانتهاج احدى الطريقتين : اما ان يبيت الطوى أو ان يتوارى عن اعين رفاقه ويلتهم قوت ليلته خلسة لـكي لا يراه احد يشاركه به ،لفضل ان يبيت الطوى على من ان يتوارى عن أعين الناس ويتناول قوته بمفرده،ثم استطرد وقال ومن تلك الساعة التي رأيتك متواريا بالغار حاكماً على نفسك بالبخل الذي يتنافى وخلقك ومروءتك ، عزفت نفسي عن الدخـــان الذي يصير الكريم بخيلًا واقسمت بأن لا أضعه في جوفي مدى الحياة ..

وهكذا كان بخل الكريم سبباً لعزوف نفس الأبي .. فلو ان فهـداً أبا الحيل

---

١ – ابو نواف كنية لدهام المذلول بطل القصة .

شاهد شخصاً متواريا يشرب الدخان على الطريقة التي رأى فيها دهاماً لما أثر ذلك على نفسيته ، ولكن مصدر التأثير جاء من ان المتواري دهام ، ولو ان الذى شاهد دهاماً بغاره شخص من مفقودي الاحساس والأنفة والاباء غير فهد لما أثرت تلك الرؤية شيئاً على نفسه [1] ..

* * *

---

١ – وبعد ، فانه من المؤسف حقاً ان يذهب دهام ذلك الرجل النبيل الكريم ضحية الاهواء والوشاية وان يقتل غدراً بدون ذنب اقترفه او جريمة ارتكبها ..

وكل ما في الأمر انه عندما كان والياً على الجوف من قبل امير حائل في عام ١٣٣٩ هـ بلغه الخبر ان امارة حائل استسلمت للمرحوم الملك عبدالعزيز ، ولما لم يتأكد من صحة الخبر فقد بعث من عنده رسولين يحملان رسالتين متباينتين واحدة باسم امير حائل والاخرى باسم الملك عبدالعزيز وأكد على رسوليه بأنه في حالة عدم ثبوت الخبر القائل بسقوط حائل فانهما يذهبان الى اميرها محمد بن طلال ابن رشيد ويسلمانه الرسالة ، اما اذا ثبتت الاخبارية فانهما يسلمان الرسالة للفاتح الجديد عبد العزيز ابن سعود ، والذي نقل إلي هذه الرواية هو المرحوم شامان القرفي الشمري الذي يؤكد انه احد الرسولين اللذين بعثهما دهام ، وعندما دنا الرسولان من حائل وبلغهما الخبر ان البلاد وان كانت محاصرة ولكنها لم تستسلم عند ذلك اتجه الرسولان الى حائل ، وهما في طريقهما الى اميرها صادفهما رجال للامير ، فوجدوا لدى احد الرسولين المدعو الضميري الرسالتين فجيء به الى الامير محمد ابن طلال وضرب عنقه . وفي الوقت ذاته بعث الامير ثلاثة من جلاديه ليقتلوا دهامـــا ، ولما لم يستطيعوا قتله بصورة علنية بحكم انه محبوب عند اهل الجوف ، فقد ادعى هؤلاء القتلة انهم جاءوا ليحملوا رسالة موجهة اليه من الامير ، وبقدر ما كان القتلة الثلاثة مضمرين لهذا الكريم السوء والغدر ، بقدر ما كان مبالغاً باكرامهم حيث نحر لهم جزوراً .. وفي الحين الذي خرج به من المسجد مؤدياً صلاة العصر وقاصداً ان يأمر رجاله ليهيئوا المائدة لضيوف الشرف ، في تلك اللحظة اطلق عليه الغادرون رصاصاتهم من خلفه فسقط على الارض ويقول الرواة انه حاول ان يستدني مسدسه الذي كان على جنبه الأيمن ولكنه ما استطاع بحكم ان الغادرين تمكنوا برصاصاتهم من ضحيتهم البريء .. فكان آخر حركة منه حسبما نقلتها من شهود عيان هي ان اشار بكلتا يديه فاتحاً =

= ابهاميها وسبابتيها بصورة شعر المشاهدون ان تلك الاشارة علامة استفهام،اي كأنه يقول علام هذا الغدر؟..

ويؤكد الرواة انه ما من واحد من الغادرين الثلاثة الا وسبق له ان برك على مائدة دهـام مراراً عديدة والجدير بالذكر هو ان كلا من الآمر بالقتل ومنفذو الغدر لقوا ربهم فمنهم من قتل بعده بشهرين ، ومنهم من قتل صبراً بحالة اسوأ من الموت الذي لقيه دهام .. وخلاصة القول ان القتلة لم يبق منهم الآن الا واحد على ابواب الموت او هو كالميت ..

ولقد كان السبب لهذا التعليق هو الدفاع عن عرض ذلك الرجل الكريم النبيل الذي أراد بعض الناس ان يصمه بالخيانة وهو منها بريء ، والفضل كله يعود لشامان الذرفي الذي هو احد الرسولين والذي نجا من قتل محمد بن طلال باعجوبة،فهذا وحده الذي نقل لي الخبر الأكيد الذي جاء بالسياق . ولولا ان البحث في هذا الشيء يطول ويطول بصورة تبعد بنا عن صميم الموضوع..لولا ذلك لشرحت الحقيقة التي كان من شأنها ان ذهبت نفس ذلك الرجل الطيب ضحية بريئة .. رحمه الله وعفا عن ظالميه وقاتليه .

هذا امتحان من الله

- ٤٢ -

يمتحن الله جل شأنه عباده بالمال كما يمتحنهم بالفقر ، فالفقير مطالب بالصبر ، والغني مطالب بالشكر ، والحديث الشريف يقول : الغني الشاكر افضل عند الله من الفقير الصابر ، والطغرائي يقول :

وقدر شكر الفتى لله نعمته

كقدر صبر الفتى للحادث الجلل

والصبر الجميل الذي يطالب به الفقير هو الاحتمال وعدم الشكوى ، والشكر الذي ينبغي من الغني هو عدم التبذير والأخذ بيد الفقير ومواساة الضعيف ، والشاهد هنا حادثة فقير وقعت مع رجل أوسع الله في رزقه ، رواها لنا الاخ سليمان القاضي نقلاً عن احد رجال دمشق الثقاة وملخصها كما يلي :

عندما كان الشيخ زاهد [1] الالشي يتولى القيام بمهمة القضاء في بلدة دوما المجاورة لمدينة دمشق جاء له شخص قروي فقال :

- ان لدي دعوى .. فقال القاضي :

- على من تدعي ؟ فقال المدعي :

- على الذي ابتلاني بكثرة الاولاد كما ابتلاني بقلة الرزق وشهودي على ذلك الجيران وبيت المؤونة [2] .

فقال له الشيخ :

- اذهب الآن وعد عليّ غداً ظهراً لكي أنظر في دعواك ..

ذهب الرجل من عنده وفي صباح الغد ذهب يعمل في حقله ، وعندما قرب الموعد المعين جاء الى منزله ليبدل ثياب الحقل بثياب انظف منها الى حد ما . وعندما دخل منزله قابلته زوجته قائلة له :

- من هو الذى أقمت عليه الدعوى ؟..

فقال :

- من الذى اخبرك بذلك ؟.. فقالت :

- جاءني عمال يحملون عدداً من اكياس الطحين والارز والسكر والسمن وأدخلوه غرفة المؤونة وقالوا :

---

١ - زاهد من سكان دمشق وهو والد جبل الذي تولى الوزارة في سورية في عهد حكومة الشيخ تاج الدين الحسني..

٢ - هذه العبارة نقلتها عن القاضي بنصها حرفياً كما وردت اعلاه.

– اذا جاء زوجك فقولي له هذا أرسله لك الذى اقمت دعواك عليه ..
فذهب القروى للقاضي وعندما سلم عليه وبادله الشيخ السلام وقال :

– انني اطلب ابطال الدعوى التي اقمتها بالأمس لأن المدعى عليه انصفني ، ولا أرى ما يدعو الى شكواه الآن .. فقال القاضي [1] :

– بل سوف لا يكون لك سبيل الى الشكوى عليه لا اليوم ولا غداً ..

ويؤكد لي الراوى الاخ سليمان القاضي بأن الشيخ الالشي لم يقف بـه الامر الى الحد الذى بعث للقروى بتلك المؤونة بل ناوله وقتها عدداً من الجنيهات الذهبية ليشتري فيها كسوة له ولأبنائه ، والاعظم من ذلك انه رتب له مقرراً يتقاضاه لا مدة حياة الشيخ الالشي فحسب ، بل كتب في وصيته بأن يدفع للقروى عشرة جنيهات ذهباً كل سنة ..

والجدير بالذكر انـه حتى هذا التاريخ بالذات ١٣٨٣/١٠/٤ – ١٩٦٤/٢/١ والمقرر الذى اوصى بـه الشيخ يدفع لابناء القروي وذلك بواسطة ابن الشيخ الاستاذ جميل الالسي الذى نفذ وصية والده بكل أمانة ، وعلينا ان نعتبر عشرة جنيهات في ذلك الوقت بعشرة اضعافها الآن ..

وبعد فقد فاتني بأن اشير في أول الحديث الى ان القروي عندما جاء الى الشيخ الالشي بدعواه وجه اليه الشيخ السؤال التالي :

– ألم يسبق ان رفعت دعواك هذه الى القضاة الذين تولوا هذا المنصب من قبلي؟
فقال القروى :

– بلى كنت رفعتها الى اكثر من قاض من القضاة السابقين ولكن كانت دعواي

---

١ – ارجو ان لا يكون التباس عند القارىء بين اسم القاضي الشرعي الشيخ زاهد الالشي وبين سليمان القاضي راوي هذه القصة .

تمود عليّ بدون جدوى وبدون حل من أي واحد منهم[1]..

* * *

١ – وربما كان القضاة السابقين الذين رفع القروي شكواه اليهم ربما كان وضعهم الاقتصادي لا يشفع لهم بالعمل الذي قام به الشيخ الالشي وهذا مما يجعل ايماننا يتضاعف بحكمة الشرع الاسلامي تلك الحكمة التي تشير بأنه من اللازم بأن يكون القاضي الشرعي غنياً .. ومما لا شك فيه ان الشيخ الالشي لو لم يكن غنياً بماله كتاته بنفسه لما استطاع ان يحل المشكلة على النهج الذي اورناده بالسياق ، والشيء الذي اعتقده ان ايمان الالشي بربه وقناعته برزقه واعتماده على الله اكثر بكثير من اعتماده على ماله ..

حينما كنت غازياً طردناك

وبعدما اصبحت عاجزاً ضيفناك

-٤٣-

هذه الحادثة يقع تاريخها بين ١٣١٥ – ١٣٢٠ ﻫ وبطلها رجل يدعى (مكازى[١] ابن سعيد) وهو مشهور بالكرم وانما ازدادت شهرته بمناسبة عملية قام فيها ربما كانت فريدة من نوعها من حيث اسلوبها التقليدى .

من العادة المعروفة ان الذئب عندما يشعر بالجوع يتخذ عدة وسائل :

اولاً انه يحاول ان يهجم على غنم أية قبيلة قريبة اليه ويكون هجومه غالباً خلسة فإن تعذر عليه ذلك بواسطة كلاب القبيلة فلا يدخر وسعاً من ان يلتجيء الى وسيلة ثانية وهي انه يذهب ويعوي بصوت جهوري يسمع من مسافة بعيدة. والحكمة من عويله هي ان صوته هذا اشبه ما يكون بعلامة الاشارة الى بقيـة الذئاب ليستنجد

١ – مكازى من قبيلة شمر نجد ومن عشيرة عبدة وهو رئيس فخذه .

بهم فكل ذئب يسمع هذا الصوت فما عليه إلا ان يهرع مسرعاً لتلبيته وإذا وصله ضم صوته الى صوت الاول وهكذا دواليك حتى تتجمع كل الذئاب التي في تلك البقعة من الارض ومن ثم يكرون جميعاً على الغنم التي طرد منها رفيقهم الاسبق حتى يستحصلوا على فريستهم منها بالقوة .. هذا إذا لم تكن كلاب القبيلة كثيرة ولديها من القدرة ما يمكنها من طرد الذئاب مهما كثرت ..

وحديثنا هنا حول احد الذئاب الذي هجم على غنم كازي بن سعيد سالف الذكر ولكنه عاد مفلساً من فريسته بالرغم من هجومه العنيف حيث تصدت له كلاب القبيلة وطردته ، ولم يسعه إلا ان ذهب والتمس الوسيلة الثانية أي انه راح يعوى ليستنجد برفاقه الذائاب فلبى نجدته جميع الذئاب التي في تلك المنطقة، فهجمت على القبيلة كلها هجوماً موحداً بصورة عنيفة ومرعبة ، ولكن كلاب الحي كانت لهذه الذئاب بالمرصاد فكررت بالهجوم ثانية وثالثة ورابعة ولكن محاولة الذئاب كانت محاولة يائسة بحكم وجود كلاب القبيلة التي تصدت لرد هجومها وطردتها .. وعندما يئست الذئاب قفلت راجعة ولم يبق إلا الذئب الاول الذى كان السبب الأساسي بمجيء الذئاب ولم يكن الآن بوسعه ان يعوى كعوائه الاول الداوي . وإنما ظل يعوى عواء العاجز المهزوم المستكين الذي يبدو انه جائع جوعاً شديداً وكأنه يعبر بعوائه هذا بأنه يستجدى لاعوائه الأسبق الذي يحمل طابع التحدى والتهديد . ولذلك تبدل الموقف بالنسبة لهذا الوحش من عواء ذئب يريد ان يأخذ فريسته بالقوة الى عوائه الحالي الذى يريد ان يمن عليه احد رجال هذه القبيلة بأية لقمة تقدم له لتقوم بأوده ..

وعندما تبدل موقف الذئب من عويل التهديد والوعيد إلى عويل الاستجداء

والاسترحام ساعتذاك تبدل موقف رئيس الفخذ من تركه الكلاب تقاوم الذئب وتطرده الى أن اعتبر الذئب ضيفاً جائعاً يطلب القرى فيجب عليه أن لا يبيت الطوى بعدما اعلن استسلامه واستجداءه ولذلك راح واستنجد بفتيان من شباب قبيلته ليتولوا طرد الكلاب عن مقاومة الذئب قائلاً لهم : عندما كان الذئب يحاول أن ينهب فريسته بالقوة تركنا كلابنا تتولى مقاومته حتى ذهب واستنجد بجميع ذئاب الفلاة التي سمعت نداءه واستجابت لندبته ثم كرر راجعاً هو واعوانه فتصدت لهم كلاب الحي بكاملها حتى هزمتهم وعادوا مدحورين ، والآن هاهو صوت الذئب قد تبدل من عويله المدوى الصارخ الذي كان يرسله في أول الليل معبراً عن ضراوته واستعداده لنهب فريسته بقوته وقوة رفاقه إلى صوته المزيل الفاجع الذي ينم عن ضعفه وعجزه . ثم استطرد ابن سعيد فقال : لقد اصبح الذئب الان ضيفاً لنا بحكم استجدائه الحالي ، وليس من الشيمة أن نتركه بعد ذلك يبيت الطوى ، فقال له أحد رفاقه المعبر عن رأيهم جميعاً :

ـ وماذا تريد أن نفعل الآن ؟..

فقال : أريدكم أن تطردوا الكلاب عنه بينما اذهب بنفسي واختار شاة من اطيب غنمي واذكيها بيدي واقدمها له ضيافة معتبراً إياه كأى انسان ضافني وقدمت له ضيافة مماثلة كهذه الضيافة ..

فوافقه رفاقه على رأيه فذهب ونفذ العملية بينما رفاقه تولوا حراسة الذئب من الكلاب حتى انتهى من قراه ..

وقد اطلق على صاحب هـذه العملية اسم (معشي الذئب) أى أن سخاءه لم يقف به الى حد أكرامه للضيوف من بني الانسان أينما كانوا وانما ذهب به الى أكرام الوحوش الجائعـــة ، التي استنجدت بكرمه واستعطفت مروءته فلبى نجدتها ..

حينما يكون العمل خالصاً لله !!

- ٤٤ -

ورد في الحديث الشريف عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام قوله : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امريء ما نوى » ..

يقول علماء الحديث ان هذا الحديث من أبلغ الاحاديث النبوية الصحيحة من حيث أهمية معناه المنطقي . وذلك لأنه أثبت بصورة جلية بأن الأعمال لا ينظر اليها من حيث إطارها الخارجي مهما بلغت من السمو والعظمة ، وإنما ينظر اليها من زاوية واحدة ألا وهي حسن النية وسلامة القصد ، ولكن المشكلة العويصة بهذا الشأن هي أن سلامة النية والاخلاص بالعمل ، هذان الأمران هما سر خفي كامن في خفايا النفس . ومن المستحيل جداً ان يعلم بها أحد الا الله تبارك وتعالى . .

واذا كان العاملون قليلين . فان المخلصين أقل . وذلك أن العاملين المخلصين هم الذين لا يريدون من وراء اعمالهم جزاء ولا شكوراً ، ولذلك نجد الذي يقوم بعمل خالص محض نجده يخفي اعماله كما نخفي عيوبنا عن الناس . ومما لا شك فيه هو أن أي انسان يقوم بعمل ما ويجاهر بأعماله بصورة علنية أو يحب ان يعلن

عنه فانه سيكون هدفاً لأسهم المتهمين له بعدم اخلاصه بأعماله حتى ولو كان مخلصاً في سريرته . والسبب هو ان بعض العاملين أشبه ما يكونون بالتاجر المحترف الذي قل أن ينفق شيئاً ولو كان ضئيلاً إلا ولديه من العلم اليقين الراسخ بأنه سوف يربح اضعافاً مضاعفة عمـا انفقه ، أما أن ينفق التاجر درهماً أو اقل من الدرهم دون أن يعرف ان وجه المادي المحسوس مضمون مائة بالمائة فهذا في مـا اعتقد أشبه ما يكون بالمستحيل ، بل قل هو المستحيل بعينه . ومـا يقال عن التاجر في حالة كهذه يقال ايضاً عن السياسي الذي لا يمكن ان ينفق درهماً إلا وهو عارف لماذا أنفقه؟ ولأي غاية أنفقه من غاياته السياسية بل ربما لا ينفق شيئاً من ماله حتى يمهد له من مقدمات الدعاية الرنانة قبل انفاقه وبعـد انفاقه حتى لا يبقى مخـلوق في الارض إلا سمع ذلك الضجيج بل وسئمت اذناه سماع تلك الجعجعة الطويلة العريضة . .

أما أن يقوم السياسي بعمل من اعمال المروءة للمروءة فقـط وينفق الاموال الطائلة ثم بعد ذلك يفعل المستحيل حتى لا يعلم أحد بما بذله بل ويطلب تعهداً ممن ينفذ عمله بأن يخفي الأمر ويكتمه فهـذا ولا شك مما يدعو للاستغراب ، بل والى الاعجاب بسياسي يكون من هذا النمط اعجابـاً لا يقل عن إعجابنا بهذا التاجر الذي يطيب لي ان أوافي القاريء باسمه وعمله كما آتي بعده بذكر اسم السياسي . .

أمـا التاجر فهو المرحوم عبد الله الحليسي [١] من مدينة بريده وهو من قبيلة بني تميم ، وقد قضى زهرة شبابه وكهولته في دمشق حتى توفاه الله فيها ، كان يعمل تاجراً بالابل ولم يكن وارثاً للمال الذي يعمل بـه كتاجر بل كان عصامياً جمع ثروته من عرق جبينه وكسب يمينه .

---

١ – عبد الله الحليسي هو عم عبد الرحمن الحليسي سفير المملكة العربية السعودية حاليـاً في روما . .

حدثني الشيخ سليم اللبني الدمشقي الاصل والذي لا يزال على قيد الحيـــاة ، يقول الشيخ سليم :

« لما كنت إماماً لجامع بلوزه الكائن في دمشق في حي الميدان في الحقلة منذ سنين طويلة فقد حضر في اوقات الصلاة الشيخ عبد الله الحلبسي وعندما انتهينا من الصلاة دنا مني الرجل فقال : ما لي أرى مسجدكم هذا خرباً وعلى وشك ان يتداعى سقفه » .. فأجابه الشيخ سليم قائلاً :

– كان بودنا ان نرممه أو نعمره من جديد ولكن لم نستطع لا هـذه ولا تلك ..

فقال الحلبسي : من الآن عليك أن تباشر هدمه وبنيانه من جديد ونحن علينا تكاليف كل ما يلزم لعمرانه بشرط أن يكون ذلك سراً مكتوماً بيننا لا يعلم به إلا الله ..

هذا وقد نفذ الشيخ سليم ما أمره به الحلبسي كما نفذ الاخير ما وعده به من دفع جميع تكاليف المسجد الذي هدم وبني من جديد على نفقـــة ذلك التاجر المحسن ، وأهم مـــا في الأمر هو اشتراطه أن لا يعلم أحد عن قيامه بهذا العمل الروحي ، وقد ظل السر مكتوماً بين الحلبسي وبين الشيخ سليم الى ان توفي الاول ، وعندئذ رأى الشيخ سليم أن من الافضل اعلان هذا الجميل لصاحبه لكي يقتدي فيه الأخيار الصالحون ..

هذا وقد أفادني الشيخ سليم ان الحلبسي رحمه الله زاره بعد ان عمر المسجـد بمدة وقال له : أتدري اني بعد أن وفقت لقيامي بعمران بيت الله ان الله قـــد أعاضني عن كل درهم انفقته في سبيل ذلك العمل رزقــاً طيباً يزيد اضعافاً مضاعفة عما انفقته في سبيل ذلك العمل الروحي ..

هذا هو التاجر الذي يلذ لي الاشادة بعمله الذي يعبر لا عن طيب نفسه وسلامة

طويته فحسب بل وعن اخلاصه بعمله الذي حرص على كتمانه لكي يكون عملاً خالصاً لله والى الله ..

* * *

أما السياسي فهو المرحوم فؤاد حمزة [1] اللبناني الاصل والذي كان وزير دولة ومستشاراً للمرحوم الملك عبد العزيز آل سعود رحمه الله ولم يخطر ببال أي أحد أن سياسياً كفؤاد حمزه يتبنى عمران مسجد على نفقته ثم مع ذلك يحرص ان لا يعلم أحد عنه بعمله هذا ..

لقد كنت من ألصق الناس به وكنت اعرف عنه الشهامة والرجولة وسعة الأفق، ولكنني لم أفكر قط في انه يقوم بعمارات مسجد من جديد على نفقته وبصورة سرية مكتومة .. اللهم إلا في اليوم الذى توفي غفر الله له وذلك انه عندما حمل جثمانه وجيء به الى المسجد القريب من منزله في رأس بيروت ليصلى عليه وعندما وقف الامام الشيخ سعدى ياسين قاصداً ان يكبر على جثمانه التكبيرة الاولى .. في تلك اللحظة تنهد الامام ثم انحرف على المأمومين فقال : ترحموا معي على هذا الميت لأن هذا المسجد العامر كنت أجمع من المحسنين الليرة والليرتين لعمرانه وعندما جئت اليه عارضاً ورقة تشمل اسماء المتبرعين قاصداً أن يساهم بما تجود به مروءته فما كان منه إلا أن مزق الورقة وقال : عمّر هذا المسجد على نفقتي شريطة أن لا يعلم أحد انني المتكفل ببنيانه ..

والحقيقة انه ما ان قال الشيخ سعدى ياسين الذي لا زال حياً يرزق هذه

---

١ - توفي فؤاد حمزه رحمه الله في ٢٢-١١-١٩٥١ م في مدينة بيروت إثر نوبة قلبية .

الكلمة ثم انصرف وكبر حتى شعرت عند كل من حضر الصلاة بحافز يدعوهم للدعاء والترحم لصاحب الجثمان الراحل الذى كان لديه من السريرة بينه وبين ربه أكثر مما هو ظاهر لنا ..

وهكذا نجد كلا من الحليسي وفؤاد حمزة يتفقان بالأعمال الطيبة الصالحة بالرغم من اختلافهما بالمهنة والنشأة ..

وقد فهمت فيما بعد من مصدر موثوق ان المرحوم فؤاد عمّر مدرسة بقرية الاشرفية الكائنة خلف معمل القزاز في دمشق لفقراء تلك القرية، كلفته ثلاثين الف ليرة سورية . ولم اقف عند حد رواية الراوي بل ذهبت بنفسي لأتأكد من صحة الرواية . فوجدت الخبر أكيداً والمدرسة قائمة حتى الآن شاهدة له كشهادة شيم العرب لأى محسن كان من ناطقي الضاد ..

* * *

وفي الحين الذي كان كتابي هذا تحت المطبعة زارني في الفندق في بيروت الاستاذ محمد علي الطاهر صاحب جريدة الشورى المحتجبة التي كان لها صولات وجولات ضد دول الاستعمار ، وفي احدى زياراته المترددة التي يقصد من ورائها مساعدتي على تصحيح بعض ملازم هذا الكتاب ، سمعني اتحدث بالهاتف مع حرم المرحوم فؤاد حمزة ، وبعدما وضعت سماعة الهاتف ، جرى الحديث بيني وبين الطاهر في ذكر فؤاد حمزة ، فقلت له انني كاتب عنه في هذا الكتاب كتابة وجيزة ، فقال :

ـ اتعرف الرجل معرفة راسخة ؟ فقلت :

ـ عرفته في اول حوادث فلسطين عام ١٣٦٧ هـ أي قبل وفاته بأربع[1]

---

١ – سوف اذكر في آخر هذه الكتابة المناسبة التي تعرفت بها على فؤاد حمزة .

سنوات تقريباً . فقال :

ـ أما تعرفه قبل ان يأتي الى بلادكم ؟ قلت :

ـ لم يكن لي وقتها من السن ما يخولني معرفة الرجال ، ثم اردفت قـائلا هل تعرف فؤاداً قبل أن يأتي الى المملكة السعودية ؟ فكأنني بسؤالي هـذا ارتكبت خطأ في نظر الاستاذ الطاهر حيث انحرف الي ونظرني شزراً،ثم قال بصوت مرتفع أتظن انني لم اعرفه قط ، إلا بعدما جاء الى المملكة ونال عندكم ما ناله من الجـاه والمال ؟ ولما كنت اعرف الاستاذ الطاهر وأعرف عنه الشدة التي تبلغ من العنف احياناً درجة تتجاوز الحد المعتدل ، ولما كنت اعرف ايضاً انه سجل تاريخي خاصة في معرفة القضايا السياسية العربية منذ نصف قرن ونيف ، ومعرفة الكثير من الرجال الذين قدر لهم ان يساهموا في القضايا العربية منذ ان كانت لا تزال في المهد، فقد سألته عما يعرفه عن فؤاد حمزة فقال : انني أعرف فؤاد حمزة معرفة جيـدة ، وقد كان الرجل وطنياً مخلصاً في عروبته الى اقصى حـــدود الاخلاص ، ثم مضى الطاهر في حديثه إلى ان قال : لقدكان المرحوم فؤاد في شبابه يزود جريدة الشورى بالمعلومات السرية عن نوايا الانجليز ضد الوطن السليب فلسطين عندما كان استاذاً في ادارة المعارف الفلسطينية أبان عهد الانتداب البريطاني .

وبما ان الاستاذ محمد علي الطاهر كما أشرت آنفاً يعد تاريخاً حافلاً بمعرفة الرجال العاملين . وغير العاملين في القضايا العربية،وبما انه اشبه ما يكون بالشيخ ابن حزم الظاهري احد رجال الحديث المشهورين . الذي قال عنه رجال الحديث انه شديد للغاية بتزكيته لرواة الحديث الى الحد الذي جعل المحدثين يقبلون تزكيته للرجـال بدون ذلك التردد الذي يبدونه بتجريحه لمن يحكم عليه بعدم الصدق والعدالة .

أقول : بما ان الاستاذ الطاهر في رأيي يعد من طراز ابن حزم الظاهري من حيث شدته بشهادته بالتزكية ـ فقد عدت أسأله ثانية واستوضح منه عما يعرفه عن فؤاد حمزة فرد عليّ قائلا :

ما دمت تتحرى الحقائق وتحرص على تدوين كل ما يمت الى الشيم العربيـة بأدنى صله ، فإنه من الأجمل ان ابعث لك برسالة خطية تحت امضـائي ، على أن اذكر لك فيها بصورة موجزة الشيء القليل من الذي أعرفه عن فؤاد حمزة .

فذهب من عندي ثم عاد في صباح الغد وقدم إلي الكتابة الآتية :

بيروت ٢٨ : رجب ١٣٨٤

أخي الشيخ فهد المارك حفظه الله ورعاه

أراك لا تزال تدون اموراً كريمة في مؤلفاتك الثمينة عن شهامة رجال امتنا، وانك نوهت بشيء من شيم المرحوم السيد فؤاد حمزة اللبناني الأصل ، وكيل وزارة الخارجية السعودية سابقاً والسفير سابقاً ايضاً ..

واني بمناسبة عملك الطيب هذا،ارجوك ان تضيف الى سجل فؤاد حمزة عندك، انه لما جيء به من لبنان لفلسطين استاذاً بادارة المعارف قبل اربعين عاماً ، وقبل ان يلتحق بخدمة الحكومة السعودية ، كان فؤاد يتصل سراً بجريدتي « الشورى » التي كانت تصدر اذ ذاك في مصر،ويوافيها باسم مستعار بكل ما يراه لنفع فلسطين وجيلها الطالع،ثم كان يخاطر بمنصبه ويتتبع رحمه الله خطط ادارة المعارف الاستعمارية ويكشفها ويدبج للجريدة الفصول الطوال عنهـا ، وينبه الأمة اليهـا ، ويحذر الفلسطينين من خطرها وسوء عواقبها ..

وقدبذل الانجليزفي فلسطين وجواسيسهم في تلك الايام كل جهد لمعرفة اسم ذلك الكاتب المطلع تام الاطلاع لينزلوا به شديد الأذى ، وأقله قطع رزقـه وحبسه ثم طرده من البلاد ..

ومنذ ٤٠ عاماً حتى الآن وأنا أكتم ذلك السر الذي تناسيته ثم نسيته ، الى ان أيقظته أنت بمدوناتك الصادقة الرشيقة.

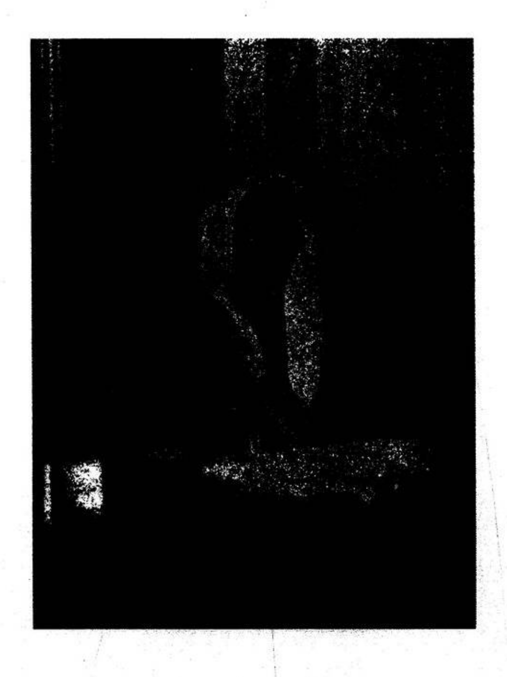
فمن هنا يمكن للسعوديين وغيرهم معرفة السبب الذي من أجله كان فؤاد محترماً

في البلاد السعودية ، وفي جميع الاوساط السياسية العربية الاخرى ، من رسمية ووطنية وشعبية ،حتى عند الساسة الاجانب ايضاً،ولم يعرف عنه ولا مرة واحدة انه أتى بعمـــل غير جدي أو بتصرف غير محترم ، ولذلك كان المرحوم الملك عبدالعزيز آل سعود يحب فؤاد حمزة ويجله ويصغي اليه ويثق به ، ويعهد اليه بالأمور الهامة ، وحل المشاكل الصعبة ، ولذلك فإنه يستحق التخليد في كتابكم الممتع « شبه العرب » كل الاستحقاق ، رحم الله الجميع ، وأطال في حياتكم .

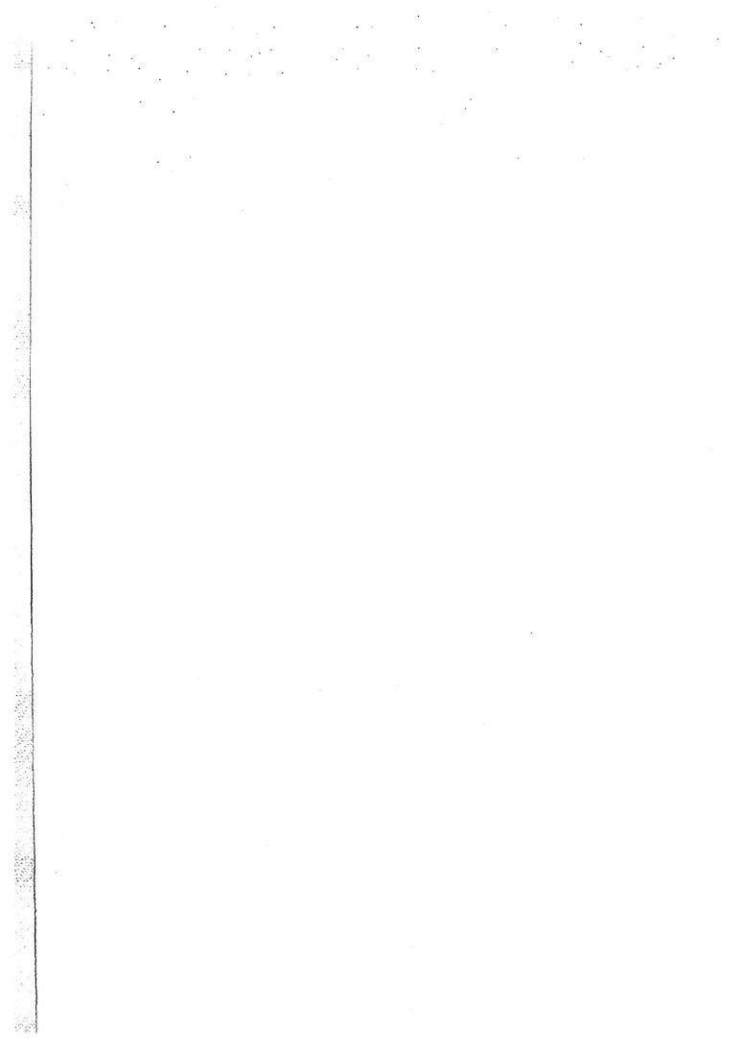
أخوكم : محمد علي الطاهر

كيف عرفت فؤاد حمزة ؟ ولماذا أحببته ؟

سوف تضطرني الاجابة على حرفي الاستفهام أعلاه ، الى الحديث عن شيء ذي علاقة مباشرة في حوادث فلسطين المؤلمة ، تلك النكبة المحزنة المريرة التي طالما حرصت كل الحرص على عدم الحديث عنها لا جهلاً مني بمعرفة كنهها، وإنما لكونها من أتعس الذكريات التي شاهدتها بحياتي، ولئن كان كل عربي مخلص عندما يذكر تلك الكارثة سوف يشعر بلا شك بمزيد من وطأة الألم القاسي والحسرة المرة،حتى ولو لم يشاهدها رؤية العين ، إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للعربي الذي لم ير تلك الكارثة عن كثب ، ولم ير هولها كشاهد عيان، إذن فكيف يكون انعكاس الفعل في نفسية عربي مرهف الحس جم العاطفـــة رأى الكارثة بعيني رأسه . ونظر الى ما حلّ باخوانه الفلسطينيين من المأساة التي داهمتهم فجأة ، وشاهد منظر اولئك اللاجئين الحزين ، ورأى كل فرد منهم هارباً بنفسه منفرداً ،شيوخاً وعجائز أطفالاً ونساء ثيبات وابكاراً ، كل من هؤلاء واولئك شردوا من بلادهم ، فظلوا هائمين تائهين يغشاهم ذهول أفقدهم رشدهم ، فكأنهم سكارى وما هم بسكارى ولكن ظلم



المرحوم فؤاد حمزه



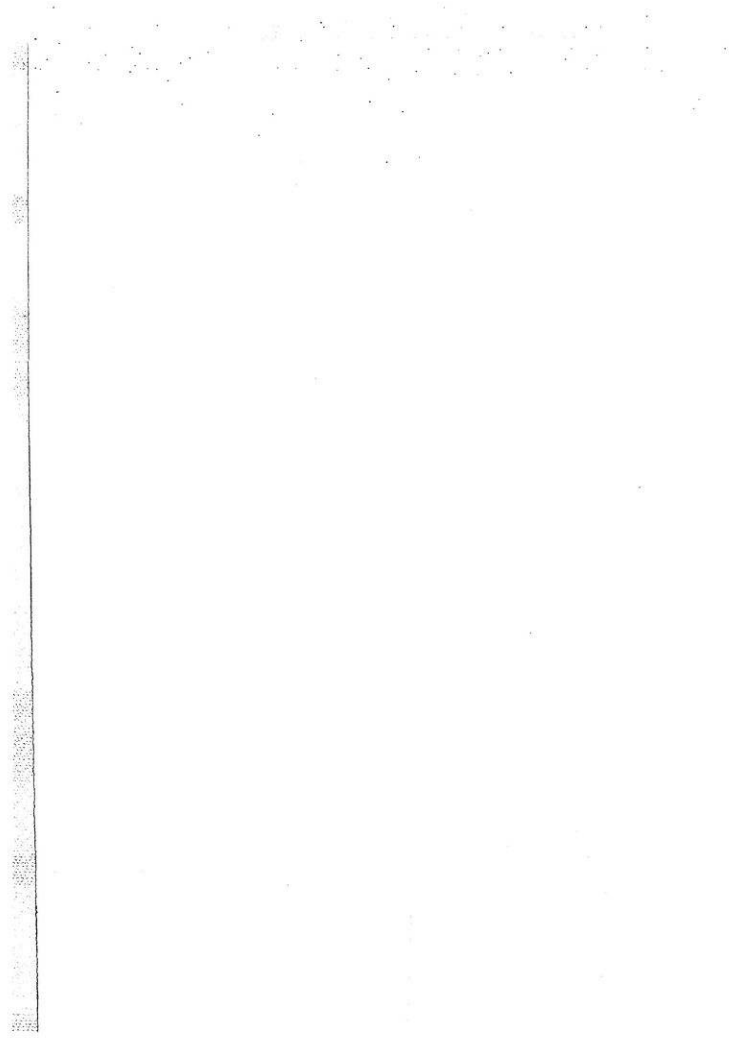
اذا ما فعلتَ الخير فاجعله خالصاً

لربكَ وأزجر عن مديحك السنا

فكونـك في هـذى الحياة مصيبةٌ

يعـزيـك عنهـا أن تـبرّ وتحسنا

ابو العلاء المعري



الصهاينة وأعوانهم أفقدهم وعيهم ، فلا يعلم الشيخ ماذا حل بأبنائه ؟ ولا تعلم المرأة أين مصير بعلها ؟ أهو أسير ؟ أم قتيل ؟ أم جريح ؟ أم مشرد ؟ ولا يعلم الاطفال ولا الفتيات ماذا جرى لوالديهم ؟ أهم في عالم الأموات ؟ أم في غياهب سجون العدو؟[1] أم مشردون طريدون، أجل كيف يكون انعكاس الفعل في شعور العربي الذي رأى هذه المأساة كشاهد عيان ؟ وعاشها بآلامه وعلى اعصابه، بل وفي بعض الأحيان على عبراته ودموعه ؟ أجل كيف يكون احساس العربي ، ولا سيا الجندي المحارب ، الذي يشعر ان عار الهزيمة لصق به لا على يد رجال شجعان أكفا لا يعاب بهزيمتهم له كما يعاب على الهزيمة التي مني بها على يد أنذال جبناء كاليهود اولئك النفر الذين يعتبرهم كافة البشر أنهم أحط بني الانسان خلقاً . وأوضعهم نفساً وأجبنهم قلباً ، أعيد تكرار هذه المعاني مرة ومرات اخرى فأقول : كيف تكون الانفعالات النفسية في كيان من عاش هذه المآسي وشاهد تلك المصيبة المروعة . كجندي هزمه أحط خلق الله لا بفضل شجاعتهم ولكن بفضل تخاذل بني قومنا ليس إلا ان شعوري المرير من أثر تلك البلوى المؤلمة . هو الذي جعلني أرفض طلب الاستاذ (عارف العارف) صاحب كتاب (النكبة) حينما بعث الي عدة رسائل يطلب مني أن اوافيه بما لدي من معلومات عن (حرب فلسطين الفاشلة) ومن بين الرسائل التي جاءتني منه رسالة بواسطة السيد علي الصقير عندما كان قنصلاً للملكة العربية السعودية في القدس ، فكان جوابي للاستاذ العارف يتضمن عدم رغبتي في الحديث عن هذا الموضوع الذي أرى ان الحديث عنه مزعج لشعوري . ومهيج لأعصابي .

وقد اكتفيت بأن بعثت له بأسماء الشهداء والجرحى من المتطوعين السعوديين، ثم بعد ذلك أعاد الاستاذ العارف مرة ثالثة طلبه بأن ابعث له صورتي الشمسية ،

---

١ - انظر كتاب المؤلف قالها الصهاينة وصدقها مغفلو العرب صفحة ٢٧ .

فأجبته معتذراً :

وبعد لئن اضطررت بأن أسهب في الكتابة في هذا الشأن فما ذلك إلا من أجل ان أصل الى الجواب على حرف الاستفهام الذي جاء في مقدمة العنوان الفرعي — كيف عرفت فؤاد حمزة .

فجوابي على ذلك هو أن معرفتي بفؤاد حمزه بدأت منذ عام ١٣٦٧ هـ وقد كانت المعرفة بسبب رسالة جاءتني من الملك السابق سعود عندما كان ولياً للعهد كجواب على رسالة حررتها له في ٢٨ - ٨ ١٣٦٧ هـ ولما كنت المؤسس لفوج المتطوعين السعوديين ايام حرب فلسطين الحامرة، وضابط ارتباطه ومعاوناً لآمره فقد بعثت لولي العهد الامير سعود آنذاك الرسالة المشار الى تاريخها اعلاه ، والمتضمنة طلبي لما يلي :

١ — ان تتعهد الحكومة العربية السعودية بكفالة أطفال الشهداء من جميع المتطوعين السعوديين الذين استشهدوا في ميدان الجهاد المقدس كما تتعهد بكفالة وإعالة جميع السعوديين المجاهدين الذين اصيبوا في ميدان الحرب بأصابة اقعدتهم عن العمل واكتساب الرزق .

٢ — ينبغي على الحكومة السعودية بعدما تضع الحرب أوزارها أن تعتبر كل مواطن سعودي تطوع في حرب فلسطين جندياً نظامياً ضمن الجيش السعودي النظامي وان يمنح كل من نال رتبة مكتسبة في الجهاد رتبة زيادة على رتبته الاولى ..

٣ — رجوت الحكومة السعودية بعد أن تضع الحرب أوزارها أن تتعهد بالحج مجاناً وعلى نفقتها لجميع الضباط والقادة من جميع المجاهدين في جيش الانقاذ الذين أبلوا بلاء حسناً في الجهاد لا من السعوديين فحسب، بل من جميع المجاهدين من أي

بلد من البلدان العربية [1].

وقد رد عليّ ولي العهد على رسالتي هذه بالجواب الذي يطيب لي أن أوافي القارىء بنصه الحرفي لفظاً ومعنى موضحاً كما يلي :



بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم . . . [illegible]
التاريخ . . [illegible]
المشفوعات ————

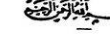
من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى المكرم فهد المارق سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته · بعده وصل الينا كتابكم تاريخ ٢٨/ ٨/ ١٣٦٧ وعلمنا جميع ما ذكرتم بارك الله فيكم ونحن انشاء الله سنعمل كل ما فيه ترغيبا للناس وخاصة رعايانا وحيثان قوادْ حمزة موجود الآن بطرفكم فانتم انشاء الله تتصلون فيه وتخبرونه بكل ما يلزم نحو حج رؤساء وضباط قوة الانقاذ وما هو عدد الراغبين في ذلك ومن مسألة كفالة اطفال شهداء رعايانا ومن كيفية جمع الراغبين للانضمام الى قواتنا خاصة من رعايانا حتى يخبرنا قوادْ بما يلزم في ذلك ونحن نقدر لكم اجتهادكم واخلاصكم هذا ما لزم تعريفه والسلام،،

---

١ - اقولها للتاريخ وهو ان الحكومة العربية السعودية هي الحكومة الوحيدة من جميع الدول العربية التي تكفلت باعالة المصابين بعاهات اقعدتهم عن كسب العيش لا من رعاياها المجاهدين فحسب، بل حتى من المجاهدين اليوغسلافيين المسلمين الذين تطوعوا في حرب فلسطين ، فانها تصرف لهم مرتبات شهرية يستلمونها من السفارة السعودية في دمشق حتى يومنا هذا، كما ان الحكومة السعودية هي الحكومة العربية الوحيدة التي نظرت للمجاهدين من ابناء وطنها بعين الرعاية والعطف والتقدير الذي منحته لجيشها النظامي المحارب في فلسطين ، وذلك انها رفعت كل ذي رتبة من الضباط المجاهدين رتبة اضافية على رتبته الاول ..





الرقم . . .

التاريخ ..

المشفوعات

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى جناب المكرم فهد الطارق سلمه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد وصل الينا كتابكم تاريخ ١٣٦٨/٢/٤ وعلمنا ما ذكرتم بشأن انحلال جيش الانقاذ ونحن باذلين الجهد فيما يختص بالجنود المنتسبين لحكومتنا وانشاء الله من قريب تتم المسألة على ما يرام هذا ما لزم بيانه والسلام؟



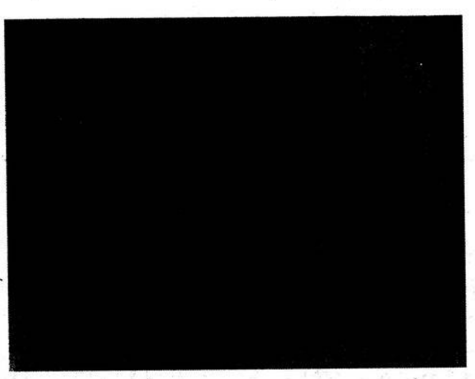
بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ..... [illegible]
التاريخ [illegible]
المشفوعات ______

من سعود بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى المكرم فهد المارق سلمه الله
السلام وبعد من قبل ترفيع ضباط الفوج السعودي فنحن انشاء الله عند وصولهم
الى بلادنا سنرفع اصحابها بالرتب رتبة واحده يكون معلوما والسلام ،،

ولنعد الآن الى صميم الموضوع فأقول :

كان الأحرى أن أكتفي بالرسالة الأولى ذات العلاقة بما له صلة بالبحث الخاص باسباب معرفتي بفؤاد حمزة وأن اقف عند هذا الحد وانما هناك امر اضطرني على أن أضيف الى هذه الرسالة « هاتين الرسالتين اللتين وجدهما القارىء آنفا وانني اذ اضيفها على الرسالة الأولى ذات الختم فإنما هو من أجل الأسباب الآتية : منها أن الرسالة الأولى كانت موقعة بختم الملك سعود السابق عندما كان ولياً للعهد ، ولئن كان الختم واضحاً وبينا في اصل الرسالة الموجودة عندي الآن فإنه لم يكن بارزاً بصورة واضحة في الكليشه المأخوذة عن الرسالة ، ومن المعلوم ان سعوداً عندما كان ولياً للعهد فإنه ظل يستعمل الختم حتى عام ١٣٦٨ هـ وبعد ذلك بدأ يستعمل الامضاء كما هو واضح في هاتين الرسالتين . وهذه أحد الأسباب التي الجأتني الى اضافة الرسالتين . وأما السبب الثاني فهو انه جاء في الرسالة رقم ٣٥ ٥٦ تاريخ ١٣ / ١٢ / ١٣٦٨ هـ . جواباً على رسالتي تاريخ ٤ / ٢ / ١٣٦٨ هـ وفي رسالتي هذا المعنى نفسه الذي جاء بالمادة رقم ٢ من رسالتي الاولى المشار اليها اعلاها أي انني طلبت ضمانة من الحكومة بأن تعتني برفاقي المجاهدين بالعناية نفسها التي تمنحها لجنودها ، وكان طلبي هذا بعد أن حل جيش المجاهدين المسمى وقتها « جيش الأنقاذ » ، وأما الرسالة الثانية رقم ٦٣٠٩ تاريخ ٣ / ٥ / ١٣٦٨ فإنها جاءت جواباً على رسالة بعثتها اليه وهي تتضمن المعنى نفسه الذي ورد في الفقرة رقم ٢ من رسالتي الأولى السالفة الذكر الى التي تشير الى ترفيع كل ذي رتبة من اصحاب الرتب الى رتبة اضافية وفي الرسالة الواردة من ولي العهد ما يفيد بإنه أي ولي العهد موافق على طلبي بدليل العبارة التي جاء نصها الحرفي كما يلي « وبعد من قبل ترفيع ضباط الفوج السعودي فنحن أن شاء الله عند وصولهم الى بلادنا سنرفع اصحاب الرتب برتبة واحدة يكون معلوماً والسلام



صورة تاريخية للمؤلف قائد الفوج العربي السعودي ضمن جيش الإنقــاذ
لحرب عام ١٩٤٨ في فلسطين مع مجموعة من المجــاهدين الســعوديين

ومن معاني هذه الرسالة التي فيها عبارة تشير الى أن اتصل بفؤاد حمزه من أجل تحقيق مطالبي السالفة الذكر ، من أجل ذلك ، بدأت معرفتي بفؤاد ..

هذا هو جوابي على حرف الاستفهام الاول ، أما جوابي على حرف الاستفهام الاخير والقائل : « ولماذا أحببت فؤاد » فالجواب على ذلك هو انني أحببته فعلاً من أجل الأمور الآتية :

منها انني عندما اتصلت به بشأن ان ابحث معه في الاشياء التي لها علاقة في تعهد

الحكومة لأطفال الشهداء الخ .. فانني قد وجدت الرجل ايجابياً وفعالاً وذلك انني ما أن عرضت عليه مطالبي التي جاء ذكرها في السياق ، فبجرد ما سمعها قام على الفور لا بتأييدي بمطالبي من الناحية النظرية ، بل أيدني عملياً حيث رفع من عنده رسالة للملك الراحل عبد العزيز رحمه الله ، طالباً فيها ارسال سيارات من المملكة لتأتي من أجل حمل الجرحى المجاهدين الى بلادهم ، وقد تم ذلك فعلاً وبوقت أقرب مما اتصوره حيث بعث الملك عبدالعزيز سيارات لحمل الجرحى الى المملكة واعالتهم كما وضع مرتبات شهرية تجري لهم الى يومنا هذا ..

هـذه احدى الأمور التي حببتني بفؤاد ، ومن الأمور الاخرى التي حببتني له هو انه بعد مضي مدة من خسارتنا للحرب في فلسطين ، بعد ذلك بدأت أفكر طويلاً بالأعمال التي يمكن اذا قام فيها العرب ضد اليهود أن تؤدي الى نتيجة ولو لم يكن من شأنها الا اخلال أمنهم واحداث الاضطراب ، وازعاجهم . وبالتـــالي توقيف سيل المهاجرين اليهود القادمين من الخارج ــ اعتقاداً مني ان اليهودي الذي ينوي الهجرة الى فلسطين ، فانه سوف لا يقدم عليها فيما اذا شعر أن الامن مهدد وأن البلاد في حالة فوضى واضطراب بسبب نشاط المجاهدين العرب ..

وقد خمرت في ذهني هذه الفكرة الرامية الى قيام نخبة من الفتيان المغامرين الفلسطينيين على ان يكون العمل الذي يقوم به هؤلاء المغامرون يتضمن ادخـال الهلع والخوف والرعب في قلوب الصهاينة المعتدين ، من الأعمال الارهابية.

وقد هداني تفكيري هذا بان اتصلت بجماعة من خيرة اخواننـا الفلسطينيين . وعلى رأسهم السيد سليم الحسيني الذي يقوم الآن بأعمال تجارية في المملكة. والمجاهد المعروف المدعو أبو ابراهيم الصغير ، ونفر آخرون منهم من توفى الى رحمـة الله

ومنهم من لا يزال على قيد الحياة .

وبعد أن تبادلنا الرأي في عدة جلسات مستمرة بعد ذلك خرجنا جميعاً بنتيجة واحدة وهي موافقتهم الرأي على فكرتي هذه من حيث المبدأ، كما أبدى لي الاخوان معرفتهم بكثير من الشباب الفدائيين الفلسطينيين الذين لديهم القدرة الكاملة على قيامهم وتنفيذهم لهذه المهمة خير قيام ولهذا قال الرفاق ان هناك مشاكل كثيرة تحتاج الى تذليل ، ولست هنا بصدد ذكر جميع المشاكل التي فكرنا انها ستكون حجر عثرة في سبيل تحقيق امنيتنا المنشودة وعلى كل فقد بدا لنا أن أهم تلك المشاكل الناحية الاقتصادية وهي قضية المال الذي نستطيع ان نوفره لتمويل الفدائيين ، ولإعالة أسر من يستشهد منهم ، وفي إحدى الجلسات الدورية التي داومنا عليها فترة من الوقت ، أبديت رأيي للرفاق على ان نذهب معا للمرحوم فؤاد حمزة ، ونأخذ رأيه في الموضوع من ناحية ، ومن ناحية اخرى نستعين بجاهه عند الملك الراحل عبدالعزيز ، ووفقاً لهذا الرأي الذي اتفقنا عليه جميعاً ذهبنا معا لفؤاد حيث وجدناه في مزرعته الكائنة في الاشرفية - التي تبعد عن دمشق مقدار ثمانية كيلومترات تقريباً. وبعد أن قدمت اليه الرفاق الذين لم يعرف منهم أحداً ما عدا سليم الحسيني الذي قال انه يعرف والده المرحوم السيد حسين الحسيني عندما كان رئيساً للبلدية في القدس ، بعد ذلك شرحنا له الغاية التي جئنا اليه من أجلها فكان الجواب منه على الفور الجملة التي أورد نصها الحرفي كما يلي (اعتقد ان النخوة العربية لم تمت في نفوس العرب الى الحد الذي يجعلهم يستسلمون بدون ان يبدوا أي شيء يقلق راحة اسرائيل) .

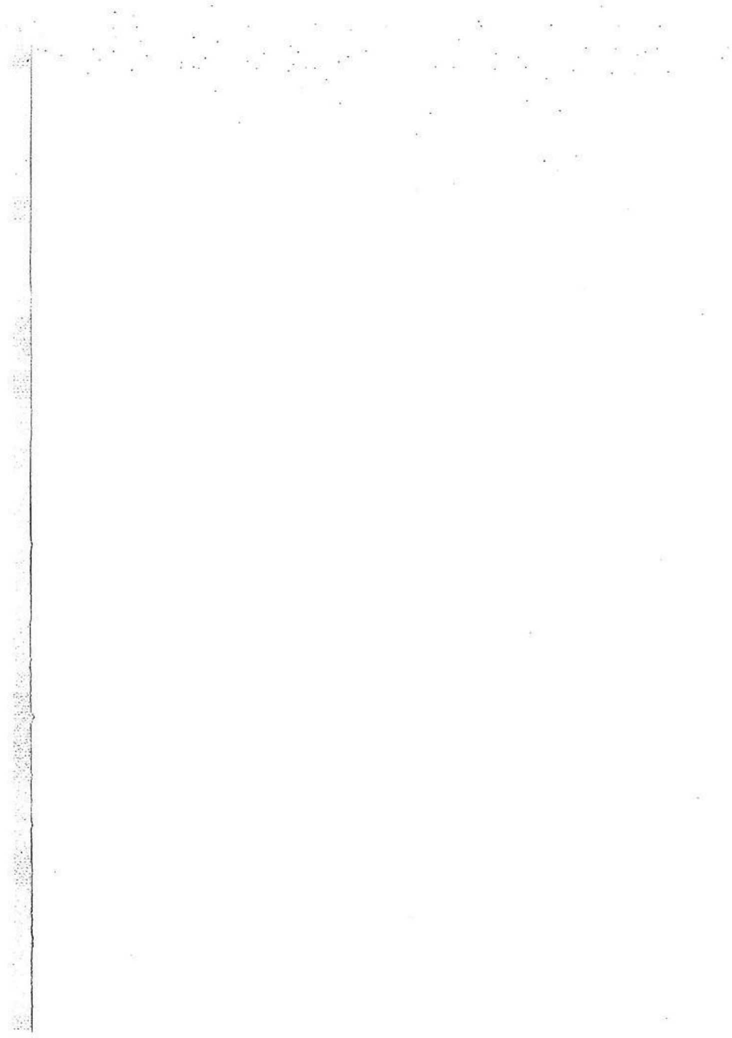
ثم أتبع هذه الكلمة بكلمات فهمنا من معانيها أن الرجل موافق على رأينا وانه

سوف يبذل جهده لتحقيق ما نصبو إليه .

وبعد هذه الكلمة التي قالها فؤاد أيقنا جميعاً أن الرجل سوف يبذل جهده عند المرحوم الملك عبدالعزيز ، ولما كان فؤاد موضع ثقة عند الملك الراحل ، وقل أن يذهب رأيه سدى ولا سيما في القضايا العربية . فقد أيقنا جميعاً أن الرجل سوف يتبع القول بالعمل . كما أيقنا بأن اهدافنا وآمالنا سوف تتحقق ولو بصورة محدودة. فذهبنا من عنده ونحن متفائلون خيراً في نجاح مهمتنا. ولكن القضاء والقدر حالا دون ما ينوى القيام به . وذلك ان الرجل عاجلته منيته بعد ذلك بمدة وجيزة رحمه الله وعفا عنه وعن كل مواطن مخلص .

هذه بعض الأمور التي أحببت إلي فؤاد حمزة. وهناك أمور لا أرى ما يدعو الى شرحها الآن ولهذا اكتفي بالاشارة الى ما عرفته عنه من المقدرة الكامنة على مواجهة الاحداث – وقد شاهدت منه ما أدهشني من ابتكاره للرأي السديد في حله لمعضلة سياسية لا يسعني ذكرها الآن، وأعظم شيء اعجبني منه خاصة بما له علاقة في كفاءته السياسية وبعد نظره . هو ثقته بنفسه بصورة تختلف كثيراً عما عرفته عن بعض من قدر لي ان أعمل معهم في الأمور السياسية ، فبينما أجد فؤاداً مثلاً لا يتوقف من أن يأخذ رأي من هو أقل منه منزلة وكفاءة في الأمور التي لم يكن ملماً بها كإلمام ذاك الذي أصغر منه ، ثم أجده بعدما يأخذ الرأي من هذا الذي كما ذكرت أقل منه كفاءة وعلماً ومنزلة ما عدا انه أعلم منه في الموضوع نفسه الذي أخذ به برأيه – أجده لا يخفي الامر فيما اذا جاءت مناسبة ما من ان يذكر بأنه استشار في رأيه ذلك الرجل – بينما أجد بعض من سنحت لي الظروف بأن اعمل معهم في حقل الاعمال السياسية أجدهم يأخذون

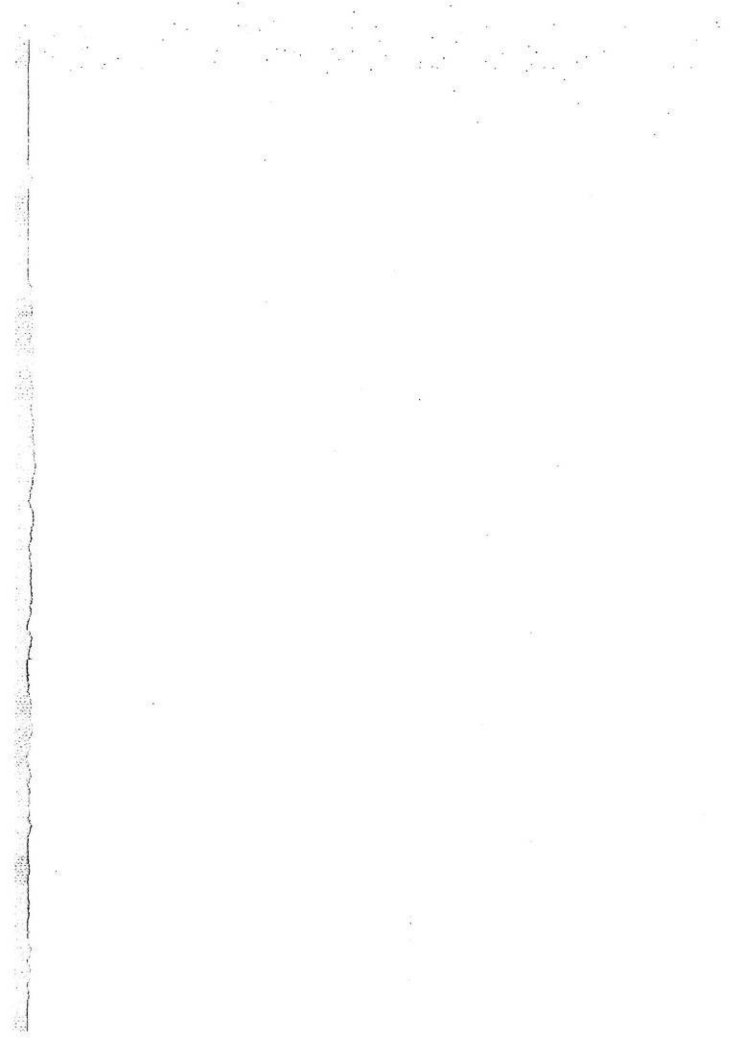
الرأي ممن هو أدنى منهم . ولكنهم عندما ينفذون الرأي الذي جاءهم عن غير مجهودهم ، أبعدهم لا يخجلون فيما اذا جاءت مناسبة ما ان ينكروا ويجحدوا الرأي الذي اقتبسوه ، لا بعدم حضور الرجل الذي هداهم الرأي فحسب ، بل حتى انهم ينكرونه بوجوده ، ولئن دل ذلك على شيء فانما يدل على ثقة المرحوم فؤاد بنفسه ، بقدر ما يدل على عدم ثقة النفر الآخرين بأنفسهم ..



شكر واعتراف بالجميل

أقل عتابي أيها العقل انني
مخلف قلبي عند من فضله عندي

انظر الصفحة التي بعد هذه



بما انني قد وضعت في هذا الجزء بالذات فصلاً خاصاً باصطناع المعروف والمكافأة عليه ، وذكرت بإحدى القصص ذات العلاقة بهذا الفصل الحكمة القائلة : « اذا كان اصطناع المعروف فرض كفاية فإن المكافأة عليه فرض عين » كما انني وضعت عنواناً للقصة رقم ٢٩ وصفحة ٢٢٩ في هذا الجزء وفي الفصل المذكور اعلاه جاء نصه كما يلي : « الفضل يملك الكريم وان قل » وقد ذكرت في صفحة ٢٢٣ العبارة الآتية : « والفضل في نظر الكرام جزء لا يتجزأ ، قليله كثير » وكما ان اعادة الدين المادي واجب شرعاً فإن المكافأة على المعروف واجب خلقاً وأدباً ومروءة وتلك ظاهرة أمر بتنفيذها محمد عليه الصلاة والسلام فقال : « من أسدى اليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تجدوا فادعوا له ومن معنى الحديث الشريف يبدو ان المكافأة على المعروف من اوجب الواجبات.

لما كنت اعتقد بصواب هذا المبدأ أو اؤمن به كإيماني بالحق - كما انني اعتقد ايضاً ان أدنى مراحل المكافأة على المعروف هو اعلان الشكر لمسديه ، فإنني أرى لزاماً عليّ بأن اعلن شكري في حقل شيم العرب الخالدة لشخص غمر كياني بمعروفه من دون ان يكون له أقل حاجة بمكافأتي له . وأعني به ذلك الرجل الذي لا أريد ان أنعته بما ينعت به من صفات ذات طابع رسمي ، لأنه هو نفسه يعتبر هذه النعوت دخيلة على عاداتنا وتقاليدنا وقد قال عنها في احدى خطبه : لسنا بالملوك ولا بالأباطرة . كما قال في مناسبة اخرى : « انني حينما اسمع كلمة صاحب

الجلالة أو الجالس على العرش فإنني أتأثر من ذلك أشد التأثير ، ومما لا شك فيه بأن رجلاً كفيصل بن عبد العزيز آل سعود لا يقيم لمثل هـــذه النعوت وزناً .

هذا الرجل الذي لو لم يكن له علي من اليد البيضاء إلا انه هيأ لي الاسباب ووفر لي الوسائل التي ساعدتني على ابراز « شيم العرب » من طي النسيان الى عالم الخلود .

ففيصل هو الوحيد بعد الله الذي وفر لدي عاملين مهمين في الحيـاة وهما البلغة ، والأمـان ، وهذان العاملان هما من أهم الاسباب التي ضمنت لديّ الاستقرار الفكري .

* * *

ومن بدهيات الأمور ان الكاتب مهما توفرت لديه ملكة الكتابة ، ومهما إتسعت مداركه ونمت مواهبـــه فإنه لا يستطيع ان ينتج ما لم يتوفر لديـه من الناحيـــة الاقتصادية الشيء الذي يقوم بأوده . كمـا يتوفر لديه من الناحية المعنوية الاطمئنان النفسي والاستقرار الفكري .

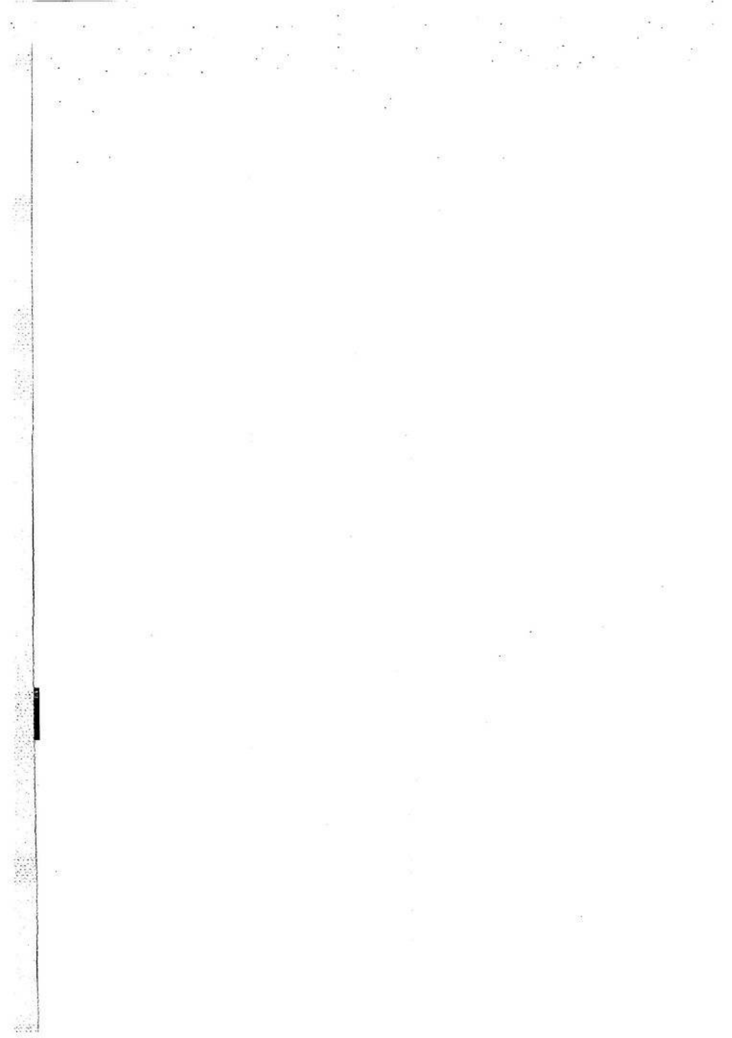
ولئن كان فيصل وفر لديّ هذه المعاني فإن ما اسداه إلي من معروف لم يكن محصوراً في هاتين الناحيتين فحسب – بل هناك أمور ليست بأقل أهمية مما ذكرت – فمنها ما لا يسعني شرحه . ومنها ما اكتفى بالاشارة اليها بما يلي :

أولاً أن محترفي الوشاية في فترة من الفترات لم يدخروا وسعـــاً في نيلهم من عرضي بشتى الاتهامات ومختلف الأباطيل التي كانت مصدراً لجاههم الزائف .

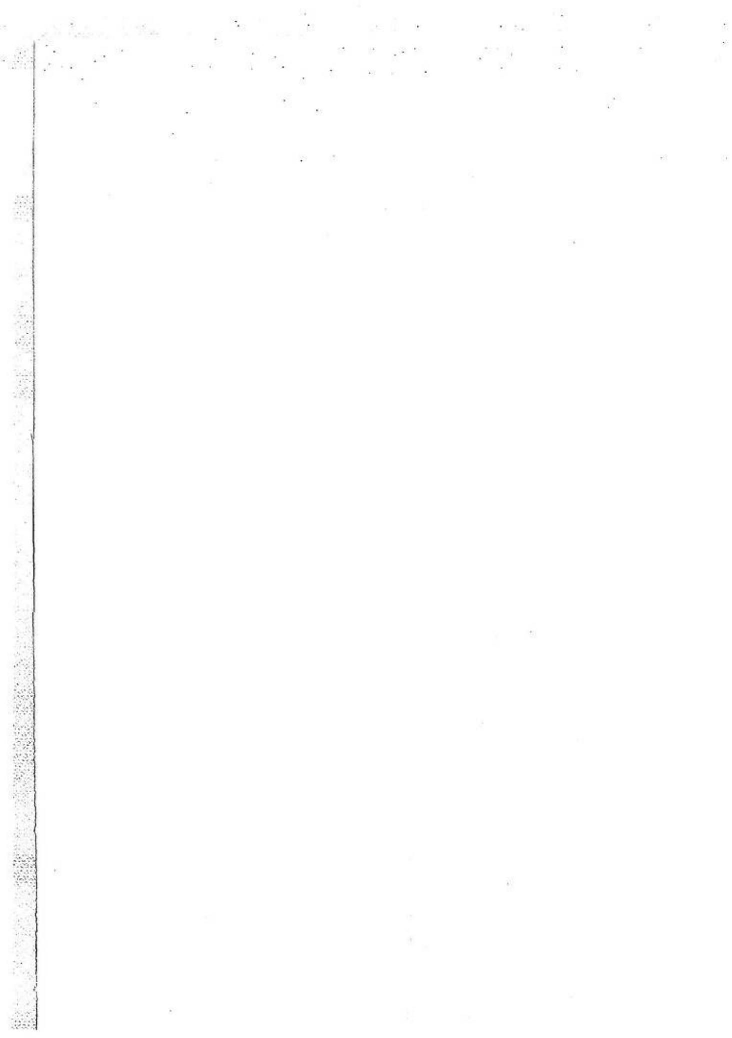
فيصل بن عبد العزيز آل سعود



بديهتـــه وفكرتـــه ســواء
اذا مـــا نابـه الخطب الكبـــير



(وأحزم ما يكون الدهر رأياً)
اذا (عيّى) المُشَاورُ والمشيرُ
وصدرٌ فيـــه للهمّ إتساعٌ
اذا ضَاقت بما فيهــا الصـدورُ
لعلي بن الجهم



وكانت تلك الافتراءات تشبه الى حد بعيد ما قاله معروف الرصافي

« وأبشع الكذب عندي ما يمازجه » * شيء من الصدق تمويهاً على الفكر

ولكن تلك الأكاذيب المموهة التي خدع بها الواشون « المغفلين » - كانت تتفتت على عقل فيصل الكبير الذي يميز الخبيث من الطيب .

ثانياً - هو انني لا استطيع أن أنكر بأنني امرؤ صريح صراحة من شأنها ان تجعل أي واش لاذمة له أن يتخذ من صراحتي هـذه سلاحاً يصيب به مقتلا مني بكل سهولة ، وكنت على يقين من العلم بأن الوشاة لم يدخروا وسعاً عند المسئولين من تحريف الكلم وقلب الحقائق ما أمكنهم الى ذلك سبيلا ، ولكن جميع ما يحوكه الدساسون . وما يفتريه الواشون . كل من هذا وذاك يتجمع وينمو حتى اذا ظن أهله انهم قادرون على نفث سمومهم القاتلة ، ومن ثم وصلت تلك الدسائس الى الفيصل عند ذلك اجدها تتلاشى وتذوب كما يذوب الملح في الماء .

ثالثاً - هو انني مبتلي باعتناق المذهب القائل بأن المؤمن بحقيقة ما ، لا يكمل إيمانه حتى يكون لديه من الشجاعة ما يجعله يعلن ما يؤمن به ، وكان ايماني بهذا المذهب يضطرني بأن اعلن رأيي احياناً شفهياً وتارة كتابياً لا في مؤلفاتي ولا في المقالات التي انشرها في صحف بلادنا فحسب ، لا لم اكتف في هذه الناحية بل اعلن ذلك لفيصل بالذات . بل واعظم من ذلك هو أن المقال الذي تتوقف الصحف عن نشره ، أذهب به أسلمه لفيصل من يدي ليده .

وكم كنت في كثير من الأحيان اناجي نفسي بالندم على ما يبدو مني سواء من صراحتي الشفهية أمام فيصل وعلى مسمع منه أو الكتابية ، بل كم كنت اتوقع رد الفعل المباشر من فيصل ولا سيما عندما أنظر

الى منزلي كموظف بسيط ، يعلن رأيه بكل صراحة أمام أكبر مسؤول في الدولة بدون أن اعلم ماذا الاقيه منه ومن ثم تتضاعف مخاوفي حينما اذكر ما ينسبه عني لا محترفو الوشاية فقط ، ولا اعدائي الحاقدون فحسب ، بل حتى ضعفاء النفوس من ذوى القربى الحاسدين ، فكل من هؤلاء واولئك تتجمع سيوفهم الماضية وقنابلهم المدمرة وسهامهم القاتلة ومن ثم تتخذني هدفاً لها . وكان الأحرى انه لو اخطأني الواشون بسيوفهم لم يخطئني الأعداء الحاقدون بقنابلهم . ولو أخطأني هؤلاء وأولئك . لم يخطئني الحاسدون بسهامهم . ولكن هذه الاسلحة الفتاكة التي التقت على صعيد واحد وليس لها أي هدف اللهم الا سحقي وتمزيقي لربما - كلما تندحر وتتحطم وتحترق من نفسها على نفسها أمام حلم وعقل ذلك الحصن المنيع ألا وهو فيصل بن عبد العزيز - الذي وهبه الله عقلاً ارجح من أن يخدعه الواشون وقلباً امنع من أن يغرر به الحاقدون ، وحلماً أفسح من أن يستفزه الحاسدون .

* * *

وبعد ، فإنني انتهز هذه المناسبة لأشير الى الحوار الذي دار بيني وبين شخص ما - وكان معنى الحديث الذي وجهه الي هذا الشخص يفهم منه ان ما اعلنته من الشكر السالف الذكر . إنما هو على رأي صاحبي ليس الا استهلاكا محلياً فقط ، الأمر الذي جعله يوجه الي السؤال التالي :

« الست مواطناً سعودياً جنسية وولادة .

قلت :

... بلى .

فقال :

- أليس لديك من القدرة والكفاءة مـــا يجعل حكومة وطنك تسند اليك عملاً يتناسب وكفاءتك العلمية ومواهبك الفطرية ؟

قلت :

- أما من حيث كفاءتي العلمية فانني لم احمل شهادة عالية بل وحتى الشهادة التوجيهية لم أنلها . والسبب هو انني قطعت دراستي الثانوية وذهبت متطوعاً ايام حوادث فلسطين ، وبعـد أن وضعت تلك الحرب الخاسرة أوزارها شئت أن أعود لأكمل دراستي . ولكن الذي حصل هو أن حكومة وطني كلفتني القيام بمهمة ما يطول شرحها .

فظننت انه بالإمكان أن انهي مهمتي بوقت قصير ثم اعود لمواصـــلة دراستي . ولكن ظني كان خاطئاً . فكانت النتيجة ان باشرت الحياة العملية . وانقطعت عن مواصلة دراستي الرسميـــة ، دون أن اقطـع استمراري بدراستي الخاصة الى يومنا هذا ، وعلى هذا الاساس لا استطيع ان اقول لك لدي شهادة علمية بمفهومها العام فيما اذا كانت الكفاءآت محصورة على الشهادة المدرسية .

فقال صاحبي .

- أليس لديك مواهب فطرية وتجارب عملية .

قلت :

لا استطيع ان اجيبك على ذلك .

قال :

- ولماذا ؟

قلت :

– لو وجهت مثل هذا السؤال الى أبله الناس لما إعترف على نفسه بأنه مجرد من الموهبة والتجارب .

قال :

– ولكن الذي أعتقده بل والذي دلتني عليه تجاربي الطويلة هو أن الحاكم العادل قد يرحم مواطنيه ويعطف عليهم . ويضع للعجزة والايتام والارامل معونة تكفل لهم عيشة هنيئة لمواطنين . ولكنه لا يسند الى أي مواطن ادنى عمل من اعمال الدولة ما لم يكن لديه من الامكانيات والكفاءة الرصيد الذي يخوله ان يقوم بالاعمال التي تسند اليه خير قيام

قلت :

– هذه ظاهرة محسوسة .

فقال :

.. معناه أن حكومتك عندما اسندت اليك العمل الذي تتقاضى بموجبه راتبا يعينك على نوائب الدهر ويضمن لك الاستقرار الفكري والاطمئنان النفسي ، معنى هذا انه لديك من الموهبة والخبرة ما يتناسب مع عملك الذي اسند اليك .

فقلت :

– هذا شيء ينبغي ان تسأل عنه اصحاب الشأن من المسؤولين .

فقال :

هذا شيء مفروغ منه ولا يحتاج الى سؤال وذلك ان المواطن في

كنف الحكومة العادلة إما ان يكون عاجزاً فتضمن له الحكومة العناية والرعاية التي تقوم بأوده ـ واما أن يكون قادراً على ان يعمل فتهيء له حكومة وطنه عملا يتناسب وكفاءته .

قلت :

ـ كلامك مقنع وحجتك بالغة ومنطقك وجيه .

وما أن سمع مني صاحبي هذه العبارات حتى قام بحركات تعبر عما يختلج في نفس صاحبها بأنه بلغ القمة من انتصاره الجدلي وانه استطاع ان يقيم عليّ الحجة عندما قال :

ـ ما دام الامر كذلك فإنني لا أرى ما يدعو الى اعلان شكرك لحاكم عادل كفيصل لانه عندما آزرك نظر لمصلحة الدولة قبل ان ينظر بعين الاعتبار لمصلحتك كفرد . وهذا ما يجعلني اعتقد جازماً بأنه لو لم يعلم عنك الكفاءة لما اسند اليك ادنى عمل .

وما ان انتهى صاحبي من عبارته هذه حتى اجبته على الفور فقلت :

ـ عليك ان تدرك بأنني لم أعلن شكري لفيصل من أجل ما أشرت اليه ، لا ليس من أجل ذلك فهذا شيء لا أجهل مفهومه وكنه بأنني كمواطن من حقي أن أخدم وطني وحكومته بكل أمانة واخلاص.ومن عدل حكومتي أن لا تحرمني من هذا الحق .

اذن فيكون اعترافي بجميل فيصل وجاهرتي بشكره شفاهياً وكتابياً، مبنيين على ما يلي :

أولاً ـ ان هناك « أولاد حلال » بذلوا كل ما لديهم من المكيدة والدس الرخيص . بل والتزوير حتى وصلوا مرحلة جمدوا فيها مرتبتي ، ومرتبي الشهري مدة بلغت اربع سنوات متوالية بأساليب أربأ بنفسي

عن ذكرها وذكر أسمائهم ،وكان لدي فيصل وقتها من القيام بالاسفار الى الخارج ومسئوليته بأعباء المهام الكبار مـــا يحول بيني وبين الاتصال به ورفع أمري اليه اللهم إلا بفترات متقطعة ، ولكنه مـا ان استقر في البلاد وتولى رئاسة الوزارة وولاية العهد حتى كان من عدله وانصافه ان مزق ستار البـاطل المموه ببصيرته النافذة وأعاد إليّ اعتبـاري لا باعادة رتبتي فحسب بل انه أمر بصرف مرتبـــاتي جميعها الموقوفـة في خلال السنوات الاربع .

وكان بإمكانه ان يقول : ما دام ان هناك أمراً يزعم اولاد الحلال « المفترون » انه صادر من والده الملك الراحـل برقم وتاريخ يشير على حد زعم المزورين بإلغاء أمر والده الاول الخاص بتعييني براتب ورتبة وينص هذا الأمر الاخير « وان لم يكن فيه لا ختم الملك رحمه الله ولا امضاؤه » ينص على إلغاء راتبي وقطع مرتبي الشهري .

أجل .. كان بإمكان فيصل ان يفعل ذلك ولكن عقله الكبير جعـــله يكشف الحقيقة ويزيح الستار عن تزوير المزورين ويعيـــد الحق الى نصابـه . .

ثانياً - جاءت فترة بعد وفاة الملك الراحل يتحدد تاريخها منذ عام ١٣٧٤ هـ ١٩٥٤ الى آخر ٣٧٧-واول١٩٥٨م ففي هذه الفترة بالذات راجت بضاعة الوشاة عندناروا جاً مخيفاً فأصابتني سهامهم عند ملك البلاد في تلك الفترة، فكان من نتيجة ذلك أن أمر بتوقيف راتبي وقطع المخصص الذي كان يجري لي بأمر من والده ، الملك عبد العزيز رحمه الله ، ولئن كان ذلك المخصص ضئيلاً . ولكنه كان أكبر شيء استعنت به على فاقتي وذلك عندما حسم راتبي في الفترة الاولى السالفة الذكر - أما وقد حسم هذا المخصص والراتب معاً فانني قد بلغت من الفاقة ما الله اعلم به ، وقد ظللت فترة من الوقت لا مورد لي . وذلك في عامي ١٣٧٦ هـ و ١٣٧٧ . وكان فيصل وقتها يتعالج في امريكا - وبعد أن بلغت بي الحاجة الذروة تشفع لي عند الملك وزير المالية حينذاك

الشيخ محمد مرور الصبان الذي كان لشفاعته ، جزاه الله عني خيراً ، اثرهـا المحسوس بشكل جعل الملك يبدل رأيه الى حد مـا ، حيث أمر بصرف مرتبي . وفي الوقت ذاته أمر بأن ينقل عملي من السفارة العربية السعودية في دمشق الى المركز العام في وزارة الخارجية بجده .

وبعد فترة قصيرة أمر أن أنقل الى المفوضية السعودية في صنعاء كما أمر أن يكون حسم مخصصي ساري المفعول .

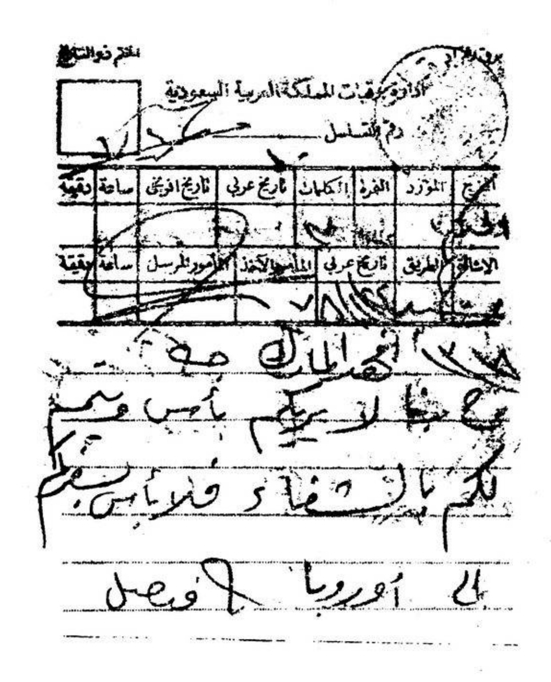
وكنت أتمنى فيما لو خيرت بين أن يبقى مخصصي على ما كان عليه يجري صرفه لي على أن أظل عند أبنائي وبين استمرار راتب الوظيفة على أن أذهب الى اليمن . أقول لو خيرت بين هذا وذاك لأخترت بقاء مخصصي على ضآلته ولم أذهب الى صنعاء حتى ولو كان راتب الوظيفة يزيد اربعة أضعاف عن المخصص ، ولكن القضية لم يؤخذ بها رأيي كما لم يقصد فيها رضائي واطمئناني .

وهكذا ذهبت الى اليمن السعيد ، وقبـــل أن أقضي فترة تستحق الذكر قبل ذلك أصابتني نوبة قلبية كادت تقضي على حياتي .

وكان من حسن الحظ أن الفيصل العادل قـد استلم السلطة وذلك في آخر عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨ م وعلى الفور أبرق الرجل الطيب الشيخ محمد ابن عبيكان الذي كان وزيراً مفوضاً هناك برقية الى وزارة الخارجية في جدة يطلب مأذونية لي بالعودة موضحاً فيها شدة النوبة التي ألمت بي .

ولما كان المرض الذي فوجئت به خطراً للغـــاية فقد عدت الى البلاد بدون أن انتظر رد الجواب من وزارة الخارجية .

وما أن وصلت جده حتى أبرقت لفيصل برقية شرحت فيها له مـــا أصابني من المرض الخطير ، كما طلبت منه أن يسمح لي بالسفر الى اوروبا لكي أبادر الى معالجة ذلك المرض قبل أن يستفحل امره . والى القارىء صورة البرقية التي جاءت جواباً من الفيصل على برقيتي :



إدارة برقيات المملكة العربية السعودية

رقم التسلسل

المخرج	الموارد	النمرة	الكلمات	تاريخ عربي	تاريخ افرنجي	ساعة	دقيقة

الإشارة	الطريق	تاريخ عربي	المأمور الآخذ	المأمور المرسل	ساعة	دقيقة

إلى أوروبا فيصل

وقد كان لهذه البرقية الرقيقة في نفسي أعمق الأثر لا لما تعبر عنه من تواضع وخلق أصيل في نفسية مرسلها فحسب - بل لأنني عندمـا أبرقت برقيتي لفيصل كنت لا أعلم ماذا يأتيني من الجواب فتـارة أتوقع أن الجواب سوف يأتيني بعبارة تحمل التأنيب على مجيئي من صنعاء بدون اذنه وطوراً يخيل اليَّ أن الجواب سوف يأتي بعبارة تشير بأن أذهب اولاً لصنعاء ثم بعد ذلك استأذن من هناك . وكنت متخذاً قراراً في خبايا نفسي بأنه إذا جاء الرد على النحو الاخير بأن استقيل من الوظيفـــة لا أن أعود الى صنعاء لأنني اعتقدت بأن عودتي اليها وأنا اعاني ذلك المرض الشديد . يعني اقدامي على الانتحار.

ولكن كان الجواب من الفيصل علاجاً تاماً لذلك المرض الذي اعتقـــد جازماً ان سببه ومسبباته حصلت من تأثير الانزعـاج النفسي الذي اصابني بسبب ما ابتليت به من كيد الواشين ودسائس الدساسين .

وقد ذهبت الى المانيا متعالجاً على حساب الدولة حسب الأنظمة المرعية. وبفضل برقية الفيصل التي استندت اليها لدى الجهات المختصة ، وبعـــد أن قضيت في اوروبا ما يقارب الشهرين - قضيتها بين الاطباء والمستشفيات واكثر هذه المدة في المانيا ، بعد ذلك عدت حـاملاً معي تقريراً طبيـاً من الطبيب « تشاد » وقد شخص ذلك الطبيب مرضي . وأكد عدم وجود المقاومة الصحية لدي في أي جو مرتفع كصنعاء وما ان رفعت وزارة الخارجية رأي الطبيب للفيصل حتى جاءت برقية منه تنص على ان انقل الى الجهة التي تلائم وضعي الصحي ، والبرقية تحمل هذه المعاني الرقيقة لا استطيع ان ابرز كليشه عنهـــا كالأولى لأنها موجهة لوزارة الخارجية .

وحسب أمر الفيصل عرض عليَّ وكيل وزارة الخارجية الدائم والحالي السيد عمر السقاف عرض علي عدة ممثليات عربية ومن جملتها « ليبيا » ، فاخترت

ليبيا حيث ظللت فيها حتى أصابني مرض الربو الذي يتنافى والجو الرطب كتلك البلاد .

والملاحظة التي أجدني ملزماً بالاشارة اليها هي انني قبل أن أذهب الى ليبيا أشار عليّ صديقي الوفي الأخ عبدالله السعد بأن أراجع الفيصل بشأن صرف (مخصصي) مؤكداً بأن الفيصل كبر منه لوالده أمر بكل شيء يجري لأصحابه بأمر والده ـ ووفقاً لنصيحة الأخ السعد راجعت الفيصل بذلك فطلب مني أن اقدم له دليلا ملحوظاً يثبت أمر والده فذهبت وعدت اليه مستصحباً وثيقة تحمل رقم وتاريخ أمر والده بذلك ، فما كان من عدله من ناحية وبره بوالده من ناحية اخرى إلا أن نفذ أمر والده فأمر بصرف معظم مخصصاتي المقطوعة منذ تلك الفترة التي سعى الواشون بحسمها .كما أمر باستمرارها

بعدما أسمعت صاحبي هذه الحقائق قلت له :

ـ أليس بإمكان فيصل ان يقول ما دام ان الأمر بنقلي من اليمن صادر من اخيه أي الملك السابق فإنه ليس مسؤلاً عما اصابني من المرض الخطير الذي أهم ما يهم الوشاة ان يقضي هذا المرض على حياتي .

ـ نعم كان بإمكان فيصل ان يتركني وشأني اواجه احد الامرين : اما ان اهرب من اليمن واهرب ايضاً من الوظيفة بل وقد اهجر البلاد واهلها لا جفاء مني لوطني ولكن كما قال الشاعر :

لا تحسبوا بغضي الاوطان من ملل
لا بـــد للود والبغضاء من سبب

قل وذل وخذلان وضيم عـــدى
مقام مثلي على هذا من العجب

او ان ابقى في اليمن ليفتك بي المرض حتى الاقي حتفي – ولكن وجدان فيصل العامر بالعدل والمليء بالإنصاف أبى إلا ان يأخذ بيدي وينقذني من مواجهة المشكلتين السالفتي الذكر اللتين كنت على وشك ان لا انجو من الاصطدام بواحدة منها

وإذا اعدت النظر كرة اخرى في اعادة مخصصي طاب لي ايضاً ان اقول :

أليس بإمكان فيصل ان ينأى بجانبه عن اعادة مخصصي ولديه من العذر ما يجعله يقول ما دام ان الامر بقطعه صادر ممن هو اكبر مني فإنني والحالة هذه لست مسؤلا عنه .

طبعاً كان بإمكان فيصل ان يقول ذلك . ولكن انصافاً منه للحق وعلماً منه بأباطيل الوشاة ، وبرأ منه بوالده ، كل ذلك جعله ينقض كلما ابرمه الواشون .

ثالثاً مرت البلاد في محنة شديدة ابتدأت منذ عام ١٩٦١ حتى عام ١٩٦٣ أي منذ حين انفصال سورية عن الجمهورية العربية المتحدة الى مؤتمر القمة العربي الاول ففي خلال تلك الفترة العصيبة التي خير اسم ارى انه ينطبق عليها هو اسم ازمة الضمير ، في تلك الايام السيئة كثر الهرج والمرج . واختلط الحابل بالنابل وانقلبت المقاييس واصبح مقياس الاخلاص والوطنية في نظر نفر ما هو القدرة على ما تبديه العواطف من تملق وتزييف ، واصبح المرء الذي لا يساير هذه الموجة العارمة عرضة لاتهام المتهمين وهدفاً لسهام الواشين .

إذن ما هو يا ترى مصير من يخالف ذلك الخلق المنحرف بكتاباته وبأقواله وبافعاله وبسلوكه وبجميع تصرفاته بصورة صريحة وعلانية .

وإذا شئت ان اعبر للقارىء بصورة اوضح واصرح ، قلت : ما هو يا ترى مصير بل عقاب المرء الذي يعارض ذلك التيار بل ويقاومه بكل ما أوتي من القوة . وهو في الوقت ذاته مبتلى بأعداء جهله حقودين ووشاة مرتزقين يرون ان لا يقوم مجدهم إلا في الوقت الذي يستطيعون به ان يشككوا المسؤولين باخلاص كل مواطن أبيّ مخلص لوطنه ولحكومته حتى ولو كان هذا التشكيك لا يتم إلا على حساب اضرام نار العداوة والحقد بين المسؤولين المخلصين للوطن وللمواطنين ، الذين هم جزء منهم ، وبين المواطنين الأباة الاوفياء لوطنهم ولحكامهم اقول حتى ولو كان الامر لا يتم إلا على هذه الطريقة فإنه لا يهم الوشاة ذلك بقدر ما يهمهم الكسب المعنوي والمادي الذي ينالونه من وراء مساعيهم الوخيمة العاقبة على الوطن وأهله .

اجل يا اخي كيف ينجو ويسلم مواطن ككاتب هـذه الاسطر الذي يتربص به هؤلاء الواشون الدوائر ويحصون عليه زلاته ، ويحسبون عليه عثراته فإن نجا من اتهاماتهم القبلية والعنصرية . فإنه لا ينجو من اتهاماتهم الفكرية والسياسية .

وهكذا كان المفروض ان اذهب ضحية رخيصة لدس الدساسين ولافتراءآت المفترين لولا عناية الله ثم وجود الفيصل الذي كان عقله خير شافع لحمايتي . وادراكه اعظم حصانة لوقايتي ، وفهمه اكبر عون لاطمئناني .

وبعد فقد تحديت صاحبي الذي عارض رأيي في بداية الأمر قائلاً له :

« هب نفسك بمنزلتي وافترض انك ابتليت بجميع الظروف التي ابتليت بها انا واعتبر أن الوشاة والأعداء والحاسدين تكالبوا عليك وكل من هؤلاء وأولئك ارادوا سحقك من عالم الوجود بالأسلوب نفسه الذي اتخذوه نحوي وفي الحين الذي شعرت انك على جرف هاو في تلك اللحظة الحاسمة يسر

لك الله رجلاً كفيصل يتصدى لكبح كيد أولئك الدسائسين ويعد نفسه لحمايتك ويذود عن كيانك بل ويضمن لك الطمأنينة ويوفر لك السعادة ، وهو في الحين ذاته ليس بحاجة الى وفدك كما انه لا يخشى ضررك - فقل لي بربك الا ترى انه من الوفاء بل الواجب الخلقي مكافأة من يقف معك مواقف كهذه . ولو لم يكن من هذه المكافأة الا اعلان الشكر الذي هو كما اسلفت بإنه ادنى مراحل المكافأة وأقل ما يمكن للمكافىء ان يقوم به ، عندما وجهت لصاحبي المعارض هذه الجمل قلت له :

- اجبني على ذلك .

فأجابني بقوله :

- بلغني عنك انك عصبي المزاج ، وهذا مما يجعلني أتردد في اجابتك على ذلك بجملة قد تثير اعصابك فيما لو اسمعتك إياها .

قلت : قد يكون فيما بلغك عني شيء من الحقيقة ولكن التجارب جعلت مني انساناً احتمل الشيء الذي لم يكن من خلقي احتماله خاصة اذا كان هذا الشيء صادرا من النوع الذي لا يعتبر احتمالي له جبناً وضعفاً بقدر ما يعتبر تسامحاً وعفواً .

فقال صاحبي : اذن اسمح لي ان أقول : ما دمت معترفا لفيصل بهذا الجميل الذي تدعمه بالأدلة والوثائق . ما دام الأمر كذلك لماذا لم يأت اعلان شكرك له الا بهذا الظرف بالذات .

قلت : ان اعتراضك هذا وان يكن فيه شيء من اتهامي بالتزلف ما يثير الاعصاب حقا ، ولكن لا استطيع الا أن اقول انه إعتراض وجيه ، ولذلك لا يسعني الا أن أجيبك على ذلك بادلة منها ما هو من صميم تاريخنا

العربي والاسلامي ، ومنها ما هو من وحي تاريخ عصرنا القريب الحديث وعليّ ان اجيبك أولاً بما استند اليه بالأدلة الناصعة من تاريخنا العربي العريق فأقول : لقد اعطانا نبينا محمد عليه الصلاة والسلام درساً كافياً في اسلوب دعوته الإنسانية . وارشدنا الى الطريق السوي وجعلنا نتخذ منه قدوة في مراحل كفاحه ونضاله فنجده مثلا لم يأمره ربه باعلان ثلاثة اركان من اركان الدين الاسلامي الهامة كالزكاة والصوم والحج ، هذه القواعد التي لا يعتبر المسلم مسلماً حتى يؤمن بها نجد الرسول محمداً لم يصدع بها الا بعد مضي عشر سنوات ونيف من تاريخ رسالته ، وذلك عندما اصبح للاسلام من المناعة القدر الذي يحميه من كيد الكائدين ، فإذا كان محمد عليه السلام وهو يسير بوحي من ربه لم يعلن ثلاثة اركان الاسلام الا بعد ما اتيحت له الفرصة التي أمر باعلانها ، فإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للنبي الذي ينزل عليه الوحي من ربه، فإنه من بدهيات الامور والحالة هذه ان لا تلومني فيما اذا وجدتني لم اعلن شكري لفيصل الا في هذه الفترة . إذ لو فعلت ذلك في الفترة التي كانت قوى الشر كلها متجهة نحوي فمعنى هذا انني اعطيت الوشاة سلاحاً يقتلونني به بكل سهولة وعندها أكون خالفت تعاليم وهدى شريعتنا الاسلامية القائمة على القاعدة القائلة «دفع المفاسد مقدم على جلب المصالح» - وبعد فإن هذا جوابي الذي استمده من تاريخنا العربي والاسلامي - اما جوابي الذي استشهد به من منطق عصرنا الحديث كدليل واضح المعالم ، وهو ما استدل به خروتشوف كجواب منه على سؤال احد الشباب الروسي ، وذلك في المناسبة الآتي شرحها .

عندما عقد المؤتمر الشيوعي احدى جلساته في عهد ما وأظنه اذا لم تخني الذاكرة في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي ، ففي ذلك المؤتمر بدأ خروتشوف يهاجم ستالين وينال منه بعنف . فقام احد الجالسين وقدم ورقة وكتب عليها الجمل الاتية - لماذا لم تهاجم ستالين في حياته وايام

فوته – وكانت الورقة بدون توقيع صاحبها – او قد تكون بامضاء مستعار ، فقرأ الورقة خروتشوف علانية حسب الاصول المرعية في تقديم سؤال كهذا – وبعد ان أسمعها جميع من حضر في المؤتمر – عند ذلك سأل عن الذي قدم الورقة وطلب منه باسلوب التحدي بان يعلن اسمه بصورة صريحة ، ولما لم يستطع مقدم الورقة ان يتجاهر باعلان اسمه خوفاً من العقاب عند ذلك انحرف خروتشوف الى من في المؤتمر وقال:

ان السبب الذي منعني من ان أنتقد ستالين في حياته هو السبب نفسه الذي منع صاحب الورقة المقدمة اليّ بهذا السؤال بأن يعلن اسمه امامي .

* * *

هذا وانني عندما أدليت بهذه الأدلة لصاحبي كجواب مني على سؤاله بعد ذلك قلت له :

– هل بقي لديك سؤال آخر توجهه اليّ أو معارضة تنقدني بها ؟ فقال : كلا – فقلت : أقنعت الآن ؟ فقال : ان حججك كلها معقولة ومنطقية وقد يقنع الانسان بمنطق ما عندما يجده واقعياً كمنطقك هذا ثم مضى صاحبي مسترسلاً بحديثه الى ان قال : ولكن لا يفوتك الانتباه الى ان الاقناع شيء والإيمان شيء آخر .

قلت : يهمني ان اقيم عليك الحجة بالإقناع وان أفند معارضتك بالمنطق ، فإن آمنت فيها وان لم تؤمن فإنك لم تكن أول من أقيمت عليه الحجة والبرهان

فآمن بعقله ولم يؤمن بقلبه .

فابتسم صاحبي وأومأ برأسه كعلامة الاقتناع بما قلت دون ان أعلم عنه هل اضاف الى قناعته بعقله إيماناً بقلبه أم لا ؟ ثم قام صاحبي بعد ذلك من عندي مودعاً وقبل ان يفوه بكلمة الوداع قال :

يجب ان تدرك وتثق بأن ما تكتبه اليوم سيظل سجلاً تاريخياً الى الأبد ، وان ما يبدو لك ولنا اليوم من الأدلة التي اوردتها الآن وهي أدلة لا شك بأنها منطقية ومقنعة بالنسبة لمفهومنا الحالي . أو الأحرى بالنسبة للظروف الراهنة التي نعيشها سوياً . ولكنها قد لا تكون منطقية ومقنعة في مفهوم الاجيال القادمة ، وما تعتقده ونعتقده نحن معك بأن ما قد نراه اليوم بأنه حجة لك بصورة لا تقبل الجدل .. فإنه قد يكون حجة عليك في الغد ..

قال صاحبي هذه الكلمة ومد يده قائلاً كلمة الوداع ، ولكنني قبل ان ارد عليه تحيته الوداعية اجبته على كلمته الاخيرة قائلاً :

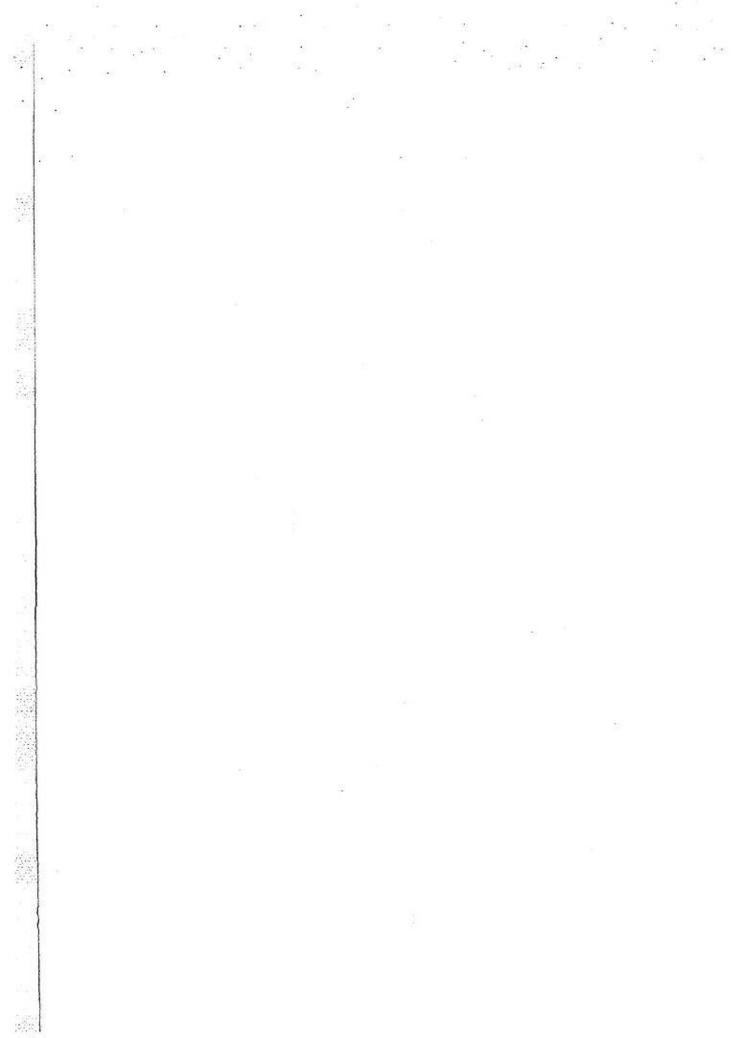
– يهمني الآن ان اسجل شيم العرب التي كان لي الشرف ان قدمت منها لناطقي الضاد حتى الآن اربعة اجزاء تضم مائة وسبعاً وخمسين قصة مختلفة باختلاف فصولها البالغة ستة عشر فصلاً من بينها الوفاء والامانة واصطناع المعروف والمكافأة عليه الخ... وليس لي غاية من وراء ذلك سوى ان يستمر الوفي في وفائه وان يمضي الامين بأمانته وان يسير صانع المعروف بمعروفه ، لكي يكون ثمة تنافس على القيام بمثل هذه القيم .

سلطان الاطرش



قصة صاحب هذه الصورة في صفحة ٦٧

خففـَت لنجدة العـــاني سريعاً	غضوبا لو رآك الليثُ ريعـــا
الم يلبس عـداك التنك درعـاً	فسلهم هل وقى لهمو ضلوعـا ؟

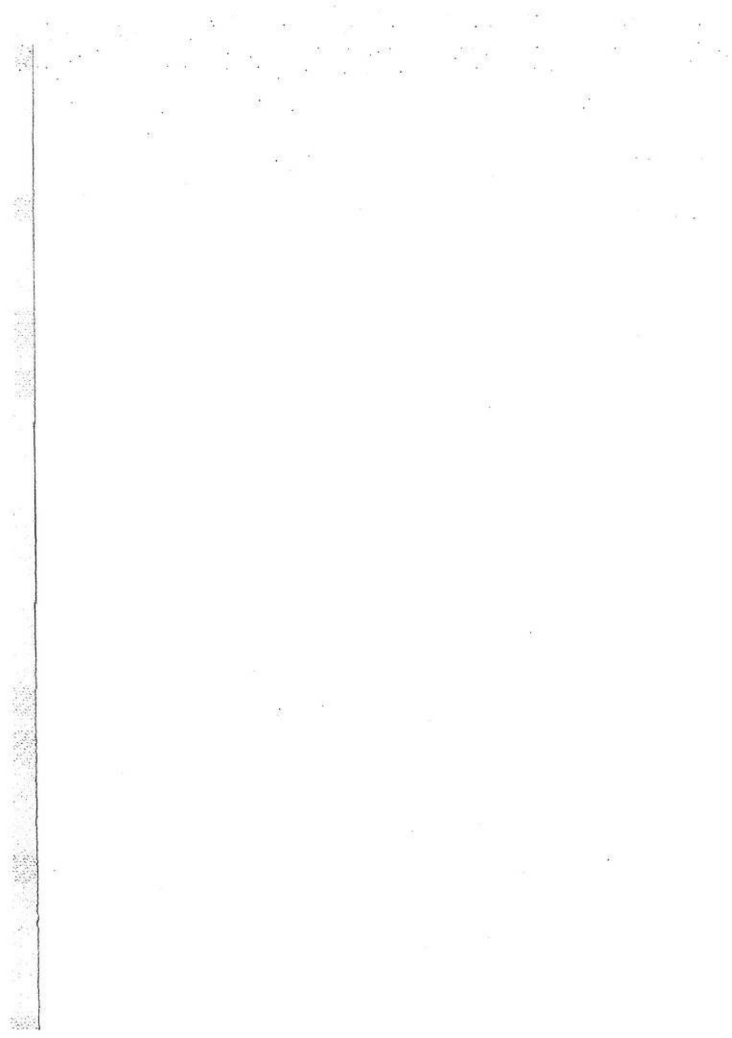


وبالك « أطرشاً » لما دُعينا لثأر كان اسمعنا جميعا
فتى الهيجاء لاتعتب علينا وأحسن عذرنا تحسن صنيعاً
تمرستم بها ايام كنا نمارس في سلاسنا الخنوعا
فأوقدتم لها جئنا وهاماً واوقدنا المباخر والشموعا
إذا حاولت رفع الضيم فاضرب بسيف محمد واهجر يسوعا [1]

للشاعر القروي
رشيد سليم الخوري

---

١ – يقصد الشاعر في هذا المعنى ما ينقل عن عيسى عليه السلام بقوله من صفعك على خدك الأيمن فادر له خدك الأيسر. بينما القرآن الكريم يقول « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » الى آخر الآية

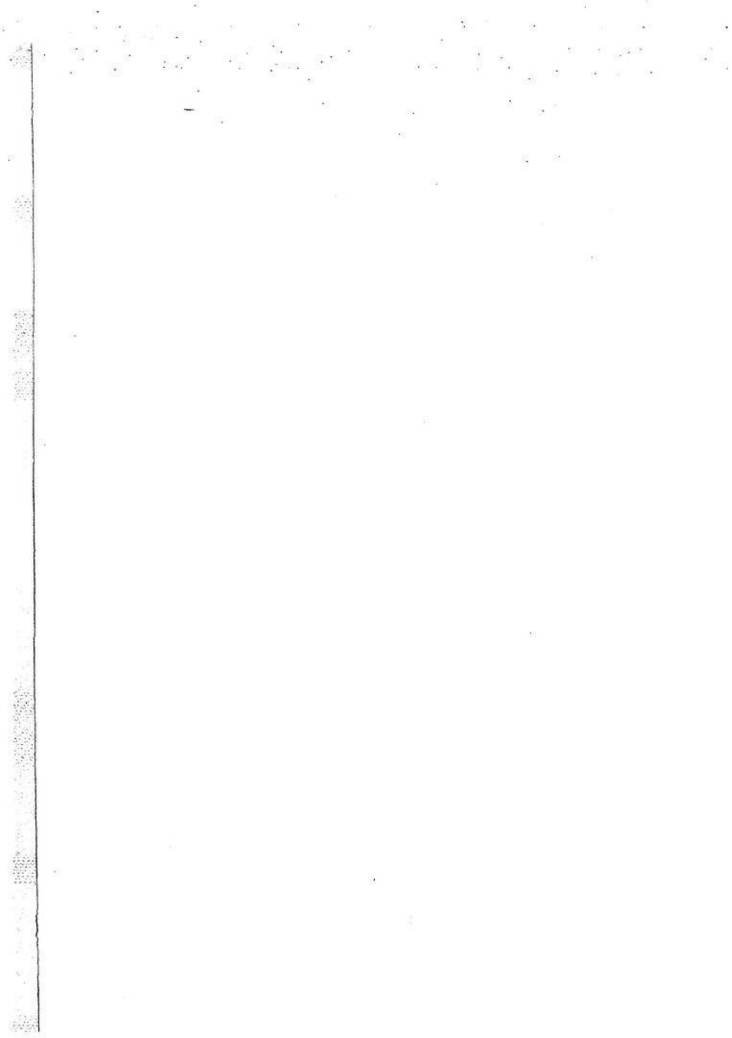


ثم مضيت بأجابتي لصاحبي فقلت :

– اما اذا جاء عهد تنقلب فيـــه المقاييس الى الحد الذي ينظر فيه الى المرء الذي يؤمن بهذه القيم نظرة ازدراء . فانني افضل ان يتهمني رجاله بما يشاءون وأن يحكموا علي بما يريدون أفضل ذلك وانا مؤمن بقيمنا العربية على أن أعيش في عهد يتنكر أهله لمثل هذه الاخـلاق العربية العريقة

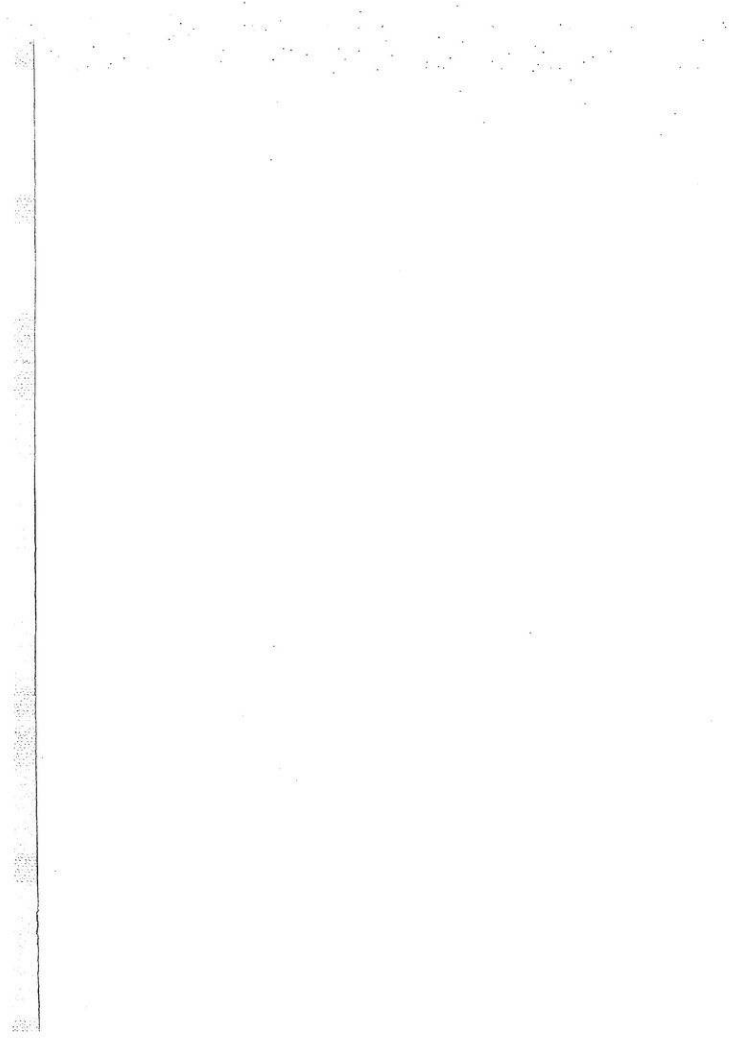
قلت هذه الجمل ثم مددت يدي مصافحاً لصاحبي ومودعاً له ..

إنتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث



استدراك

على الرغم من الجهود التي بذلت دون وقوع بعض الغلطات المطبعية. وعلى الرغم من وضع جدول موضحاً فيه الخطأ والصواب ، فقد وقع بعض الغلطات المطبعية الجزئية التي لا تخفى على القارىء الكريم ، وكان ضيق وقت المؤلف المحصور باجازته الادارية من اهم الاشياء التي قضت بعدم وجود الوقت الكافي لتصحيح كتاب كهذا الكتاب البالغ صفحاته ما يزيد عن الف صفحة ونيف والشيء الذي استرعي كريم انتباه القارىء اليه هو ان الكثير من الغلطات وقعت في القصائد الشعبية التي بقدر ما تفوت على اصحاب المطبعة بحكم جهلهم بمعرفتها بقدر ما تفوت علي ايضاً لأنني حافظ لها غيباً مما يجعلني اقرأها بعقلي اكثر من قراءتي لها بعيني،واعتقد جازماً انه لولا وجود الاستاذ حمدالجاسر العالم بالأدب الشعبي كعلمه بالأدب العربي الذي ساعدني على تصحيح الكثير من هذا الكتاب لولا ذلك لوقع من الغلطات في القصائد الشعبية ما هو اكثر من ذلك .



الفهرس

	صفحة
المقدمة	٢٨١
الفصل الاول (حماية المستجير)	٣٠٤
– منتهى التضحية وأسمى معاني المروءة	٣٠٥
– الشيم العربية لا تذعن للمعاهدات السياسية	٣٢٧
– لكم أن ترهنوا أخي	٣٣٥
– حتى ولو كان عمداً عفونا عنه	٣٤٦
– الشقي الذي شقي به اهله	٣٥٥
– اسراف في التضحية	٣٦٥
– انتفاضة عربية معاصرة من اجل المستجير	٣٦٩
– اجاره ولو أمر بقتله لقتله	٣٧٣
– ميت يجير احياء	٣٧٧
– المثل الذي عرفت جانباً منه ولم اعرف الجانب الآخر	٣٨٠

- الرجل الذي خلد مآثر قومه ٣٨٤
- طغت حرمة الجوار على عاطفة الرحم ٣٩٠
- ندبة المستجير قتلت المجير ٣٩٤
- لولا أخي لما قتل مستجيري ٣٩٦
- حرمة الجوار ليست مقصورة على الانسان دون الحيوان ٣٩٩
- الرجل الذي كان سبباً لامتداد اجلي ٤٠٢
- فيك الخصام وانت الخصم والحكم ٤٤٥
- استجار بالاشارة فأجير ٤٤٩

الفصل الثاني (حماية الجار واكرامه) ٤٥٩

- لا يعاقب الجار حتى ولو كان مخطئاً ٤٦٠
- لا فرق في حرمة الجار في العرف العربي ٤٦٥
- ثقوا انكم لن تأخذوا جاري ما دمت حياً ٤٦٨
- حتى ولو غضب الامير ٤٧٢
- ضحى بأعز ما يملك من أجل جاره ٤٨٢
- هاجر عن ذويه وعادى حاكمه من أجل جاره ٤٨٧

الفصل الثالث (الصبر على المصائب) ٤٩٥

– الصبر على المصائب مصيبة على الشامت ٤٩٦

– الصبر سر النجاح ٥٠٩

الفصل الرابع (اصطناع المعروف والمكافاة عليه) ٥٢١

– اذا كان ابتكار المعروف فرض كفاية فان المكافأة عليه فرض عين ٥٢٢

– ادخار الفضل في اعناق الكرام خير من ادخار المال ٥٣٢

– الفضل يملك الكريم وان قل ٥٣٧

– الكريم الذي ينسى ما اسداه من معروف ويذكر ما أسدى اليه ٥٤٣

الفصل الخامس (بر الوالدين وفطنة المرأة العربية) ٥٤٩

– الفتاة التي طغى برها بوالدها على عطفها على أبنها ٥٥٠
– اذا كان لك يد على الكرام فلا تخف ٥٥٩

الفصل السادس (افعال البر والسخاء المحمود) ٥٦٥

– باعث نهضة ومعلم جيل ٥٦٦
– قيمة الرجال بأعمالهم ٥٧٧
عندما تطغى المروءة على الجشع ٥٩٢
– من ثمرة الاحسان ٦٠٠
– من صنع خيراً جنى ثمرته ٦٠٤
– بيتان متشابهان ٦١٠
– بيت الفتيان العرب ٦١٦
– جابر عثرات الكرام ٦٢٠
– حينما يكون العمل خالصاً لله ٦٣٩
– شكر واعتراف بالجميل ٦٦٣